التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد: ٦٥ - جمادى الأولى ١٤١٧ - تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٩٦ - السنة ١٧

س-هـ

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد : ٦٥ ـ جمادى الأولى ١٤١٧ هـ ـ تشرين الأول «اكتوبر» ١٩٩٦م ـ السنة السابعة عشرة

□ ترسل المواد والمراسلات إلى العنوان التالي :
المدير المسؤول ـ اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ـ ص.ب : ٣٢٣٠
هاتف: ٦١١٧٢٤٠ـ٦١١٧٢٤١ـ٦١١٧٢٤٢ـ٦١١٧٢٤٣ ـ فاكس: ٦١١٧٢٤٤

تنويه :

١ ـ المواد الواردة إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها سواءً نشرت أم لم تنشر .
٢ ـ يخضع ترتيب المواد لاعتبارات فنيّة وطباعيّة .
٣ ـ يُرجى من كتّاب المجلة التقيّد بما يلي :

أ ـ كتابة دراساتهم بخط واضح ومقروء ، أو طباعتها على الآلة الكاتبة .
ب ـ يجب ألاّ يتجاوز البحث أو الموضوع عن /٢٠/ صفحة من صفحات المجلة .
ج ـ يجب أن يكون البحث أو الموضوع خاصاً بمجلة التراث العربي .. وغير منشور في كتاب أو دوريّة أخرى .
د ـ كتابة تعريف وجيز بكاتب الدراسة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبية والعلمية والمهنية .
هـ ـ إرسال عنوان الباحث مع البحث أو الدراسة .

الاشتراك السنوي

داخل القطر	للأفراد	:	١٥٠ ل.س
في الأقطار العربية	«	:	٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي
خارج الوطن العربي	«	:	٤٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي
الدوائر الرسمية داخل القطر		:	٣٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي		:	٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي		:	٦٥٠ ل.س أو (٤٠) دولار أميركي
أعضاء اتحاد الكتّاب		:	٧٥ ل.س

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

الاخراج الفني : أكرم أقدار
المدقق اللغوي : ممدوح فاخوري

المحتوى

دمشق ..
في مطلع القرن العشرين

نصر الدين البحرة

في هذا الكتاب « دمشق في مطلع القرن العشرين » الذي حققه علي جميل نعيسة ، يروي المؤلف أحمد حلمي العلاف هذا الخبر :
« كان الطبيب الرسمي يستخدم لديه بعض الجنود ، فيمضي سنتين ، يخرج من بين يديه طبيبا او جراحا عند انتهاء مدة خدمته الالزامية وعودته الى وطنه وأهله . فكان في دمشق طبيب جراح مشهور يدعى « السر طبيب عثمان باشا » فتخرج على يديه الكثيرون وتوزعوا في البلاد أطباء رسميين بأيديهم شهادة رسمية من يده ، يزاولون الطب والجراحة ويفتكون في الناس على غير هدى . »

هكذا اذن . إن الكاتب يُعنى في الصفحات التي خطها بتدوين التاريخ الاجتماعي للمدينة ، وكان المؤرخون «حتى القرن التاسع عشر يهتمون بالتاريخ السياسي فقط ... ولكن منذ القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين يوجهون أنظار الناس إلى نوع جديد من التاريخ هو التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بعادات المجتمع وتقاليده ويهتم بالجماعة أكثر من اهتمامه بالأفراد . وهذا الكتاب يمثل التاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، لكن مؤلفه لم يستطع إنهاءه أو نشره لأسباب نجهلها » كما يقول الأستاذ نعيسة .

وكان الكتاب في الأصل مخطوطة بنسخة واحدة لا ثانية لها ، وجدها المحقق في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وقد كتبها العلاف بخطه قبل وفاته

بفترة قصيرة • » ويبدو أن هذه المخطوطة كانت مسودة لكتاب لم يتح للمؤلف إتمامه ، فقد جاء في آخر فصولها عنوان لفصل لم يتكلم عنه •

وصـف كامـل لدمشـق واهلهـا

هناك فصول كثيرة في هذا الكتاب تتنـاول وصـف دمشـق طوبوغرافيـا وديموغرافيا وفولكلوريا • وهكذا فان المؤلف وصف ثياب الناس في دمشق على اختلاف فئاتهم الاجتماعية ووسائل النقل والركوب التي استخدموها في مستهل هذا القرن ، وتناول بحديثه طقوسهم واحتفالاتهم ، من الأعياد والمناسبات الدينية ، إلى حفلات الختان والولادة والأعراس • وعقد فصولاً أفاض في الحديث خلالها عن الحياة الثقافية والنزهات والسهرات والملاهي • وفي الآن ذاته لم يهمل الشؤون السياسية ، فاستعرض واقع الصحافة في تلك الأيام وأنظمة الادارة في الدولـة ، والقضية العربية •

وإن ما يجعل لهذا الكتاب أهميـة استثنائيـة أن كثيرا من الصـور التي يعرضها العلاف فيه « لم يبق منها اليوم سوى ظلال لا نكـاد نلمحها إلا في بعض الأحياء القديمة... سجلها المؤلف تسجيلاً حياً متحركا يسمعنا فيه الصوت والنغمة واللهجة ، ويرينا الحركة واللون » كما يقول الأستـاذ نعيسة في المقدمة التـي وضعها لهذا الكتاب •

اربعـة اطبـاء وكحّـال !

لقد بدأنا هذا الحديث بالاشارة الى واقع مهنـة الطب كما كانت في مطلـع القرن العشرين ، فلنتابعه اذن •

يقـول العلاف : لم يكن في دمشـق طبيب بالمعنى العلمي ، انما كان أطباء نشؤوا على أساس التجربة الكسبية من رؤسائهم ومعلميهم ، غـير مدينين لأيـة ثقافة علمية أو أية جامعة طبية ، فكان في دمشق جميعها أربعة أطباء أو خمسة وكحّال واحـد ـ أي : طبيب عيون ـ ولم يكن هناك طبيب جرّاح لأن الجراحة وطبابة الأسنان والعيون مجتمعة كانت داخلـة في اختصاص الحلاقـين ، فكنت تدخل دكان الحلاّق فتجـد فيه أنواع المراهم والقناني الصغيرة مـلأى بأنواع

الأدوية الجراحية ، وإلى جانب ذلك ترى ساحبات الأسنان والأضراس معلقة في الجدار ، والمبازل الى جانبها ٠٠٠

ولم يكن في دمشق من المحامين المأذونين المختصين ما يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بل كان أكثرهم من أرباب الحرف الأخرى ، تركوا مهنتهم الأولى نتيجة إفلاس أو كساد ، وغالبا ما تكون لهم قضية مزمنة مرّت عليها مختلف الأدوار في المحاكم، فاكسبهم ذلك المرونة الكافية ليصبحوا محامين أو وكلاء ٠٠٠ وبقي الحال كذلك حتى عام ١٩٣٠ ،حين جرى التصنيف ، فخرج بعضهم وبقي بعضهم الآخر ٠

ويوضح الملاف أن القضاة أنفسهم في المحاكم لم يكونوا جميعا أرباب اختصاص ، وكان يتخلل القضاة المأذونين من معهد الحقوق أعضاء آخرون يؤخذون بالانتخاب والانتقاء ٠٠٠

صيدلية سليم فارس

ولكن ماذا عن المهنة العلمية الأخرى ٠٠ الصيدلة ؟

يقول العلاف ان الصيدلة كانت معدومة تماما في دمشق ومحصورة في حوانيت العطارين ، واقدم صيدلية عرفت في دمشق صيدلية سليم فارس في سوق البزورية ، ولم تكن « بشكل فني لان الاطباء انفسهم يطببون ويعطون الدواء من عندهم،فاذا احتاجوا الى دواء غريب اجنبي امروا ذوي المريض ان يشتروه من صيدلية سليم فارس ، واكثر الادوية كانت تؤخذ من العطارين ٠ » ٠٠٠« فكان المريض يشتري الدواء من العطارين ويركبه بنفسه في داره حسب تعريف العطار، وكثيرا ما كان يخطىء بالمقادير فتسبب له امراضا مستعصية او ازديادا في الاوجاع والامراض ٠٠٠ »

الناس جميعا ٠٠ مهندسون

الأطرف من هذا وذاك أمر الهندسة ٠٠٠ الهندسة المعمارية ، فلا علم لأحد بها ، على حدّ تعبير المؤلف « لأن الناس جميعاً مهندسون بالفطرة ٠ يستقل كل منهم بذوقه في إقامة داره أو دكانه مستعيناً بالبنّاء أو النجّار أو النحّات، وعلى الأسلوب الذي يختاره له ذوقه ٠

وأما هندسة المياه والجسور والكهرباء والميكانيك والشُعَب الأخرى، فهذه لا تعلم دمشق لها وجوداً عندها .

والحكومة كانت أقل اهتماماً من الأهالي في سائر المهن العلمية والفنية ، وما كانت تقيم لها وزناً ولا تفكر في ناحية من نواحي الاصلاح المحلي أو العمراني أو الثقافي في البلاد » .

كانت دمشق في مطلع القرن العشرين كما يقول أحمد حلمي العلاف تقسَّم إلى ثمانية أثمان ، كل واحد منها مقسَّم أيضاً إلى أحياء وحارات وأزقة، وهذه الأثمان هي : القنوات ، مئذنة الشحم، القصاع، العمارة، سوق ساروجة، حارة اليهود، باب السريجة، الميدان . ثمَّ لمَّا اتصلت الأبنية بقرية الصالحية أصبحت هذه من أقسامها الرئيسية .

ثلاثة أسواق كبرى

وكما يبدو فانه لا يفصل دمشق الجديدة عن القديمة داخل السور ... وإنما يعدها جميعاً كلاً واحداً يتمم بعضه بعضاً .

وفي المقابل ، فقد كان في دمشق ثلاثة أسواق كبرى تتفرع عنها أسواق أخرى ، وهذه الأسواق هي سوق الحميدية ، ومدحة باشا ، والبزورية .. وهي جميعاً مغطاة بسقوف مرتفعة لوقايتها من عوارض الشتاء والصيف .

وبعد أن يقدِّم حديثاً مفصلاً عن هذه الأسواق والأحياء ، يشير إلى المسألة السكانية في دمشق ، فيرى أن السجلات التي تركها العثمانيون ليست صحيحة نظرا لكثرة تلاعب الموظفين بها تحت « تأثيرات شتى » مما أدى الى بقاء كثيرين من سكان دمشق مكتومين . إلا أنه مع ذلك يذهب إلى أن عدد سكان دمشق زهاء ثلاثمئة ألف نسمة ، بمن فيهم المستوطنون كالأفغان والعجم والهنود والأرناؤوط والشركس الخ .

قنباز .. وعمائم مطرَّزة

ويصف العلاف ملابس الناس في مطلع هذا القرن فيقول إنهم يلبَسون القنباز وعليه معطف رقيق ، ويلبَسون عمائم مطرزة فوق الطرابيش . ويشرح

محقق الكتاب الأستاذ نعيسة معنى« القنباز » نقلاً عن د. حسن حمامي ، وهذا ينقل بدوره عن المؤرخ المقري قائلاً : هو ثوب طويل يصل إلى مشط القدم مفتوح بكليته من الأمام عريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً نحو الأعلى، ويُردَف الطرفُ الأيمن عادة فوق الطرف الأيسر ويغلق عند العنق بزر ظاهر ٠

ويوضح هذا الكاتب أن اختلاف وضع العمامة على الطربوش واختلافَ القماش الذي صنعت منه يشيران إلى حالة لابسها الاجتماعية أو الدينية فقد يكون إماماً أو خطيباً لمسجد أو قاضياً أو مفتياً إلخ ٠٠٠ وقد يكون تاجراً أو عاملاً حرفياً ٠٠

أما الناس العاديون فانهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمر ٠ وفي الأغلب فانهم يحزمون أوساطهم بحزام عريض من الشال المقلم أو من القطن الأبيض أو الحرير ٠ ويضعون بين الشال والقنباز الساعة المدلاة من العنق بخيط حريري أو قطني ، أو السواك ، وإلى جانب الظهر يعلقون البشكير ٠٠٠ فقد يحتاجونه للوضوء أو لينقل بعض الفواكه أو الخضر أو الخبز ، عند العودة إلى الدار ٠

أحذية مكشوفة وقباقيب خشبية

وكان معظم الناس يحتذون الأحذية المكشوفة إلا عند أصابع الرجل ، يحتذونها دون جوارب ، غالباً ٠ ومنهم من كان يلبس القباقيب الخشبية في الشتاء ٠ أما العمال وأصحاب المهن الشاقة فيلبَسون السروال الأسود الضخم يضيق عند كعبي الرجل ٠ وكان المتوسطون والأغنياء ينتعلون الأحذية اللماعة ، وفي الشتاء كانوا جميعاً يلبَسون الجوارب الصوفية من صنع البلد ٠

وأما الصناع والعمال فيضعون على رؤوسهم الطاقية من نسيج ملون أو اللبادة من الصوف أو الوبر المضغوط ،ويحزمون فوقها الكوفية أو المنديل أو قطعة قماش أخرى ٠٠ ومن الناس من يختارون العقال الأسود فوق الكوفية ومعظم هؤلاء من الأرياف ٠

لباس الموظفين .. افرنجي !

ويقدم الغلاف صورة كاريكاتورية ساخرة للغاية عن لباس موظفي الدوائر الحكومية ، لكنها منتزعة من الواقع ، فقد كان «اللباس الأفرنجي وهو جاكيت، صدرية ، سروال ضيق وفوقه معطف في الشتاء . وكان الطربوش هو غطاء الرأس .. وكان هؤلاء يتباهون في وضع بنود الساعات من جانب إلى آخر فوق الصدرية الضيقة في جيوبها ، ويضعون في أصابعهم الخواتم المختلفة ، وعلى انوفهم أنواعاً مختلفة من النظارات الزجاجية « للدلالة على الانهماك بالأعمال والأمور الرسمية الشاقة ، ووفرة المطالعة والدقة ، ولو كانوا في غنى عنها ، فيستوي في ذلك الشباب والشيوخ من ضعفاء البصر أو سليمي العيون . »

« ويزيد على ذلك أنهم يتطيبون ويمشون في الأسواق في وقع خاص من خطواتهم ، وإذا تكلموا شمروا أنوفهم ،وتكلموا من جوانب أشداقهم بنبرات خاصة للدلالة على أنهم من الرسميين العظماء . »

افندي .. وبك .. وخانم

« ويتميزون بكلمة : افندي او بك غالبا ولا يرضون لنسائهم الا كلمة « خانم » مقرونة الى الأسماء الحقيقية . وكثيرا مايسخرون خادم الغرفة ليحمل لهم المتاع والخضر وحاجاتهم الأخرى الى الدار ، او يحمل صغارهم . ويمشون امام او خلف السيدة في الأسواق ، ثم لا بد في غير الشتاء من ان يكون له عصا « باستون » ويكون راسه مفضضا او مذهبا حسب درجة مكانته في السراي وكفاءته المالية . »

وحين يسير هؤلاء في الأسواق « ينظرون يمنة ويسرة بكبرياء كانهم اغراب ويرمون الناس بجوانب احداقهم ، واذا تكلموا فبرؤوس أنوفهم وكلمات متقطعة ونبرات ملؤها الكبرياء والصلف ويتحاشون غالبا كثرة الكلام لئلا يصبح بينهم وبين الناس نوع من التودد وعدم الكلفة . »

في تلك الأيام لم يكن في دمشق من وسائل النقل سوى عربات تجرها الخيل، وكان مقرها في ساحة المرجة « حيث تقف إلى الجانب الشرقي تحت ظلال شجيرات الصفصاف حول حوض ماء مرتفع قليلاً . » وكان لبعض بيوت الثراء في دمشق عربات خاصة بهم «يمتطونها في روحاتهم وغدواتهم وسيرانهم » .

والحمر البيض للنقل

وكانت هناك واسطة نقل أخرى يجدها المرء في سوق الخيل حيث أعدت الحمر البيض للنقل « ومن علاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر لتعرف بأنها من الحمير المعدة للايجار » وكانت العادة أن يذهب وراءها أحد السماة التابعين لأصحابها ، وبيده عصا أو سوط ، فيركض جرياً على قدميه ، حتى إذا بلغ الراكب المكان المقصود ، عاد الساعي بالحمار إلى صاحبه .. ويعود راكباً هذه المرة .

... وأما الأسفار خارج المدينة ،نحو المدن البعيدة ... فقد كانت واسطتها الدواب أيضاً ، لكنها كانت تجري في قوافل ..

وعرف أيضاً الحنتور وهو كما يذكر العلاف « بشكل سيارة اوتوبوس كبير تجره الدواب على مراحل بين دمشق وبيروت وسواها ، وفي كل مرحلة قصيرة تتغير الدواب إلى أن ينتهي المسافر إلى مقصوده » .

ويشير هذا المؤرخ إلى الخط الحديدي الحجازي الذي مد في أوائل هذا القرن، لكنه لم يلبث أن حطمته معارك الحرب العالمية الأولى .

قصة الأمن المفقود

من جانب آخر فانه يقدم صورة في منتهى البؤس لرجال الأمن في ذلك الزمن ، ذاك أن الأمن كان مفقوداً إلى درجة أن السلطات الاجرائية الحكومية انتقلت إلى وجوه الأحياء ومختاريها « دفعاً للشرور ولحمل الناس على احترام الحقوق » . وكانت تؤلف في كل حي هيئة من وجوهه والمتنفذين فيه ،هي « بمثابة المجلس الاداري والقضائي والتنفيذي ، بالنسبة إلى أفراد الحي » . « أما قوى الأمن الحكومية والسلطة الاجرائية الرسمية ، فمكلفة بصيانة نفسها وحفظ الأماكن التي تسكنها : تفتح أبوابها نهاراً لبعض المراجعين ، فاذا كان وقت الغروب أوصدوا أبواب المخافر وسكنوا إلى أسرتهم ومضاجعهم لا يبالون بما حدث وبما يحدث » ولا يجرؤون على الخروج من أماكنهم في الليل ، وخاصة في جوانب المدينة . « وكان هؤلاء يعرفون باسم الضابطية » ولكن الضاد كانت تلفظ ظاء ، وبدهي أن هؤلاء هم رجال الشرطة ... يومذاك !

« وإذا كان للحكومة طلب من أفراد الحي استعانت بالمختار على استيفاء حقها من ضرائب أو تجنيد أو شكوى صادرة من إحدى المحاكم . »

عندما يتخاصم حيان

وكان الطابع العشائري يميز العلاقة بين الاحياء ، حتى اذا دخل فرد من حي حيا آخر ، عرفوه على الفور وميزوه ، فان كانت بين الحيين صداقة اكرموه ، وان كانت خصومة اوسعوه ضربا وطردوه ... وهكذا حتى يكون صلح بين الحيين ، على يد حيٍّ آخر محايد او اكثر ... وعندئذ تقام المهرجانات وينزل الحيان المتخاصمان ضيوفا ثلاثة ايام عند وجوه الحي الذي عقد المصالحة .

أما الأعياد التي كان الناس يحتفلون بها في دمشق، كما يروي العلاف، فقد كانت محصورة في الأعياد الدينية: الفطر، الأضحى، المولد النبوي ، وهلال نصف شعبان .

ويذهب الناس في هذه المناسبات إلى المساجد بأفخر ما لديهم من الثياب والزينة ، وبعد الصلاة يصافح بعضهم بعضاً ويتبادلون التحيات والتهاني بالعيد.

وقبيل قدوم العيد بيومين كانت أحمال غصون « الآس » تصل إلى دمشق وتنشر في الشوارع والأسواق حزماً صغيرة وكبيرة ، كما هو الحال الآن ، فيشتريها الناس صبيحة العيد ، حين يذهبون قبل بزوغ الشمس لزيارة قبور موتاهم ، فيضعونها عليها .

الأولاد .. في العيد

ويقدم العلاف وصفاً لما يفعله الأولاد أيام الأعياد ، نلاحظ خلاله أن حفاوة هؤلاء الصغار بهذه المناسبات لم تختلف في هذا الزمن ، عنها في مطلع القرن العشرين ، فان الأولاد كانوا يجوبون الأسواق بأفخر ثيابهم فيشترون ويفرحون ويطلقون المفرقعات ، ويتناولون أطعمة خاصة على كراسٍ واطئة أمام المناضد ، كالفول المسلوق وكان يسمى « نابتاً » . وكان بعض الناس يحضر بعض الضباع أو الوحوش الأخرى فيضعونها في الحوانيت ويقف من يضرب الطبل داعياً الغلمان أن يدخلوا ليشاهدوا عدو الانسان .

... يركب الأولاد الآن بعض السيارات في الأعياد، ولا سيما الشاحنات الصغيرة المصنوعة في اليابان .. وفي مطلع القرن كانوا يركبون الحمير والعربات المجللة بالطنافس أو الخيول أو الهوادج .. على الجمال .

الأراجيح ما زالت هي نفسها ، وإن اختلفت أشكالها وتقنيات صنعها ٠

وداع شهر رمضان

وكانت الحكومة المحلية في دمشق تطلق المدافع في اليوم الأخير من رمضان ايذانا بانقضاء الشهر ٠٠٠ وعندئذ كانت تقوم في المساجد الاحتفالات بوداع رمضان ، مثلما يحدث في نهاية القرن العشرين ٠٠٠ هذه الأيام ، ويأخذ المؤذنون يلحنون عبارات الأسف والحزن على فراق رمضان ٠

٠٠٠ وما برح بعض المسحرين يعملون في بعض أحياء دمشق في رمضان ٠٠ حتى الآن ، والمسحر هو الذي يطوف على البيوت في شهر الصوم قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة صغيرة يضرب عليها ويقرع الأبواب ٠ مناديا صاحب كل دار باسمه، كي يصحو من نومه،ويتناول طعام السحور هو وعياله استعدادا لصيام نهار طويل٠

وكانت للمسحر جولة أخرى ، ولكل حي كان مسحر ، صبيحة العيد يتقبل خلالها أعطيات الناس الذين تطوع بايقاظهم بعد منتصف الليل طوال رمضان٠

طقوس ٠٠ عيد الأضحى

ولم تكن احتفالات الناس بعيد الأضحى لتختلف عنها في عيد الفطر ، سوى أن الميسورين كانوا يقدمون الأضاحي ،وهي من الخراف المذبوحة على أن يوزعوها قبل صلاة العيد ٠

٠٠ « ومن ظواهر هذا العيد أن يزحف أهالي دمشق إلى حي الصالحية ، ويصعدوا الجبل – أي قاسيون – بعد عصر يوم الوقفة ، ويلبون كما يلبي الحجاج في جبل عرفات ٠ » والعلاف يورد أقوالاً مختلفة في تفسير الصعود إلى قاسيون ، على أن أجدرها بالاعتبار أن الصالحية بما تضمه من أضرحة قديمة ومزارات ومدارس ، كانت جديرة حقا بالتقديس ٠٠

وفي جمعة الشهر الهجري « رجب » كان الناس يقصدون حي الصالحية أيضا ، قبل حلول صلاة الظهر ،،فيزورون الكهف المشهور هناك ، والأربعين وضريح ذي الكفل عليه السلام وبقية الأضرحة ٠٠

٠٠٠ وفي اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر ، أي رجب ، يجتمع الناس في المساجد والدور لسماع قصة المعراج الشريف ٠

شعبـان ٠٠ وليلـة النصف

وإذ يقبل شهر شعبان ويقترب من منتصفه ، فان الناس يأخذون بمراقبة ظهور هلاله لتحديد ليلة النصف منه ٠وكانوا يصومون غالباً سحابة نهار ذلك اليوم ، وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في البيوت ٠٠ مع عائلاتهم لقراءة دعاء نصف شعبان ٠

٠٠ وإذا دخل شهر محرم « عم الحزن دور المسلمين كافة ، لأن هذا الشهر يحمل معه ذكرى فاجعة كربلاء » ٠

وكان الحسين بن علي بن أبي طالب قد استشهد في العاشر من شهر محرم سنة ٦٠ للهجرة ٠٠

☆ ☆ ☆

بين العناوين الكثيرة التي وضعها المؤلف في هذا الكتاب ، هناك عنوان كبير بارز هو « المراسم » وتحت هذا العنوان تحدث عن كثير من المظاهر الاجتماعية والدينية والثقافية في دمشق ، فهناك سوى المراسم الرسمية والدينية السالفة مراسم أخرى ، كالختان والجندية والأعراس والولادة والأذكار إلخ ٠

وفي مراسم الجندية ما هو جدير بالتوقف عنده ، ذاك انه يشير الى الفساد الاداري الذي تفشى في المؤسسات الحكومية في تلك المرحلة من تاريخ السلطنة العثمانية،ويوضح الجانب الطبقي في مسالة سوق المجندين الى الخدمة ٠

يقول العلاف : « اذا بلغ الشاب العشرين من عمره ، فقد دخل في سن الجندية الالزامية ، فتعمد الحكومات المحلية الى اصدار جداول للاحياء تحوي أسماء من تشملهم الخدمة الالزامية ، فتعلقها في الساحات العامة او مكان المجتمع العام عادة ، والى جانب ابواب مساجد المدينة ، ويقوم كل مختار باستدعاء الطبال ليطوف الأزقة والحارات ضاربا على الطبل،ليسهّل عليه تبليغ اوامر الحكومة لافراد حيّه ٠ »

من قصة البـدَل

ويعرف المختار جيداً تلك الأسر التي تستطيع دفع الأموال لتستخلص أبناءها من السوق ، فيتفق معهم على مبلغ معين ، ويدفع عوضاً عن ابنهم المدلل شخصاً مسكيناً ليس له من يدافع عنه ٠

ويفصّل الكاتب ما يجري وقت معاينة المجندين طبياً ، ذاك أن الأطباء العثمانيين كانوا « يتركون من يشترون أنفسهم بمبالغ معينة » أما الآخرون

فانهم يدخلون الجندية حاملين آلامهم وأوجاعهم • « ولذلـك كنت ترى أبنـاء الأغنياء وهم أقوياء الأبـدان يسرحون ويمرحون ، ولا يذهب غالباً إلى الجندية سوى المرضى والمعيلين وأرباب العاهات ممن ليس لهم شافع » •

البحـث عـن زوجـة صالحـة

وتجيء الأعراس في جملـة المراسم التي يحدثنا عنها الملاف • فعندما يبلغ الشاب الثامنة عشرة ، ويكون من أسـرة تستطيع أن تدفع بدل الجندية ، أو يكون قد أتمّ خدمته الالزامية ، يبدأ أبواه يبحثان له عن زوجة صالحة • فيتذاكران في مـن يعرفانه مـن الأقارب ، فاذا لم يوفقا •• ذهبا أبعد •• وعندئذ تبـدأ رحلة البحث عـن الخطيبة ، فتذهب أم الشاب وبعض قريباتها الى دار معينة ، كنّ قـد علمن أن فيها صبية يمكن أن تعجبهـن •

وفي الدار المقصودة تـدير المرأة الأكبر لعبـة امتحان الفتاة ، على نحو عملي ، فتطلب اليهـا أن تأتيها بكاس مـاء ، وإذ تجيء الصبية بهـا ، تشاهد الخاطبـة مشيتها وطولها وصحتها •••وسلوكهـا ••• وقـد تربت على كتف الفتـاة إذا أعجبتها وتقبّل فمها تقبيلاً حاراً « لتفحص نَفَسَها » ولتعلم إن كانت تدخن •• أم لا ! وحين يكون شيء مـن القبول ، يبـدأ الطرفان يسأل كل منهما عن الآخر ••• فاذا كان القبول تاماً ••• دخلت الخطبة مرحلة جديدة •• وذهب والد الخاطب مع بعض ذويه لزيارة والـد المخطوبـة •• فيجتمعون ويتبادلون الأحاديث ••• ثـم يقتربون مـن المناسـبـة ، ويتفقون على المهـر وترتيبـات الزفـاف •

المهـر •• وعقد القِـران

إن نفقات العرس كاملة يدفعهـا العريس وأهله عبر المهـر الذي يُدفـع بعضه مقـدماً استعداداً لاجراء حفلـة العقد •• والانفاق عليها •

لقد كان نظـام ارسال بطاقات الدعوة معروفاً منـذ تلك الأيام • وثمـة بطاقات لحفل عقـد القران ، وبطاقات لحفل العرس الكبير • على أن تتمة المهر تدفع الى أهل العروس عقب عقد القران مباشـرة ، فيُخرج والد الزوج « مـن

جيبه كيساً فيه المهر ويمده أمام الحضور،فيتسلمه والد الزوجة أو وكيلها بحضور ومشاهدة الجميع » ٠ « وقد يصادف أن يحضر العريس العقد ولكن ذلك كان نادراً ، كما أن إلباس خاتم الخطبة ، كما هي العادة اليوم ، والاجتماع الى الزوجة كان ممنوعاً منعاً باتاً ويعد لديهم من المعيبات والكبائر ، إذ لا يجوز له أن يراها إلا ليلة الزفاف » ٠

من تقاليد ٠٠ العرس

٠٠٠ وهنا يأخذ أهل العروس في تجهيز ابنتهم ، فأمها تشتري لها ملابس العرس وتباشر بخياطتها ، ووالدها يعرض الأمر على أحد المنجّدين ٠٠ من أجل إعداد الجهاز الذي سيملأ منزل العروس ٠٠ وهو ما نسميه اليوم غرف النوم والضيوف والمعيشة ٠٠ من المخدات والمرآة والستائر إلى البيرو أو « الصندوق » وأنواع الخزف ٠٠ الخ ٠٠٠ وقبيل حفل العرس يكون حفل « الحنّاء » فتحنّي العروس يديها وقدميها هي وصديقاتها ٠ ثم تذهب النسوة من قريبات العريس والعروس إلى الحمّام بدعوة من أم العروس ٠٠٠ وفي هذا اليوم يحجز الحمّام كله لهذه المناسبة فلا يدخله إلا المدعوون ٠

ومن جانب اخر يستحم العريس أيضا مع بعض أصدقائه في حمام السوق ثم يحلق حلاقة العرس ٠٠٠ ثم يقصد دار احد الاقرباء لاجراء « التلبيسة » وهنا يرتدي العريس ثيابه الجديدة ٠٠ ويخرج في موكب كبير منظم اصطف فيه الرجال في عراضة منظمة تضيء الفوانيس فيها الطريق ، وتدوي هتافات واهازيج الرجال ٠٠٠ واذ يصلون الى دار العريس يودعونه بالأهازيج ويمضون ٠

« حق الشعر » ٠٠ ليلة الزفاف

هناك سلسلة من مراسم العرس يعرض لها العلاف بالتفصيل ، منها مثلاً « حق الشعر » وهو مبلغ من المال يقدمه العريس لعروسه ليلة الزفاف ٠٠ بعد أن يخلو إليها ٠ فهو يبادرها بكلمات مألوفة « وتبقى هي صامتة خجلاً ثم يداعبها قليلاً حتى تنفرج أساريرها ، فيقدم لها بعض النقود أو قطعة مجوهرات ٠ وتبقى هذه الأفراح أسبوعاً كاملاً ٠

وعند الصباح « يخرج العريس ووالده إلى السوق ويستبضع بعض حاجيات

نسائيـة مـن جوارب ومحارم وعطوروأشباهها وتسمى هذه « الصرّة » فيعود بها إلى الدار مع قطعة من المجوهرات٠٠فيسلم ذلك إلى العروس » ٠

٠٠ ولكن قبل ذلك ٠٠ وحين يصل موكب العروس إلى البيت الذي سيصبح منزلها يبدأ احتفال خاص كانوا يسمونه« التفتيلة » تنفرد فيـه إحدى المغنيات فتقول بصوتها العذب كلاماً تردده النساء المدعوات ، وهنّ يطفن ببطء حول باحة الدار ٠٠٠ مـن ذلك مثـلاً قولهـا :

يسعـد صباحـك يا فلـة افرنجية ٠ يا ورد على امـه يا خلقـة إلهيـة ٠

لو قدموا لي بدالك من الألف للميّة٠ ما اهوى بدالك ولالي من احد نيّة ٠

☆ ☆ ☆

يقدّم أحمد حلمي العلاف ، في هذا الكتاب ، لمحة عامة سريعة ، عن الكيفية التي كان النـاس يمضون فيهـا ليـالي رمضـان بعـد الافطـار ٠٠

في ليـالي رمضـان

والواقـع أن الكثيرين منهم كانوا يقصدون المقاهي بعد الافطار ، وكانت منتشرة في دمشق انتشاراً واسعاً ، فكان في الحي الواحـد مقهيان أو ثلاثة على الأقـل ٠ يجلسون فيها يشربون القهوة والشـاي ويدخنون النارجيلة ويلعبـون الضومنـة٠٠ أو الورق أو الشطرنج ،ويستمعون في الوقت ذاته إلى الحكواتي أو المخايل ، وهو نفسه لاعب خيال الظل أو الكركوزاتي ٠٠ كمـا كان يدعى في الأغلب ٠٠٠

ولم يكن ضروريا ان يكون في كـل مقهى حكواتي أو كركوزاتي٠٠٠ إلا أن بعض المقاهي كانت تسعى لأن تستدعي أحدهما في شهر رمضان ٠٠ خاصة أن الرواد يكثرون بعد الافطار ٠٠

خيـال الظـل ٠٠ في الـذاكـرة

المرة الأولى التي شاهدت فيهـا كركوز٠٠تعود إلى سنوات الطفولة الأولى٠ وكان ذلك في شهر رمضان أيضاً ٠ كنـا مقيمين يومذاك في أعلى حي المهاجرين،

وقد شاء أحد الفتيان أن يجرّب حظه في هذا المجال ، فنصب الخيمة المعروفة في ساحة كانت مكشوفة في الحي ... ولا أذكر إن كان قدّم عروضاً أخرى بعد تلك الليلة من رمضان .. لكن الحادث بقي في الذاكرة .. لأنه كان جديداً وطريفاً في عيني طفل لم يتجاوز عمره خمس سنوات .

.. وبعد أن انتقلنا للاقامة في بيتنا القديم في دمشق القديمة ، أذكر أنني كنت أذهب في رمضان، مع أخي الأصغر، لنشاهد عروض كركوز بعد الافطار في مقهى حي العمارة . وكان موقعه في جوار الباب التاريخي المشهور والمعروف باسم « باب الفراديس » .

ولم تمضِ عدة سنوات حتى كان أحد أقربائنا في الحي « مئذنة الشحم » قد استأجر مقهى ، وفي شهر رمضان استدعى واحداً من لاعبي خيال الظل اسمه أبو عزة الكركوزاتي . وفي الحقيقة فان هذا كان آخر عهدي بخيال الظل . وفي ما أذكر فانه كان عام ١٩٤٨ .

كره‌كوز ، عواظ .. في الخيمة

على أن العلاف إذ يتحدّث عن الملاهي في دمشق يقدّم وصفاً كاملاً لما يسميه « حفلات كره‌كوز » ، ولنسمعه يقول :

« يجلس اللاعب خلف ستارة وامامه منضدة وهذه الستارة تسمى خيمة كره‌كوز ـ ويضرب المثل بوهنها لأنها تربط عادة بالخيطان . يجلس اللاعب خلف المنضدة وبيده عدة قضبان رفيعة وطويلة ، ينتهي راس كل قضيب بقطعة من الكارتون الملون بشكل رجل، ولباس وهندام خاص ، له مفاصل ليديه ورجليه ، او بشكل امراة او طفل . وامام اللاعب بعض الشموع مرصوفة الى جانب بعض. فاذا مدّ القضبان المنتهية باشكال الاشخاص والدمى المذكورة ، انشات خيالاً على الستارة بالشكل المثبت على راس القضيب .

ومن أسماء تلك الدمى الشهيرة : كره‌كوز ، عواظ ، مدلل ، ضابطية .. فاذا أراد اللعب يبدأ أولاً بأنغام خاصة، والسامعون كلهم في المقهى ينظرون ويسمعون . وهو وخيمته إلى زاوية من جوانب باحة المقهى . ينظرون إلى الخيالات المرتسمة على الستائر . وبعد الغناء يقص قصة ويبرز الأشخاص كأنما هم يتكلمون ويتنقلون ، فهو بذلك أشبه بالسينما الناطقة .

وينتقل الكاتب إلى الحديث عن فن اللاعب وقدرته على تحريك الأشخاص المتعددين وتقليد أصواتهم ، واحداً واحداً ، بحيث يوهم المتفرجين بوجود حياة كاملة وراء الستارة ، فيقول :

ومن براعة اللاعب مهارته في تغيير لهجاته وصوته على حسب القصة التي تدور بين أشخاصها ، فيبرز كره كوز متكلماً عنه ، ويخاطب عواظ ويخاطب أشخاصاً خيالية كثيرة ببراعة ممتازة ، بينما هو يشتغل وحده بمفرده ، ويحرك الدمى بمهارة فائقة ، فيكون من نتيجة تلك الخيالات القصصية بعض المواعظ والحكم ... والناس ينظرون ويضحكون .

الحكواتي .. والتسلية في رمضان

وكان للحكواتي دور كبير في التسلية في ليالي رمضان.. في مطلع هذا القرن، وقت كانت الأمية متفشية ، ولم يكن الكتاب منتشراً ... ولا كانت وسائل الثقافة والتسلية الحديثة كالاذاعة والتلفزيون .. قد دخلت البيوت .. فان كثيراً من الدور ظلت في دمشق نفسها حتى الخمسينات محرومة من نعمتي الماء والكهرباء .. فكان الناس يتجمعون في ليالي رمضان ، في منزل وصلت إليه الكهرباء ، فكان فيه راديو .. وما زلت أذكر تنقلات الناس، في حيّنا في رمضان .. من منزل إلى آخر .. وكانت السهرات تتواصل وتستمر حتى يقترب موعد السحور .. وخلال ذلك فقد كانت تقوم ألعاب ، ويشترك فيها الساهرون جميعاً .. لعل أشهرها لعبة «عروستك» .

يقول العلاف في وصف هذه اللعبة : ينفرد أحدهم إلى جانب ، ويتفق الجميع خفية على شيء معين بينهم ، وعندما يعود يسألونه واحداً واحداً ، ملغزين ، عن الشيء المقرر بينهم حتى يدركه ويعرفه تماماً . فمثلاً لو كان المقرر بينهم « المقص » فيسأله أحدهم قائلاً : عروستك بتقطع وبتلحش ، فيقول بدوره مثلاً : «سكين» . يقولون له : لا .. يسأله الثاني ويقرّب للفهم: عروستك لها نابان طويلان ، أو :عروستك أذناها ملتصقتان بفكيها ... أو عروستك صلبة مثل الحديد . أو :عروستك .. لسانها بشطلين .. فاذا عرفها قام مقام المسؤول الشخصي الذي أوضح له فعرف .. وهكذا .. ثم يقوم

•• ويظل اللعب دائراً ، وربما انتقل الساهرون من لعبة إلى أخرى ، حتى يدوي في الفضاء •• صوت المدفع الأول•• معلناً اقتراب موعد الامساك •

مراسم استقبال رمضان

ربما تغيرت مراسم استقبال شهر رمضان المبارك الآن عنها في مطلع هذا القرن ، ولكن العلاف يتناول هذا الموضوع في صفحات تناثرت بين جنبات الكتاب• وتستطيع الذاكرة أن تضيف إليها ،بعض ما استطعنا أن ندركه ، ونحن أطفال في سنوات الأربعينات • ويمكن القول إن بعض الفئات الاجتماعية الميسورة ، إضافة إلى كثير من قاطني الأحياء الشعبية في دمشق وسواها من مدن سورية ، ما يزالون يعيشون مراسم هذا الشهر الذي تنزَّل فيه القرآن الكريم ، مثلما وصفها مؤلف هذا الكتاب •

إنه لا يشير إلى التقليد القديم المتَّبع في أكثر الأقطار الاسلامية ، إذ يلتمس الراصدون هلال رمضان ، بل يكتفي بالتنويه بأن الناس يحاطون علماً ببدء شهر الصوم لدى سماعهم أصوات المدافع ، وهذا ما يسميه الناس : الاثبات •

يوم عشا صائم

يقول حلمي العلاف : عندما يتحقق انتهاء شعبان المبارك ، يقوم الناس عشاء ذلك اليوم بصلاة التراويح في المساجد ، ويهيئون طعام السحور من غروب شمس ذلك اليوم بعد أن يسمعوا أصوات المدافع إيذاناً بحلول شهر رمضان • ويسمي الناس آخر غروب نهار من شعبان « يوم عشا صائم » فتختلف أوقات العمل بالنسبة إلى الصائمين ، فاذا كان وقت العصر انتهت الأعمال الرسمية بالنسبة إلى الموظفين،وكذلك بعض التجار وأرباب الصناعات الأخرى ، والشاقة منها • وبعد صلاة العصر يصغون الى تدريس فقهاء المساجد ويستعلمون عمَّا يفسد الصيام ، وعمَّا ينبغي عمله من الخير والاحسان •

ثم يتابع وصفه لما يفعله الناس في أول يوم من رمضان ، مما سيكررونه باستمرار طوال أيام هذا الشهر فيقول إنهم بعد صلاة العصر « ينفضّون إلى السوق فيهيئون طعام الافطار ، وما يتخلله من بهارج بالنسبة

لمواسم السنة من فواكه وأكول مختلفة ·وكثير من الرجال يشرفون على إعداد طعام الافطار بأنفسهم ، أو يؤازرون نساءهم قصد المعاونة والتسلية » ·

« فاذا سمعوا طلقة المدفع جلسوا حول المائدة وقرأ أكبرهم أو ربّ الدار الدعاء الآتي :

اللهم لك صمت وبك آمنت وعليك توكلت · اللهم انك أعنتني فصمت ورزقتني فافطرت · ذهب الظما وابتلت العروق ، وحصل الأجر باذن الله ·

··· ثم يباشرون الطعام ، فاذا انتهوا قاموا إلى صلاة المغرب في دورهم أو في المساجد القريبة · وظلوا كذلك إلى ما بعد أداء صلاة العشاء والتراويح. ويعودون إلى مجالسهم الخاصة وسهراتهم وسمرهم مع ذويهم أو أصحابهم » ·

المسحر قبل الافطار وبعده

وبين التقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في رمضان وأدركها جيلنا طواف المسحّر على الدور قبل الافطار بساعة، يضرب على طبلة فيُخرجون إليه مختلف الأطعمة فيضعها في زنبيل ، أي وعاء طويل ، ولديه صحف فارغة أخرى يملؤها طعاماً ، ويعود بها إلى داره ،فيتناول منها كفايته ، ويوزع البقية على جيرانه المعوزين ·

ويتحدّث جمال الدين القاسمي عن المسحّر في قاموس الصناعات الشامية فيقول : هو من يوقظ الناس لتناول السحور في شهر رمضان · يدور على البيوت قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة يضرب عليها بجلدة ، ويتغنّى بأقوال مختلفة ، لينبه أصحاب البيوت ، وكل محلة لها مسحّر مخصوص بها حين دخول وقت السحور ، فينبه أصحابها ، ويدور عند الغروب على أصحاب تلك الدور فيعطونه من فضل طعامهم ·

ويذكر العلاف أن هذا المسحّر ، يطرق الأبواب ، منادياً صاحب كل دار باسمه ، كي يستيقظ ويوقظ أفراد أسرته لتناول طعام السحور ، وخلال ذلك يقول : يا نايم وحّد الدايم· أو :يا نايم وحّد الله · قل لا إله إلاّ الله ·

على أن شهر رمضان المبارك ، ليس هو الشهر الوحيد الذي يصومه الناس في

دمشق ، فان بعضهم كان يصوم شهرين قبله : رجب وشعبان وهـذه متتالية هي الأشهر الثلاثة التي تسبق عيد الفطر ٠

ولكـل شـهر طعـام خـاص

على أن الأكثرين يحتفلون بالسابع والعشرين من رجب ، وبنصف شـعبان وبليلة السابع والعشرين من رمضان ٠ ولكل يوم عندهم مـن هذه الأيام دعاء مأثور ، ولكل شهر طعام خاص ٠

أما السحور ، فان الناس يقومون له قبل اذان الصبـح ، فيتناولـون الخفيف من الطعام وهو نفسه ما يسمي : السحور ٠ وينتهي وقته قبيل اذان الصبح ، اذ يسمى : وقتَ الامساك ، فيمسك الجميع عن كل ما يدخل الفم من غذاء او ما يسبب افساد الصيام ٠٠ او الافطار ٠٠ كما انهم يمسكون عن اخراج فواحش الالفاظ ٠٠ ويبقون كذلك الى غروب اليوم التالي ٠

في كتابه الجميل « حديث دمشقي »، وفيما كان يتحدّث عـن احتفـالات الناس في دمشـق بالأعياد ، وأساليبهم المختلفة في المعايدة ، أي تقديم التحيـة والتهنئة بقدوم العيد ، يتناول الأستاذ نجاة قصاب حسن أسلوب إرسال بطاقات المعايـدة ، وخلال ذلك يروي الحكاية التالية ، فان أحد الوجهاء قال لمرافقه : هات « الكروت » لنمايد ٠٠٠ ثم ذهبا ٠ وكان يوعز للمرافق أن يصمد إلى كل منزل مـن منازل أصحابه فيدق الباب ويناولهم « كرتاً » ٠ وهكذا فلم تمـرّ بضع ساعات، حتى سأل الوجيه مرافقه أخـيرا : كم كرتاً بقي معك ؟ فقـال : الأصّ السباتي ٠ ونظر الوجيه فوجد مرافقه لم يفهم عليه المقصود وإنما أخذ « كروت الشدّة » أي : ورق اللعب ٠ وكلما دقّ على باب أعطاهم كرتاً منها، على حسب حظّهـم ٠ وترك « الأصّ السباتي » للآخر ٠

آخـر عشرة أيـام ٠٠ مـن رمضـان

وعلى الرغم من أن أسلوب المعايدة هذا ، هو في غاية اللطف والابتعاد عـن الكلفة، فان الأستاذ قصاب حسن يلاحظ أن اللجـوء إليـه قـد خفّ في الوقت الحاضر ، وكاد العيد يتحول إلى أيام راحة فقط و «سيارين» خارج المدينة٠ على حـين كان الناس يستعدّون لأيام العيد في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان

المبارك • وكانوا قد قسّموا هذه الأيام في ثلاثة أقسام : عَشر المرق • وفيه يهيئون لأسرهم وقت الافطار صنوف الطعام • وعشر الخرَق ، وهو الأيام العشرة التالية من رمضان ، وفيها يجهّزون الألبسة الجديدة • أما العشر الثالث ، فكان يدعى : عشر الورق • وخلاله يأخذ الناس بتحضير حلوى العيد بأنواعها المختلفة •

إن أحمد حلمي العلاف يفصّل الحديث كثيراً عن أصناف الحلوى التي كانت تحضّر في البيوت وتخبز فيها أيضاً •• أو ترسل إلى الأفران لخبزها هناك •••

على أن الفئات الغنية كما يقول كانت تستحضر الحلوى حاضرة جاهزة للأكل ، من ذلك مثلاً : كُلْ واشكر • بقلاوة ، كنافة مبرومة • أصابع قشدة • صرر • شعيبيات •• الخ ••

الدعوة إلى طعام العيد

ومن العادات المألوفة ، ما لاحظه العلاف من أن المترفين يدعون لطعام العيد الذي يكون بعد أداء صلاة العيد • فهم يدعون بعض ذويهم من المعسرين فيتناولون طعام العيد على سفرة واحدة • كذلك رؤساء الحرفة، يدعون صنّاعهم وأجراءهم الى طعام العيد ،ويعطونهم فوق ذلك بعض المال ويسمونه: « عيدية » وكانوا يفرحون بها •

وهناك تقليد ما زال متّبعاً حتى الآن ، مما ذكره الكاتب ، فاذا عاد أحد الأصحاب أو الأقارب أصحابه أو أقاربه،فانهم كانوا يقدمون له الحلوى أو الملبّس • وعند خروجه يعطي صغار صاحب البيت قليلاً من المال ، يكون قد هيّأه في جيبه لهذه الغاية قبل زيارته.

من طقوس العيد

على أن للعيد وجهاً اجتماعياً آخر في دمشق، يتمثّل في زيارة قبور الأقرباء الذين مضوا للقاء وجه ربّهم ، يقول العلاف :

« فاذا كان قبل العيد بيومين، تَفِدُ أحمال غصون « الآس » إلى المدينة

وتنشر في الشوارع والأسواق حزماً صغيرة وكبيرة ، فيقبل الناس على شرائها ويهيئونها لزيارة موتاهم صباح أول يوم العيد ·· قبل بزوغ الشمس·

··· ويوم الوقفة كنت ترى « كل حانوت إلى جانبيه أكياس الأرز والسكر وصحاف السمن الفاخر ، وعليها شتى الزهور الملونة » · كما يهيىء الباعة « شتى أنواع السكاكر وأدوات التسلية »:وخلال أيام العيد ، يقبل الاولاد بأفخر ملابسهم ويجوبون الأسواق ، فيشترون ويفرحون، ويطلقون المفرقعات ويركبون الحمير المعدة للتنقل في مسافات قصيرة ،والعربات المجلّلات بالطنافس أو الخيول أو الهوادج ·· أو يركبون القلاّبة ذات الأسرّة الأربعة فتدور بهم دورات محورية ، أو الدويخات ذات الأسرّة المتنوعة الأشكال والخيول المطهمة المصنوعة من الخشب ·

وكان الأولاد ينقدون أصحاب هذه الألعاب قطع الدراهم الصغيرة كالنحاسة أو أم الخمسة أو المتليك ··· وهي أنواع من النقود العثمانية التي كانت تستخدم في أوائل هذا القرن ·

تمديد أيام العيد

ويفصّل العلاف الحديث، حول كيفية احتفال الأولاد في الشوارع والساحات في العيد ·· ويستعرض أنواع الطعام والحلوى التي كانوا يقبلون عليها ··· وهي مظاهر بدأت تختفي ، بتسارع من حياة الناس ، لا ·· في دمشق وحدها ، بل في مختلف المدن الأخرى ···

وهو يذكّرنا ، بأن الناس كانوا يستمتعون بأيام العيد ، حتى إنهم يريدونها ألاّ تنتهي ، وإذن ، فانهم كانوا يمددونها يوماً آخر ، يطلقون عليه هذا الاسم الطريف : جحش العيد·· فاذا انقضى انصرف الأولاد إلى مدارسهم والناس إلى أعمالهم وشؤونهم كالمعتاد ·· متأسفين لسرعة انقضاء فترة العيد والسرور ·

يوم كانوا يبحثون عن قارىء

لم ادهش كثيرا وانا اقرا في هذا الكتاب ان بعض الناس كان ينتقل من قرية الى اخرى او من حي الى حي باحثا عمن يقرا اويكتب له رسالة · ذاك اني ادركت اواخر هذه الحقبة في بدايات الاربعينات · كنت وقتها في الصف الثالث او الرابع الابتدائي ، وقد

حدث ان بعض اقربائنا تطوع للخدمة في احدالجيوش الأجنبية ، ثم استقر زمنا في القاهرة، حيث بعث اليهم باولى رسائله • لقد ناداني هؤلاء وكانوا جميعا كبارا في السن ، وليس في دارهم انسان واحد يعرف القراءة او الكتابة• فكان ان قرات امامهم الرسالة ، وجلست اكتب جوابها •

إن أحمد حلمي العلاف لا يقدّم كشفاً إحصائياً عن مدارس دمشق في مطلع هذا القرن لكنه يحاول أن يعددها في حين يتصور أن ما يذكره هو كل المدارس التي كانت قائمة • ونحن لا نملك بالطبع أن نناقشه في ذلك ، وإذا كنا أقرب إلى تصديق روايته ،حول المدارس المشهورة آنذاك، فلا نشك في أن ثمة مدارس أخرى ••• غير مشهورة •• غابت عن قلمه •

يومذاك ، أو قبيل الحرب العالمية الأولى، لم يكن في دمشق مدارس ثانوية بالمعنى الذي نعرفه اليوم • ربما كانت المدارس الأجنبية التي افتتحتها البعثات التبشيرية في دمشق حينئذ ، تقدم لطلابها مناهج للدراسة الثانوية ••• غير أن المؤلف لا يقدم إيضاحاً حول هذه المسالة •

مدارس دمشق ••

كان هناك عدد من المدارس الابتدائية الرسمية لا يتجاوز ثلاث مدارس وكان الانتساب اليها منوطا بموافقة لجنة تدعى « الجمعية الخيرية » برئاسة العلاّمة الشيخ طاهر الجزائري • الأولى كانت في القيمرية • والثانية قرب الجامع الاموي وتدعى «الجقمقية» • اما الثالثة فكانت في الصالحية وعرفت باسم «الجامع الجديد» ••• وبعد اعلان الدستور العثماني عام ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م انشئت المدرسة الابتدائية الرسمية الرابعة باسم: مدرسة الملك الظاهر •• وقد ظلت قائمة حتى اواخر الستينات •• غير بعيد عن سوق الحميدية وفي موقع قريب منها ، في زقاق « المرستان » •• كانت المدرسة الوحيدة للاناث •••

••• ويبدو أن معظم المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية ما زالت قائمة هي نفسها حتى اليوم • وإذا كان العلاف لم يذكر « اللاييك » وهي التي تدعى الآن « معهد الحرية » فانه ذكر « الفرير »: الاخوة • و « العازارية »: المنصور • و « الأليانس » التي ما زال مبناها وحده قائماً فحسب قرب سور دمشق الجنوبي • إضافة إلى مدرسة « الانكليز » • وقد لاحظ أن الطلاب الذين يتلقون الدروس في هذه المعاهد « هم من أبناء الثراء واليسر والغنى » •

ومدارس أخرى .. خاصة

... وكانت هنالك مدارس أخرى خاصة أنشأها أهل دمشق أنفسهم ، ولكننا لا ندري شيئاً ، من سويتها التعليمية ، أهي ابتدائية فحسب ، أم ابتدائية وإعدادية ، فالعلاف لا يوضح هذه النقطة .

ويعدد من هذه المدارس «الأمينية»، وهي قديمة جداً ، وما يزال مبناها قائماً في سوق الحرير قرب المسجد الأموي . والعثمانية ، وهي الأخرى تحتل مبنى قديماً جدّد في مطلع هذا القرن على يدي منشئها كامل القصاب. ولكن العلاف لا يذكر ذلك . أما المدرسة التجارية ، فقد كانت شمال المسجد الأموي تكاد تلاصقه . وثمة أيضاً المدرسة العلمية الوطنية والريحانية والحبالين ، ومدرسة جمعية الاسعاف الخيري . وما برحت في موقعها نفسه .. غرب مبنى مجلس الشعب ، وهي خاصة بأبناء الفقراء .

معلمون .. من وجوه سورية

ومن طريف ما يذكره العلاف حول مدرسة الشيخ كامل القصاب، الذي كان من وجوه دمشق الثقافية والوطنية أنها ضمَّت بين أساتذتها نخبة من زعماء سورية وأدبائها وعلمائها ، فقد كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يعلّم طلابها الخطابة . والدكتور أسعد الحكيم يلقنهم أصول التمثيل . والأمير عارف الشهابي كان أستاذ التاريخ العربي فيها، وعبد الوهاب الانكليزي ، وهو أحد شهداء أيار ١٩١٦ كان أستاذ الجغرافيا. وكان الشاعر الكاتب الثائر المعروف خير الدين الزركلي أستاذ الانشاء في هذه المدرسة ، أما عالم اللغة سليم الجندي ، فقد كان يدرّس النحو فيها .

مدارس تعليم القرآن

... من جانب آخر ، تناثرت في أطراف دمشق مدارس كثيرة كانت مهمتها الاولى تعليم القرآن الكريم . وبعضها كان الشيوخ يتولون التعليم فيها ، وبعضها الآخر كانت تتعهدها امرأة تسمى « خجا » وهذه الكلمة، كما يوضح محقق الكتاب الأستاذ علي نعيسة تركية معناها معلم ، وتطلق على المعلمات في مدارس دمشق القرآنية .

على أنها كانت تعلّم التلاميذ أيضاً القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ..

ولكن أسلوب التدريس فيها كان متخلّفاً جداً ، فالألف (ا) مثلاً هي هذا الشيء الذي لا نقطة عليه ، والباء لهـا نقطة من تحتها ٠٠ وللتـاء اثنتان من فوقها وهكذا ٠ وكان المعلّمون الشيوخ قساة في تعاملهم مع الأولاد الصغار، يضربونهم بقضبـان مـن شجر السفرجـل ، أو يضعونهم على « الفلقـة » التي تضـم القدمين معاً ٠٠ ثم يضربونهم بالقضبان،وكان هذا العقاب من نصيب المقصرين أو المتخلفين عن الحضور أو من يشكوهم أهلهم لهذا السبب أو ذاك ٠ ولعل هذا هو الذي جعل تلميذاً كالدكتور كاظـم الداغستاني يهرب من مدرسة الشيخ ٠٠ إلى مدرسة الخجا، كما يحدثنا في كتابه « عاشـها كلهـا » ٠

كان في دمشق كلها مدرسة إعدادية واحدة هي التي عرفت باسم « مكتب عنبر » وغدت ثانوية بعد الحرب العالمية الأولى ٠٠٠ حتى الثلاثينـات ٠٠٠ ثم أصبحت في الأربعينات إعدادية للفنون النسويـة ٠٠٠ وهي الآن في سبيلها لأن تكون أحد متاحف دمشق ٠

وينقل الأستاذ نعيسة محقق الكتاب عن العلاّمة محمد كرد علي أن « عنبر » في الأصل دار خاصة لثري يحمل الاسم نفسه ، ثم وضعت الحكومة العثمانيـة يدها عليها لدين كان لها على صاحبها ٠٠ فجعلتها مدرسة إعدادية عام ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م ٠٠٠ وكان معظم أساتذتها من الأتراك ما عـدا معلمي اللغـة العربية والعلوم الدينيـة وبعض المعيدين ٠٠٠ وكان يتقاطر إليها التلاميذ من مختلف أرجاء الامبراطورية العثمانية ، فبينهم الدمشقي والحلبي والأناضولي والبلقاني والشركسي والألباني ٠٠ الخ ٠٠ ولعلّ هذا هو الذي جعل هذه المدرسة تخصص قسـماً منهـا لمبيت الطـلاب ونومهـم وطعامهم ٠ ولم يكن يقـدر على ذلـك سوى أبنـاء المنعمـين ٠

٠٠٠ اما الاعدادية الاخرى التي كانت في دمشق ، فكانت تدعى « المدرسة الرشدية العسكرية » وكانت سنوات الدراسة فيها ستا هي الاخرى ، وكان فيها قسم داخلي أيضاً.. ومن يتخرج منها يقبل في المدرسة الحربية العسكرية في استانبول ٠٠ وكان معظم طلاب هذه المدرسة من أبناء العسكريين العاملين في الجيش العثماني ٠

ويخيل الي ، استنتاجا ، أن موقع هذه المدرسة كان هو نفسه الذي قامت فيه مدرسة معاوية ٠٠٠ عند مدخل البحصة قرب ساحة المرجة ٠٠ حيث يعاد الآن بناء مسجد «يلبغا» ٠٠ ولمّا كنت في طفولتي قد زرت مدرسة معاوية عدة مرات ، فانني اعتقد انها وريثة المدرسة العسكرية ٠٠ بكل تقسيماتها العمرانية ٠

المؤلفات الطبية لجلال الدين السيوطي

د. محمد زهير البابا

لمحة موجزة عن سيرته الذاتية :

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد... الخضيري السيوطي الشافعي(*) .

كانت ولادته في مستهل رجب عام ٨٤٩هـ / تشرين الاول ١٤٤٥م في القاهرة حيث كان ابوه يدرّس الفقه في المدرسة الشيخونية .

نشا يتيما ، فقد توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة اشهر. وأسندت وصايته الى احد مشايخ الصوفية من اصدقاء ابيه ، وقد حفظ القرآن وله من العمر ثماني سنوات .

شرع الاشتغال بالعلم عام ٨٦٤ هـ فقرا على الشمس السيرافي صحيح مسلم ، ومنهاج النووي ، ومنهاج البيضاوي ، والشفاء والفية ابن مالك ، كما قرا على غيره كثيرا من المؤلفات الدينية في اصول الفقه وشرح العقائد .

أما العلوم المتصلة بأمور الدنيا والتي اهتم بها السيوطي فكان منها علم الفرائض والحساب، قرأها على العلامة الشهاب الشارماجي ، وقرأ علم التوقيت على محمد الميقاتي ، والطب على محمد بن ابراهيم الدواني .

(*) ذكر السيوطي في مقدمة كتابه (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) ترجمة كاملة لسيرته الذاتية .

وروى الشعراني في طبقاته الصغرى أن أستاذه السيوطي قد أخذ العلم على ستمائة شيخ . كما ذكر تلميذ آخر للسيوطي وهو الداودي ترجمة أسماء شيوخ أستاذه ، إجازة وقراءة وسماعاً، مرتبين على حروف المعجم ، فبلغت عدتهم إحدى وخمسين نفساً .

كان السيوطي من مريدي الصوفية، وقد دافع عنها وعن أصحابها في مؤلفاته . ولكنه كان لا يدافع إلا عن المطعون في عقائدهم وسلوكهم ، من الذين أجمع أهل العلم على كفرهم وزندقتهم ، كابن عربي وابن الفارض . ويقول السيوطي أنه بعد التضلّع من علوم الظاهر اشتغل بتحصيل علوم الباطن ، والاستفادة من أهلها ، بالصحبة والخدمة والسلوك ،وحسن الاعتقاد والاخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل .

ومن اعتقاده الذي ألّب عليه العلماء في عصره أنه ادعى رؤية الرسول في اليقظة والمنام ، وله رسالة في ذلك . وهذا أمر لم يحصل لصحابة الرسول (ﷺ) وهم أفضل الخلق ، حتى يحصل لمن هو دونهم . وإنما هي تخيلات طرأت على كثير من المتصوفين والزهاد في عصر الانحطاط العلمي .

بدأ السيوطي دراسته في القاهرة، وأتمها متنقلاً بين بلدان مصر، وحاجاً إلى مكة المكرمة سنة ٨٦٩ هـ . ثم عاد إلى القاهرة واشتغل ببذل المشورة في المسائل الفقهية . وتولى بعدها منصب التدريس في المدرسة الشيخونية عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م . ولما بلغ الأربعين من عمره أعفي من التدريس ، فاعتزل الناس ، واعتكف في دار للعبادة (خانقاه) في جزيرة بالنيل ، حيث انصرف للتأليف والتصنيف .

كان السيوطي عفيفاً كريماً غني النفس ، متباعداً عن ذوي الجاه والسلطان، لا يقف بباب أمير ولا وزير، قانعاً برزق ضئيل . وكان بعض الأمراء والوزراء والأغنياء يزورونه ، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها . وروي أن السلطان الغوري أرسل له مرة خصياً وألف دينار . فرد الدنانير وأخذ الخصي ثم أعتقه . وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا بهدية ، فان الله أغنانا عن ذلك .

الصفات المميزة لمؤلفات السيوطي :

لقد نُسب إلى العالم السيوطي عددكبير من المؤلفات،ملأت عناوينها صفحات عديدة من فهارس المكتبات · وكتبه من الكثرة والتنوع بحيث يتعذر على الانسان أن يصدّق أنها من تصنيف عالم واحد ·

ولكن حينما يقوم الباحث بتدقيق تلك المؤلفات ، يجد أن أكثرها رسائل قصيرة لا يتجاوز عدد أوراقها أحياناً أصابع اليد · ولكن مما يلفت النظر في مواضيعها أنها تدل على نشاط عقليكبير ، عند رجل يُحب أن يطرق مواضيع ترتبط بحياة العامة والخاصة ، كما أنها تحمل عناوين غريبة ومسجّعة ، نذكر منها ما يلي :

الاسفار عن قلم الاظفار ـ بلوغ المارب في قص الشارب ـ الوديك (الدهن) في فضل الديك ـ بلوغ المارب فياخبار العقارب ـ ما رواه الواعون في اخبار الطاعون ـ كشف الصلصلة عن وصفالزلزلة ـ حصول الرفقباصول الرزق ـ في مقر الروح بعد الموت ـ مشتهى العقول في منتهى النقول ـ الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ـ جرّ الذيل في علم الخيل ···

وإلى جانب هذه الرسائل الصغيرة يوجد للسيوطي مؤلفات ضخمة ، يبلغ عدد صفحات كل منها عدة ألوف أحياناً منها :

حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (تاريخ) ـ الأشباه والنظائر (في الفقه) الأشباه والنظائر (في النحو) ـ المزهر في علوم اللغة ـ الجامع الكبير والجامع الصغير (في الحديث) ···

نشأالامام السيوطي في عائلة اشتهرت بالعلم · ولما توفي والده باكراً رعاه أحد مشايخ الصوفية · وحينما شبّ ونضج كانت إقامته في مؤسسة علمية دينية خيرية تدعى الشيخونية · وكان فيها مكتبة عامرة ، يرتادها كثير من العلماء وطلبة العلم · تأثر السيوطي كثيراً بهذا المحيط العلمي المتدين ، وجعله من المريدين والمدافعين عن المتصوفين · وحينما أتهم ، من قبل أهل العلم، بالكفر والزندقة،بعض أعلام التصوف ، كابن عربي وابن الفارض ، وقف

السيوطي يدافع عنهما في رسالتين وهما« تنبيه الغبي إلى تبرئة ابن عربي » و « قمع المعارض في نصرة ابن الفارض» ٠

عدد السيوطي ، في أحد مؤلفاته ، أسماء العلوم الدينية واللغوية والانسانية ، التي رزق نعمة التبحر بها ٠ وصرّح بعجزه عن إدراك قضايا الحساب ، وكراهيته لعلم المنطق ، بعدأن قرأ بعضاً مما ألّف فيه ، وخاصة المقدمة في المنطق (لفورفوريوس الصوري) ٠

ومن مزايا السيوطي أنه ذكر أسماء جميع الأساتذة العلماء ، الذين أخذ عنهم بعض العلوم الأساسية والتطبيقية،ففي العلوم المتعلقة بالحساب قرأ الميقات أيضاً على الشيخ مجد الدين اسماعيل بن السباع ٠ وقرأ الطب على محمد بن إبراهيم الدواني ، وكان طبيباً قدم إلى القاهرة من بلاد الروم ٠

مؤلفات السيوطي الطبية :

لقد جرت العادة في البلاد العربية والاسلامية ، وخاصة أوائل الحكم العباسي ، أن يكون الطبيب ملماً بالفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات، قبل أن يتفرّغ لدراسة الطب وممارسته أو التاليف به ٠

ولكن في أواخر العصر العباسي ، وخاصة بعد المصائب التي حلّت بالبلاد العربية بتوالي الحروب الصليبية ،وغزوات المغول والتتر ، فقد انصرف رجال العلم إلى التعمق بالفقه الاسلامي، ودراسة علوم اللغة العربية والتاريخ، بصورة عامة ٠ ونظراً لأن الموسوعات الطبية ، التي ظهرت بين القرنين الرابع والخامس للهجرة ، كالحاوي والمنصوري لأبي بكر الرازي ، وكامل الصناعة لعلي بن العباس الاهوازي ، والقانون لابن سينا ، ، قد بلغت الذروة والاحاطة والكمال في علوم الطب ، لذلك وقف طلاب العلم عاجزين عن الاتيان بمثلها ، واكتفوا بتلخيص بعضها ، مثال ذلك كتاب (موجز القانون) ، أو اجتزاء واختصار بعض أقسامها ، مثل كتاب (شرح تشريح القانون) ، وكلاهما من مؤلفات ابن النفيس ٠

إن العمل بالطب التقليدي ، المقتبس عن الطب اليوناني والهندي ،قد تراجع العمل به في البلاد العربية ،خلال القرون المظلمة التي سادت شرق العالم

العربي ، وذلك بسبب فقدان العقاقير المستوردة من الصين والهند وفارس ، أو لغلاء أثمانها . لهذا كان على الأطباء، وأكثرهم من الفقهاء وعلماء الدين ، أن يكتفوا بوصف العقاقير المحلية . أمام اجمهم فكان أهمها كُتب الطب النبوي، ورسالة برء ساعة ، وكتاب من لا يحضره طبيب وكلاهما للرازي ، وكتاب طب الفقراء والمساكين لأحمد بن ابراهيم بن الجزار القيرواني ، وكتاب تسهيل المنافع لابراهيم الأزرق .

من المعلوم أن المريض المؤمن ، حينما يعجز الأطباء عن شفائه ، يلجأ إلى الوسيلة الوحيدة التي تمنحه الهدوء وراحة النفس ، وتهبه القدرة على تحمل آلام المرض ، وهي التوسل إلى القدرة الالهية التي تخفف عنه الألم والعذاب .

إن أول مؤلفات عربية ، ظهرت في البلاد الاسلامية ، وجمعت بين الطب المادي والطب الروحاني والنفسي ، تلك التي عرفت باسم الطب النبوي . ويعود الفضل في تاليف أول كتاب حمل هذا الاسم إلى الشيخ الفقيه المتطبب أبي مروان عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي الألبيري القرطبي ، المتوفى عام (٢٣٩هـ / ٨٥٤م) . ويضم هذا الكتاب بعض الأحاديث الشريفة التي رويت عن رسول الله (ﷺ) ، والتي نهى فيها عن الايمان بالتمائم والسحر . وأوصى باستعمال الماء البارد في علاج الحمى ، كما أوصى باستعمال بعض النباتات الطبية ، مما ينمو في الجزيرة العربية ، كالحرمل والحبة السوداء والحلبة والحنة والعسل ... ونهى عن استعمال الكي والفصد إلا عند الضرورة .

أما في شرق العالم العربي والاسلامي فقد ظهرت عدة مؤلفات في الطب النبوي ، كان من أوائلها كتاب منسوب للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ، المتوفى عام (٤٣٢هـ/٩٤١م) ، ومن أواخرها كتاب المنهل السوي في الطب النبوي للعالم جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ/١٥٠٥م) .

لم يعرف عن السيوطي أنه مارس الطب ، ولكن شغفه بالمطالعة والتأليف والتلخيص شجعه على وضع بعض المؤلفات الطبية ، وشبه الطبية . كما نُسب إليه كتاب مشهور جمع بين الطب التقليدي والطب النبوي ، بالاضافة إلى طب العرّافين والمشعوذين . وفيما يلي أسماء أهم تلك المؤلفات :

آ ـ المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي •
ب ـ غاية الاحسان في خلق الانسان •
جـ ـ الرحمة في الطب والحكمة (المنسوب اليه) •
د ـ ما رواه الواعون في اخبار الطاعون •
هـ ـ اتمام الدراية لقراء النقاية •

آ ـ كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي :

لهذا الكتاب مخطوط جيد وفريد ، كان محفوظاً في المكتبة الظاهرية ، ونقل إلى مكتبة الأسد بدمشق ، حيث حفظ تحت رقم (٣١٢٧ طب) • وهو من أوقاف الوزير محمد باشا والي الشام سنة ١١٩٠هـ • عدد الأوراق (٩٩) ، القياس ٢١×١٥ سم ـ المسطرة (٢١)سطراً ، الخط نسخ معتاد ، المتن بمداد أسود والعناوين بمداد أحمر • وجاء في آخره « نجز الكتاب المسمى بالطب النبوي على يد أحمد بن عبدالحي بن علي الحسيني القدسي ، وذلك في محرم سنة (١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) » وقد ترجم للفرنسية من قبل N. Berron (1860) وإلى الانكليزية من قبل C. Elgood (1962) ، وطبع في القاهرة سنة ١٨٧٠ ثم سنة ١٨٨٧ (فهرس حمارنة) •

مقدمة النص المحقق :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« الحمد لله حمد الشاكرين، وأشهدأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خير الغافرين •••

وبعد فهذا كتاب جمعت فيه الأحاديث الواردة في الطب ، مرتبة على الأبواب • وأوردت فيه جميع ما ورد ،صحيحاً وحسناً وضعيفاً ، لينتفع به أولو الألباب • وتركت كثيراً مما أورده المصنّفون في هذا الفن ، لاشتهاره بتفرد وضّاع كذّاب • وضممت إليه من الآثار الموقوفة والمقاطع ما يستجاد ويستطاب • وعقّبت كل حديث بكلمة شارحة لمقصده ، لتتم فائدته للطلاب •

ورتّبته ترتيب الموجز في المقاصدوالأبواب . وسميته المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبويّ . والله ربي لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب » .

يتألف كتاب المنهج السوي من عددمن الأبواب ، غير المرقمة ، ولم يشر إليها بفهرس ، ولكن دونت عناوينها بالأحمر ، وهي ضمن المتن . وكعادة السيوطي في مؤلفاته فانه يذكر اسم كل من اقتبس شيئاً من مؤلفاته ، كما يذكر الأسناد ، عندما يورد حديثاً شريفاً ،وفيما يلي أمثلة على ما جاء في تلك الأبواب :

١ ـ تقسيم الطب :

قال الخطابي « اعلم أن الطب على نوعين : الطب القياسي ، وهو طب اليونان الذي يستعمل في أكثر البلدان،وطب العرب والهند وهو طب التجارب . وأكثر ما وضعه النبي(ﷺ) إنما هو على مذهب العرب ، إلاّ ما خُصّ به العلم النبوي من طريق الوحي ، فان ذلك يخرق كل ما تدركه الأطباء وتعرفه الحكماء . وكل ما فعله أو قاله في أعلى درجات الصواب ، عصمه الله أن يقول إلاّ صدقاً ، وأن يفعل إلاّ حقاً » .

وقال ابن القيّم « كان علاجه (ﷺ) للمرضى ثلاثة أنواع : أحدها بالأدوية الطبيعية ، والثاني بالأدوية الالهية ،والثالث بالمركب من الأمرين » .

٢ ـ ذكر ابتداء الطب :

أخرج البزاز في سنده ، والطبراني في الكبير ، وابن السنيّ وأبو نعيم ، كلاهما في الطب النبوي، عن النبي(ﷺ)،أن نبي الله سليمان عليه السلام كان إذا قام يصلي رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا ، فيقول لأي شيء أنت ؟.. فتقول لكذا . فاذا كانت لدواء كتبت ، وإن كانت لغرس غرست » .

وعدّد السيوطي بعد ذلك عدة روايات ، مختلفة الاسناد ، لم تخرج عن هذا المعنى ٠

٣ ـ ذكر أن لكل داء دواء ، وضرورة اللجوء الى المداواة عند حدوث المرض :

« أخرج البخاري والنسائي وابن ماجة وأبو نعيم ٠٠٠ قال رسول الله(ﷺ) ما أنزل الله داءً إلاّ وأنزل له شفاء »

وهنالك أحاديث كثيرة ، ذكرها السيوطي ، رويت عنه (ﷺ) منها أن بعض المسلمين جاؤوا إليه وقالوا : « يا رسول الله هل علينا من جناح أن لا نتداوى؟ » فقال « تداووا عباد الله ، فان الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء ، غير داء واحد الهرم » ٠ وذكر بعضهم هذا الحديث بشكل آخر : قال (ﷺ) « تداووا فان الله لم يخلق داء إلا خلق له شفاء إلا السام ، وهو الموت » . ويقال أن هذا الحديث رواه أبو هريرة فقال : أصيب رجل من الأنصار يوم أحُد ، فدعا له الرسول(ﷺ) طبيبين كانا بالمدينة ، فقال عالجاه ٠ فقالا : يا رسول الله إنما كنا نعالج ونحتال في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام فما هو إلا التوكل ٠ فقال « إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ثم جعل فيه شفاء » فعالجاه فبرىء ٠

٤ ـ ذكر الأركان الأربعة والأخلاط الأربعة :

وفيه رواية عن وهب بن منبّه قال :

« وجدت في التوراة أنه قال (تعالى) : حين خلقتُ آدم ركّبت جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثة في ولده ، تنمى في أجسادهم إلى يوم القيامة : رطب ويابس وسخن وبارد ، وذلك لأني خلقته من تراب وماء ، ثم جعلت فيه نَفَساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النَّفَس وبرودته من قبل الروح » ٠

٥ ـ ذكر الأعضاء :

يقول السيوطي : « قال الأطباء الغذاء جسم من شأنه أن يصير جزءاً من بدن الانسان ٠ وفي (كتاب) القانون الأعضاء أجسام متولّدة من أول مزاج

الأخلاط . كما أن الأخلاط أجسام متولّدة من أول مزاج الأركان . والأعضاء قسمان : مفردة ومركبة ، فالمفردة هي التي يستوي فيها اسم الكل والجزء ، كاللحم والعصب ، وتسمى متشابهة الأجزاء .

والمركبة بخلافها كالوجه واليد .. وأول الأعضاء المتشابهة الأجزاء العظم، وقد خُلق صلباً لأنه أساس البدن ودعامة الحركات . ثم العصب ـ الرباطات ـ الشريانات ـ الأوردة ـ الأغشية ـ اللحم ، وقد تكلم على كل منها على انفراد .

٦ ـ ذكر تكوّن الأعضاء عن المني :

أخرج البخاري ومسلم .. قال رسول الله (ﷺ) « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم ينفخ فيه الروح » . وفي هذا الباب أحاديث كثيرة منسوبة للرسول(ﷺ) ، وفيه أقوال أخرى منسوبة لجالينوس أو ابن سينا .

٧ ـ ١٠ وفي هذه الأبواب ذكر السيوطي تشكّل وصفات : العظام ـ المفاصل ـ العصب ـ العضل ـ العروق ـ الضوارب أو الشرايين ـ وغير الضوارب أي الأوردة .

١١ ـ ١٢ ذكر الأعضاء الرئيسة والأعضاء الخادمة أو المرؤوسة ـ كما ذكر الحواس الخمس وأقسامها .

١٣ ـ ذكر الأسباب الضرورية :

أورد السيوطي في هذا الباب بعض الأحاديث المتعلقة بحفظ الصحة ، والمرتبطة بحياة الانسان وهي : المسكن والهواء ـ المأكول والمشروب ـ الحركة والسكون (في الجسد والنفس) ـ تدبير النوم واليقظة ـ الحمّام ـ الجماع ـ تدبير الفصول ـ في الفصد والاستفراغ ـ في الحمية والتدبير بالغذاء ـ الحجامة ـ الفصد ـ الاسهال ـ القيء ـ الكي ـ الحقنة .

١٤ ـ في الأدوية والأغذيـة المفردة :

وردت في بعض أحاديث الرسول(ﷺ) أسماء عقاقير ونباتات تستعمل كغذاء أو دواء ، وقد جمعها السيوطي وأضاف إليها أسماء نباتات ومنتوجات حيوانية مما يستعمل في الطب الشعبي • ثم قام بترتيبها حسب الحرف الأول من أسمائها، وتكلم على تأثيراتها الدوائية بصورة موجزة • وفيما يلي أسماؤها :

أتـرج[١] ـ إثمـد[٢] ـ آس ـ إهليلـج[٣] ـ أرز ـ بنفسـج ـ حبـة سوداء ـ حناء ـ خل ـ خمر ـ رمان ـ زبيب ـ زيت ـ سفرجل ـ سكر ـ سنا ـ سنّوت[٤] ـ سمسم ـ سمن ـ سواك[٥] ـ شحم ـ صبر ـ عسل ـ فاغية[٦] ـ فستق ـ لوز ـ قسط[٧] بحري ـ قصب السكر ـ كباث[٨] ـ كماة ـ لبن •

١٥ ـ في الأدوية المركبة :

روى السيوطي عن ابن قيم الجوزية أنه قال : « كان من هديه (ﷺ) فعل التداوي في نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه • ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه (ر) فعل هذه الأدوية المركبة التي تسمى أقر باذين ، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات • وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونـه أو يكسر سَوْرته • وهذا غالب طب الأمـم على اختلاف أجناسها ، من العرب والترك ، وأهل البوادي قاطبة • وإنما اعتنى بالمركبـات الروم واليونان • وقـد اتفـق الأطبـاء على أنه متى أمكـن التداوي بالغذاء فلا يعدل إلى الـدواء • ومتى أمكن (المداواة) بالبسيط فلا يُعدل إلى المركب » •

سعى السيوطـي في كتابـه المنهج السـوي أن يوفّق بين ما كتبـه بعض الأطباء المشهورين ، أمثال أرسطو وجالينوس من اليونانيين ، وابن سينا وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي مـن المسلمين ، وبين ما كتبه بعض المؤلفين في الطب النبوي وخاصة أبـا الحسن علي بن عبد الكريم طرخان الحموي (٦٥٠ ـ ٧٢٠) هـ ـ وشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ، المعروف بابن قيّم الجوزية (ت ـ ٧٥٠هـ) • لكنه عند بحثه في المداواة اقتصر كلامه على استعمال الأدوية البسيطة دون المركبة •

١٦ ـ القــول في الأمـراض المختصة بعضو عضو :

تكلم السيوطي عن أسباب وأعراض ومـداواة بعض الأمـراض المعروفـة والمنتشرة في زمنه ، بصورة مختصرة وهي : الصـداع بأنواعـه ـ الدوار ـ العشق ـ النسيان ـ الفالج ـ الرمد ـ ضعف البصر ـ النزلة والزكام ـ وجع الأسنان والأضراس ـ وجـع الصدر ـ ذات الجنب ـ الاستسقاء ـ وجع البطن ـ الاسهـال ـ القولنج ـ دود البطن ـ عِرق النَسَا ـ عِرق الكلية ـ الباسور ـ البـاه ·

١٧ ـ الأمراض التي لا تختص بعضو دون عضو :

وهي الحمى بأنواعها ـ السل ـ بط الخرّاج ـ القروح ـ البثور ـ الجذام ·

١٨ ـ القول في الكسر والوثي والخلع والسقطة والصدمة ـ القـول في (الاصابة ب) العين والنظرة ·

١٩ ـ التطيّب بالمسك والقسط والريحان ـ استعمال النوْرة ·

٢٠ ـ في التداوي في السموم ـ في علاج لدغ العقرب ·

ب ـ كتاب غاية الاحسان في خَلق الانسـان :

لقد الّف في موضوع خلق الانسان، ووصف جميع أعضائه ، عدد كبير مـن علماء اللغة العربية ، منذ أوائل القرن الثالث للهجرة · وكانت مؤلفاتهـم على شكل رسائل صغيرة ، ذكروا فيها مختلف أسماء تلك الأعضاء · ثم ظهر بعد ذلك معجمات المعاني ، والتي خصصت بعض الأبواب فيها للكلام على تلـك الأعضاء بصورة أكثر تفصيلاً ·

ويعد النضر بن شميل (تـ٢٠٨هـ)، وأبو عبيدة (تـ٢١٠هـ) والأصمعي (تـ٢١٣ هـ) مـن أوائل مـن وضـع الرسائل في خلق الانسان · أما العـالم جلال الدين السيوطي فيعدّ آخر اللغويين الذين ألفـوا في هـذا الموضوع وحفظ مؤلفات من سبقه · وقد ذهب الى ذلك الدكتور ابراهيم السامرائي ، في مقدمة تحقيقـه لكتاب خلـق الانسان للزجاج (تـ٣١٠ هـ) ، فقال :

« لقد سلك السيوطي ، عند تأليفه كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان ، طريقته المنهجية التي سار عليها عند وضع مؤلفاته العديدة في مختلف العلوم والأدب والتاريخ ، وهي جمع وتصنيف وتنقيح مختلف الأبحاث الواردة في مؤلفات من سبقه ، مع ذكر أسماء تلك المراجع وأسماء مؤلفيها غالباً. وكان له بذلك فضل حفظ كثير من الكتب والرسائل المفقودة . ومن جملة المؤلفات التي اعتمدها السيوطي في كتابه خلق الانسان ، والتي تعتبر بحكم المفقودة ، كتاب خلق الانسان لمحمد بن حبيب (ت ـ ٢٤٥ هـ) ، وكتاب خلق الانسان لأبي جعفر النحاس (ت ـ ٣٣٨ هـ) وغيرهما » .

لقد ذكر السيوطي ، في مقدمة كتابه « غاية الاحسان في خلق الانسان » الأسباب التي دعته لتأليفه ، فقال : « من المهم للمتسمين بسمة العلم أن يحيطوا بأسماء أعضاء الانسان ، وأبعاضه وأجزائه وعوارضه ، ويحتووا على اللغات الواردة في ذلك » . ثم يقول بعد ذلك : « كان علماء الصدر الأول شديدي العناية به ، والتأليف فيه ، وقد انقرض (ذلك) منذ دهر مديد . وآل أمر الناس اليوم الى الجهل المحض، حتى ترى أعيان الناس اليوم ، المشار اليهم بالعلم ، لا يعرفون من (أسماء) أعضاء الانسان إلا ما تعرفه النساء والأطفال ، من الأسماء المشهورة : كالرأس والعين واليد والرجل ، وما شاكل ذلك . ولو سئل الواحد منهم عن تمييز كوعه من بوعه لم يعرف ذلك . ولقد سُئلت مرة عن الورك والفخذ هل هما اسمان لشيء واحد ، أو مسمّى هذا غير مسمّى هذا ؟

فحداني ذلك على الاهتمام بالاحاطة بخلق الانسان ، والتتبّع له من كتب اللغة والتأليف فيه . فاني على كثرة تصانيفي ، البالغة أربعمائة مؤلف ، لم أضع في اللغة شيئاً . فأحببت أن يكون لي فيه كتاب .

ومن عاداتي أن لا اؤلف إلا فيما لم أسبق إلى مثله ، وأن استوعب فيما ألّف فيه . وهذا الشرط قد تعذر في فن اللغة ، إذ لا كتاب فيها بعد كتاب القاموس[٩] ، ولا تأليف أوْعب وأجلّ منه » .

ثم ذكر السيوطي بعد ذلك أسماء بعض المراجع الأخرى التي اعتمدها ، عند تأليفه كتاب غاية الاحسان وهي :

- كتاب خلق الانسان لمحمد بن حبيب (ت ـ ٢٤٥ هـ) ٠

- كتاب خلق الانسان لأبي اسحق ابراهيم بن سري الزجاج (ت ـ ٣١١ هـ) ٠

- كتاب خلق الانسان لأبي القاسم عمر بن محمد بن الهيثم المصاني ٠

لقد عدّ السيوطي تأليفه لهذا الكتاب نوعاً من الاحسان ، يقدمه للمسلمين ليزدادوا إيماناً على إيمانهم بعظمة الخالق ، وشدة إتقانه تعالى لما خلق ، وشرحاً لما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (سورة التين/ ٩٥) ٠ كما حقق فيه محبته للغة العربية ، وذلك باحياء وإشاعة مصطلحات طبية كاد أن يدركها النسيان ٠

يتألف كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان للسيوطي من مقدمة وثلاثة وعشرين باباً ٠ يتكلم مؤلفه في مقدمته عن الأسباب التي دعته لتاليفه ، وقد مر ذكرها ٠ وفيما يلي العناوين الرئيسة لأبواب الكتاب :

١ - أسماء جملة الانسان (في مختلف مراحل نموه ، ذكراً كان أم انثى) ٠
٢ - الصفات الظاهرة للانسان: الطول - القصر - الغلظ - الدمامة ٠٠
٣ - الرأس: أقسامه - أعلاه - وسطه - أسفله ٠
٤ - الوجه: أقسامه وصفاته٠
٥ - العين: أقسامها وصفاتها٠
٦ - الأذن ٠٠
٧ - الأنف ٠٠
٨ - الشفة ٠٠
٩ - الفم ٠٠
١٠- اللسان ٠٠
١١- الأسنان والاضراس ٠٠
١٢- اللحية ٠٠
١٣- العنق وما حوله ٠٠
١٤- المنكب والكتف ٠٠
١٥- العضد والذراع ٠٠
١٦- الظهر ٠٠
١٧- الصدر والبطن ٠٠
١٨- الجنبين ٠٠
١٩- الجوف ٠٠
٢٠- الذكر والفرج وماحولهما٠٠
٢١- الاست والعجز ٠٠
٢٢- الوركين والفخذ ٠٠
٢٣- الركبة والساق والقدم٠٠

قام بتحقيق هذا الكتاب السيد مرزوق علي ابراهيم، ونشرته دار الفضيلة بالقاهرة سنة ١٩٩١ ٠

جـ ـ كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، المنسوب لجلال الدين السيوطي :

لهذا الكتاب عدة طبعات جرت في مصر ، الأولى في المطبعة الشرقية سنة ١٣١١ هـ ، والثانية في المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٢ هـ ، والثالثة في دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩ هـ ، والرابعة في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٧ هـ • وفي سورية قامت مكتبة محمد الحلبي بتصوير الطبعة الأخيرة ، ونشرتها بدون تاريخ ، كما قامت مطبعة صبيح بالقاهرة بالعمل نفسه •

اطلعت على نسخة من هذا الكتاب ، الذي نشرته مكتبة الحلبي ، وهي تحمل في نهايتها ختماً باسم مطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر ، وهذا يدل على الأصل المصورة منه •

يقول مؤلف هذا الكتاب في مقدمته : قال الامام العالم شيخ الاسلام جلال الدين السيوطي ، التقطت هذا الكتاب من كلام أبي الطيب ، ومن كلام الأشياخ رحمهم الله تعالى ، ومن كتب شتى ، مبتغياً بذلك الأجر والثواب من الله تعالى، وبه أستعين في جميع الحركات والسكنات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم •

« الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ، وأظهر (من الموجودات)[١٠] الكائنات ، وأبدع بحكمته[١١] في الطبائع الفاعلات والمنفعلات ، وأقام الأجسام المتألفات على أربع طبائع مختلفات ، وقدر المنافع والمضرات[١٢] ، والأسقام والصحات ، والحياة والممات • (وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عدد السكون والحركات)[١٣] •

(أما بعد)[١٤] فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب ، و (هذبت أغراضه)[١٥] ، وجعلته جامعاً في حال الاختصار ، لتروق[١٦] بايجازه القلوب والأبصار ، ويسهل تناوله للطالب ، ودرسه وحفظه للراغب ، وذلك بعد أن أمعنت النظر في أصول[١٧] دقائقه ، وخلّصت الصافي[١٨] من زبد حقائقه • فلما تجلّى بالحق القاطع[١٩] ، والبرهان الساطع أغرب بالمنتهى جميع أصول المناهج المتيدة ، وأعرب (نحو[٢٠] المبتدى فصول) الموائج المفيدة • وسميته : كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، وقصدت بذلك وجه الله الكريم، وعظيم

ثوابه الجسيم ، وقرنت ذلك بحسن الرجاء[21] أن ينفع بما فيه • (وجعلت جملة الكتاب مائة وخمسة وتسعين بابا)[22] •

لا يوجد لهذا الكتاب خاتمة ، كما لا يوجد ذكر للمخطوط الأصلي الذي أخذ منه ، ولا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ أو الطبع • ومما يلفت النظر في هذا الكتاب ، بالاضافة لما سبق ، الأمور الآتية :

١ - لغة المؤلف عربية فصحى ، وسالمة من الأخطاء النحوية غالبا •

٢ - ورد في مقدمة الكتاب أنه يتألف من (١٩٥) بابا ، ولكن عدد الأبواب الفعلي (١٩٦) •

٣ - أسلوب المؤلف يدل على أنه فقيه، يحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة •

٤ - تضم أبواب الكتاب مواضيع متنوعة ، تهم الطبيب المتعلم كما تهم الدجال المشعوذ •

٥ - في هذا الكتاب مزيج من الطب التقليدي والطب الشعبي ، بالاضافة إلى طرق مداواة تستند إلى استعمال السحر والتعاويذ والحجب والرقى ••

٦ - من الممكن قسم هذا الكتاب إلى قسمين واضحين :

- القسم الأول ويضم (١٠٥) أبواب ، وتمتاز كلها بانها تحوي طرق مداواة تقليدية ، وقد وردت في هذا القسم أحاديث نسبت إلى الرسول (ﷺ) دون ذكر الاسناد •

- القسم الثاني ويضم (٩٠) بابا، يبتدىء بعلاج الطحال بالكتابة ، وفيه كثير من أشكال المداواة الروحية، التي تعتمد على كتابة الحجب والأوفاق والطلاسم، وتعاويذ ورقى تتألف من كلمات مبهمة يحرّم الاسلام استعمالها•

٧ - يوجد في الأبواب الأخيرة من الكتاب (١٧٧ - ١٩٠) وصفات لا علاقة لها بعلم الطب والمداواة البشرية ، فهنالك وصفات لعلاج جدري الغنم ، ومكافحة الحشرات والحيوانات الضارة ، وصيد الطير والأسماك ، وصنع

سوائل لحل الذهب والمعادن الأخرى، وصنع المداد بألوان مختلفة ، وعمل الليق والصباغ ـ ودواء يحجب الثوب عن الحريق ، ودبغ الجلود ..

د ـ كتاب الرحمة في الطب والحكمة :

وهو من تأليف محمد مهدي بن علي الصنبري ، اليمني المقريء ، المتوفى (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ونُسب خطأً للسيوطي .

ورد ذكر هذا الكتاب في الجزء الأول من كتاب كشف الظنون ، (ص ٨٣٦) وقال عنه مؤلف الكتاب الأخير :

« وهو مختصر لطيف مفيد ، ذكره ابن الجزري في (طبقات القرّاء) ، وابراهيم الأزرق في (كتاب تسهيل المنافع) . كما ورد في (معجم الأطباء) للدكتور أحمد عيسى (ص ٤٩٦) ، بعض المعلومات الاضافية ، عن مؤلف كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مقتبسة من كتاب (النهاية في طبقات القرّاء)، جاء فيه « وهو مقرىء فاضل ، وطبيب حاذق ، ألّف كتاب الرحمة في الطب والحكمة . قرأ على أصحاب ابن شداد ، توفي سنة خمس عشر وثمان ماية ، ببلدة المَهْجم من بيت حسين باليمن » .

ولمعرفة المؤلف الحقيقي لكتاب الرحمة في الطب والحكمة رجعت إلى فهارس المكتبة الظاهرية ، والتي تضم أسماء مخطوطات الطب والصيدلة ، فوجدت في فهرس الدكتور سامي حمارنة ثلاث مخطوطات أرقامها : (٥٥٥١ ـ ٥٦٢٠ ـ ٦٦٢٣) . ووجدت في فهرس الأستاذ صلاح الخيمي مخطوطتين أرقامهما : (٤٣٥٨ ـ ١٠٩٨٦) .

كما وجدت في فهرس مخطوطات الطب والصيدلة ، للدكتور سلمان قطاية، نسخة من كتاب الرحمة في الطب والحكمة، كانت محفوظة في المكتبة الشرقية ـ الوقفية بحلب ، تحت رقم (١٧٩٩) . وبما أن جميع هذه المخطوطات محفوظة حالياً في مكتبة الأسد بدمشق ، فقد قمت بدراستها، فوجدت مايلي بصورة موجزة:

١ ـ المخطوط رقم (٥٥٥١) :

وهو بشكل مجموع ، عدد أوراقه (٨٦) ق ـ قياس (١٤×٢١) سم ـ ـ المسطرة (١٧ ـ ١٩) س ـ الخط نسخ عادي جميل ، المتن بالحبر الأسود والمناوين بالأحمر ٠ يضم هذا المخطوط كتابين :

آ ـ مختصر أقربازين ابن سينا ، مجهول المؤلف ، رقم الأوراق (١ ـ ٣٥) ـ الناسخ خليل بن الأختاني ، تاريخ النسخ شهر رجب سنة ١٠٦٣ هـ ٠

ب ـ كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مؤلفه محمد المهداوي بن علي بن ابراهيم العنبري اليمني الهندي المتوفى سنة ٨١٥هـ/١٤١٢ م الكتاب في الورقة (٣٧آ) وينتهي بالورقة رقم ٨٦ ـ تم نقله على يد عبد السلام بن علي بن علي بن محمد الدهنة سنة ٨١٥ هـ مقدمة الكتاب « الحمد لله الذي اخترع من من العدم الموجودات ، وأظهر إلى الوجود الكائنات ، وبعد فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب ، وهذبت أعراضه وقرّبت أغراضه ، وجعلته جامعاً في حالة الاختصار ليروق بايجازه القلوب ٠ وهو في خمسة أبواب : ـ في علم الطبيعة وما أودع الله فيها من الحكمة ـ في طبائع ومنافع الأدوية والأغذية ـ فيما يصلح البدن في حالة الصحة ـ أو في المرض ـ ومعالجتها » ٠

٢ ـ المخطوط رقم (٥٦٢٠) :

وهو من تأليف مهدي بن علي بن ابراهيم الصنوبري (العنبري) اليمني الهندي المقري (محمد المهداوي) المتوفى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ٠

مقدمة هذا المخطوط تنطبق على مقدمة الكتاب المنسوب للسيوطي٠ يقع هذا المخطوط في (٢٥) ورقة ، قياس١٨×٢٤ سم ـ المسطرة ٢١ سطراً ـ الخط نسخ حديث ، ويضم المتن النص الصحيح والكامل لكتاب الرحمة للصنبري٠ ولا يوجد في الخاتمة اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ ، آخره : الصحفة الثالثة لقطع جميع العلل البلغمية ثم العلل السوداوية -

٣ ـ المخطوط رقم (٦٦٢٣) :

وهو مجموع يقع في (١٠٣) ورقات ـ قياس (١١,٥×١٨,٥) سم ـ المسطرة (١٩ ـ ٢٢) س · الخط نسخي واضح فيه أخطاء لغوية وإملائية كثيرة · يضم هذا المخطوط كتاب الرحمة في الطب والحكمة لمهدي بن علي المنبري اليمني، وذلك من الورقة (٢ ـ ٢٥) · ويوجد بعده فصل عنوانه (فصل شريف في الحبل)· أوله أن سليمان بن داود جمع الجان وكلمهم عن موانع الحبل ·· وفي هذا المخطوط مقتطفات من مؤلفات عديدة لم يذكر عنوان كل منها ولا اسم مؤلفه ·

٤ ـ المخطوط رقم (١٠٩٨٦) :

تأليف المحقق المدقق ، كنز الحكمة والمعرفة ، ومعدن اللطايف ، المتصوف الجهيد المعروف بالأزرق الشيخ اليماني · مقدمة الكتاب تنطبق مع مقدمة الكتاب المطبوع مع بعض التصرف ، وقد أشرت إليه بالحاشية · يعود المخطوط إلى القرن الماضي · الخط عادي ومستعجل ، فيه كثير من الأخطاء النحوية والاملائية ·

عدد الأوراق (٣١) ـ القياس (١٦×٢٢) سم ـ المسطرة (٢٢) سطراً · سقطت منه الورقة الأخيرة، لذلك لا يوجد فيه اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ · وهذا المخطوط كتب بنفس القلم والزمان الذي كتب به المخطوط (٥٦٢٠) ·

٥ ـ المخطوط رقم (٤٣٥٨):

وهو مجموع مخروم الوسط والآخر · عدد أوراقه الباقية (٦٨) ورقة ، قياس (١٢×١٨) سم · المسطرة (١٩) سطراً · يضم هذا المخطوط كتابين الأول (جامع المنافع البدنية للجويني) لم يذكر اسم مؤلفه ، أوراقه (١ ـ ٣٦) ويليها فهرس في الورقتين (٣٧ ـ ٣٨) · أما الثاني فهو (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) ، من الورقة (٣٩ ـ ٦٧) وبعدها يوجد فوائد من غير الكتاب ، ويليها وصفة سحرية تتعلق بالباه · والمخطوط نسخة أصلية قديمة وهو بحالة سيئة بتأثير الأرضة · وهو مخروم الوسط بعد الورقة (٤٥) ، ومخروم الآخر ، لذلك

لا يحمل اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ٠والخط سيء مستعجل نسخي وبالمداد الأسود ، وبعض العناوين بالأحمر ٠وبعد فحص الفهرس العام ، والموجود في الورقتين (٣٧ و ٣٨) من هذا المخطوط، تبين أنه كان بالأصل يضم ستة مؤلفات وهي :

١ ـ كتاب مفقود ، لم يذكر اسمه ، وضاعت فهرسته ، كما جاء في اسفل الورقة رقم(٣٧)٠

٢ ـ كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، يبدأ من الورقة ٣٩ ، وقد دوّن على احد وجهيها بخط حديث وحروف كبيرة (كتبه ابوحنيفة الكوفي) ٠ ولم يرد في الفهرس رقم الورقة الأخيرة من هذا الكتاب ٠

٣ ـ كتاب برء ساعة لابي بكر الرازي ٠

٤ ـ كتاب دستور الطب (يتالف من اثني عشر بابا) وهو مجهول المؤلف ٠

٥ ـ رسالة الفوائد (تتالف من اثني عشر بابا) مجهولة المؤلف ايضا ٠٠

٦ ـ كتاب جامع المنافع البدنية (وفيه عشرون بابا) لم يذكر اسم مؤلفه ٠

مقدمة كتاب الرحمة في هذا المخطوط تماثل تقريباً مقدمة كتاب الصنبري ، وفيها أنه اختصر جملة الكتاب أيضاً في خمسة أبواب، عدّدها فجاءت كما وردت في المخطوط (١٠٩٨٦) ٠ ولكن ما وردبعد ذلك في المخطوط يختلف تماماً عما ورد في كتاب الرحمة في الطب والحكمة للصنبري ٠ وأول ما يلفت النظر في المخطوط (٤٣٥٨) وجود طلاسم وأوفاق وتعاويذ تماثل ما ورد في الكتاب المطبوع والمنسوب للسيوطي ٠ وإذا كانت بعض العناوين في الكتاب المذكور تتفق مع ما ورد في المخطوط إلا أن الكتاب المطبوع فيه كثير من التفصيل والترتيب ٠ وعلى كلٍ يمكن أن يعدّ كتاب الرحمة ، الوارد في هذا المخطوط، مرجعاً لمن قام بتصنيف الكتاب المطبوع ودمجه مع كتاب الصنبري ، مع كثير من الاضافات ٠

وفيما يلي فهرس كتاب الرحمة كما جاء في المخطوط :

الباب الأول : في علم الطبيعة ، وما أودع الله فيها من حكمة ـ فصل في الأخلاط الأربعة ـ فصل في الأمزجة ٠

الباب الثاني : فصل في الأغذية التي هي الطعام والادام والفواكه وغيرها ـ فصل في مفردات الأدوية التي يعالج بها المرض ٠

الباب الثالث : فيما يصلح للبدن في حال الصحة : في الأكل والشرب ، تدبير الحركة ، تدبير السكون ، تدبيرالنوم ، تدبير اليقظة ، تدبير الجماع ، تدبير الأهوية ، العوارض النفسية ،تدبير أعضاء البدن الصحاح ، تدبير جملة البدن ، تدبير العين ، الأسنان ،تقليم الأظفار ، المعدة ، البول ، تغطية الرأس •

الباب الرابع : تدبير الأمراض الخاصة بكل عضو من الرأس الى القدم : داء الثعلب ـ صلاح الشعر ـ خفةالرأس ، الكلف ، الصداع ، وجعالأذن، العين، الزكام، الرعاف ، وجع الأضراس والأسنان ، نفح الفم ، البخر ، بحة الصوت ، السعال ، نفث الدم ، وجعالفؤاد ، القولنج ، أمراض المعدة ، الفواق ، وجع السرّة ، الطحال ،الاستسقاء ، الوباء ، اطلاق البطن ، الزحير ، الموبدان ، سلس البول ، حصرالبول ، الحصاة ، الباه ، خروج المقعدة، البواسير ، النواسير ، عرق النسا ،الملح ، داء الفيل ، الداحس •

الباب الخامس : في الأمراض العامةالمتعلقة بالبدن : الحميات ، النافض ، النشوان ، الدوران ، الماليخوليا ،الصرع ، العشق ، السكتة ، الفالج ، البرص ، الجذام ، الجرب ، الحزاز ،الكف السودا، الثآليل، البرد، الخنازير، الدمامل ، القروح ، الجروح ، ضربالسياط ، العرق المديني ، حرق النار ، عض الكلاب ، عضة الكلب الكلب ،السموم ، لذع الأفاعي ، وجع المفاصل والظهر ، اليرقان •

فصل في ذكر أصول كلها نافعة ، وفيه أربعصفات لقطع العلل من الطبائع الأربعة : الصفراوية ، الدموية ،البلغمية ، السوداوية •

هـ ـ رسالة (ما رواه الواعون في اخبارالطاعون) :

في مكتبة التكية الصديقية بحلبكان يوجد نسخة مخطوطة من هذه الرسالة رقمها (١٣٨) ، وقد نقلت اليمكتبة الأسد، وأصبحرقمها (١٧٣٦٥). وقد جاء في أولها :

« هذه رسالة في الطاعون (لجلالالدين) السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ

(١٥٠٥ م) ، اختصرها من كتاب (بذل الماعون) لابن حجر عليهما رحمة الله » ٠
عدد أوراق الرسالة (١٢) ورقة، القياس (٢٢×١٦) سم، المسطرة (٢٤) سطراً٠ الخط نسخي حديث ٠ لا يوجد تاريخ نسخ ولا اسم للناسخ ٠ وقد جاء في مقدمة الرسالة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ٠ قال الشيخ العالم العلاّمة جمال الدين ابن الشيخ الامام العالم العلاّمة كمال الدين السيوطي الشافعي رحمه الله : الحمد لله مقدّر الأرزاق والآجال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد والصحب والآل ٠ هذا جزء انتخبت فيه ما ورد في أخبار الطاعون ، اختصرته من (كتاب) بذل الماعون ، لشيخ الاسلام ابن حجر ٠ فأتيت بالمقصود وحذفت الأسانيد ، وما وقع على سبيل الاستطراد » ٠

لقد جاء في كتاب كشف الظنون (ج ١ ــ ص ١٥٧٤) :

« ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، لجلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ ٠ أوله الحمد لله يقدّر الأرزاق والآجال ٠٠٠) اختصر فيه كتاب بذل الماعون لابن حجر، وأورد فيه مقامة ابن الوردي والصفدي والمقامة الدرّية٠٠٠

وهذا يدل على أن ناسخ الرسالة قد أخطأ بكتابة اسم مؤلفه ، فجعله جمال الدين بدل جلال الدين ، كما أخطأ باسم الكتاب فقال بذل الواعون بدلاً من بذل الماعون ٠

تكلم السيوطي بعد المقدمة عن مبدأ الطاعون فقال : « أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله (ﷺ) قال : إن هذا الطاعون رجز ، وبقية عذاب عذّب به قوم ، وفي لفظ لهما قبلكم ، وفي لفظ له ، رجز أهلك الله به بعض الأمم ٠ وقد بقي في الأرض منه شيء يجيء أحياناً ٠ ثم أورد السيوطي ذكر الطاعون الذي أصاب قوم فرعون في مصر فأهلك منهم سبعين ألفاً٠

أما فيما يتعلق بتعريف الطاعون فقد اعتمد السيوطي على حديث أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال :« قال رسول الله (ﷺ) فناء أمتي في الطعن والطاعون ، قلنا قد عرفنا الطعن فما (هو) الطاعون ؟ ــ قال وخز أعدائكم من الجن » ٠

ـ وعلى حديث آخر أخرجه أبويعلى عن عائشة (ر) أن النبي (ﷺ) قال : « وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجن ، غدة كغدة الابل ، من أقام عليها كان مرابطا ، ومن أصيب به كان شهيداً ، ومن فرّ منه كان كالفارّ من الزحف » .

ـ وأخرج البزاز عنها قالت: « قال رسول الله (ﷺ) الطاعون يشبه الدمّل، يخرج في الآباط والمراق ، وفيه تزكية أعمالهم ، وهو لكل مسلم شهادة » .

ويقول السيوطي إن هذه الأحاديث تبطل قول الأطباء « أن الطاعون مادة سمية تحدث ورماً قتالاً » ، وأن سببه فساد جوهر الهواء . وقد أبطل ابن القيم في الهدي قول الأطباء هذا بوجوه منها :

١ ـ وقوع الطاعون في أعدل الفصول .

٢ ـ وقوعه في أصح البلاد هواءً وأطيبها ماء .

٣ ـ ومنها لو كان من الهواء لعمّ الناس والحيوان .

٤ ـ قد يأخذ الطاعون أهل البيت بأجمعهم ولا يدخل بيتا يجاورهم .

٥ ـ يدخل الطاعون بيتا فلا يصاب منه الا البعض .

لقد عدد السيوطي الطواعين التي وقعت في بلاد المسلمين فقال :

ـ كان أولها طاعون عَمَوَاس (أو عمْواس) . وهو موضع في بلاد الشام ، وكان في خلافة عمر (ر) .

ـ وفي كتاب ابن أبي حجلة : أول طاعون وقع في الاسلام على عهد النبي(ﷺ) ، في السنة السادسة للهجرة بالمدائن ، ولم يمت فيه على الأغلب أحد من المسلمين. ثم وقع بالكوفة في حياة ابن مسعود ، ثم في حياة أبي موسى الأشعري ، ثم وقع بها في إمارة المغيرة بن شعبة .

ـ وفي مدينة البصرة وقع طاعون الجارف، وسمي بذلك لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض . وقيل كان في سنة ٦٩ وقيل سنة ٧٠ وقيل سنة ٧٦ هـ . ومات فيه لأنس بن مالك (٨٣) ولداً. قال سبط بن الجوزي : ولم يمت فيه من أهل الشام إلا اليسير منهم .

ـ ثم وقع الطاعون بمصر سنة ٦٦ ثم سنة ٨٥ ٠ ووقع بالبصرة سنة ٨٧ ،وهو طاعون الفتيان ٠

لقد عدّد السيوطي عددا كبيراً من الطواعين التي حلت بالبلاد العربية إلى أن قال : ثم كان الطاعون العام سنة ٧٤٩ هـ ، ولم يعهد له نظير في الدنيا ، فانه طبق الأرض شرقاً وغرباً ، ودخل مكة المشرفة،ووقع في بعض الحيوانات أيضاً ، وعمل فيه ابن الوردي مقامته المشهورة،وسماها (النبا عن الوبا) ، وتوفي مصاباً به ٠

ـ لقد أسهب السيوطي بالكلام عن عدم دخول الطاعون للمدينة المنورة ومكة المشرفة ، كما جاء في عدد من الروايات، لكنه قال ان مكة دخلها طاعون سنة ٧٤٩،وعلل ذلك بأن حرمتها انتهكت بسكنى الكفار فيها ٠

ـ وتكلم السيوطي عن الوباء الذي انتشر في بلاد الشام ، عندما خرج إليها الخليفة عمر بن الخطاب (ر) لفتح بيت المقدس ، وكيف اختلف الصحابة بين مؤيد لدخول البلاد أو الابتعاد عنها ٠ فجاء عبد الرحمن بن عوف (ر) وكان متغيباً ، فقال : « إن عندي من هذا لعلماً ـ سمعت رسول الله (ﷺ) يقول « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ٠ وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ٠ وقد روى أسامة بن زيد حديثا بهذا المعنى ٠

ـ سأل بعضهم السيوطي عن الأسباب الحقيقية لمرض الطاعون ، أهو ناجم عن فساد الأمزجة والهواء ، أم عن اختلاف الغذاء ؟ ـ فأجابه شعراً :

بحمد الله يحسن الابتداء   وللمختار سيدنا الثناء
سالت فخذ جوابك عن يقين   فما اوردت عندهم هباء
فما الطاعون الفلاك ولا أن   مزاج ساء او فسد الهواء
رسول الله اخبر ان هذا   بوخز الجن يطعننا العداء
يسلطهم إله الحق لما   بهم تفشو المعاصي والزناء
يكون شهادة في اهل خير   ورجسا للأولى بالشر باءوا
اتانا كل هذا في حديث   صحيح ما به ضعف وداء

ـ ثم اتهم السيوطي كل من يخالف هذا الاعتقاد فقال :

ومـن يتـرك حديثـا عن نبي لمـا قـال الفلاسفـة الجفاء
فذلـك مالـه في العقـل حـظ ومـن ديـن النبـي هو البراء

ـ يقول ابن الوردي في مقامته (النبا عن الوبا) ، والتي مطلعها « الله لي عدّة من كل شدة ، حسبي الله وحده ، أليس الله بكاف عبده ... طاعون روّع وأمات ، وابتدأ خبره في الظلمات . ياله من زائر من خمس عشرة سنة داير .. » ثم ذكر كيف أن الطاعون جاء من الصين إلى مصر ، ثم إلى فلسطين فدمشق ، ثم طلب حلب ولكنه ما غلب . فهو ولله الحمد والمنّة أخفّ وطأة .. » ثم وصف ابن الوردي أعيان حلب ، وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض . وقـد تنغّص عيشهم الهني ، بملاحظة التطين بالطين الأرمني . وقـد لاطف كل منهم مزاجه وعدّل ، وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسُعد والصندل ، وتختموا باليواقيت ، وجعلوا البصل والخل من جملة الادام ، وأتوا بالأمراق والفاكهة ، وقدّمـوا للمـرضى الأتـرج والتـوت وما شابههما .

ويؤكد السيوطي في رسالتـه أن أفضل وسيلة لعلاج الطاعون هي الدعاء والصلاة على النبي (ﷺ) ، مع استعمال أزهار البنفسج . وختم رسالته بدعاء مطلعه : هلمّ بنا نستغيث إلى الله في رفعه فهو خير مغيث .

و ـ كتاب إتمام الدرايـة لقرّاء النقايـة :

وهو كتاب مدرسي ، ألّفه جلال الدين السيوطي ، وجعله على نمط كتاب مفاتيح العلوم للعالم محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفى عام (٧٨٣ هـ ـ ٩٩٧ م) .

يوجد من هذا الكتاب ، في مكتبة الأسـد بدمشـق ، خمس نسخ مخطوطة وكتاب مطبوع على الحجر ، وفيما يلي أرقامها وأوصافها :

١ ـ المخطوطة رقم (٣٢٣٨) :

نسخة نفيسة ، على غلافها إطار نقوش مزخرفة . وهو من أوقاف أسعد باشا العظم والي دمشق ، على مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا . على غلافها

الداخلي يوجد قيد تملك باسم علي العمري سنة ١٠٣٧ هـ ، وآخر باسم محمد بن عثمان الهوس سنة ١٠٦٤ هـ ٠والمخطوطة بحالة جيدة ، كتبت بخط نسخي جميل بالمداد الأسود ، وكتبت العناوين ورؤوس الفقر بالمداد الأحمر ٠

عدد الأوراق (١٠٣) ق ـ القياس(١٥×٢٠,٥) سم ـ المسطرة (٢١) سطراً ٠ نسخت في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٠٠٣ هـ ٠

٢ ـ المخطوطة رقم (٣٢٣٩) :

سجل على غلافها الداخلي أنها وقف للوزير محمد باشا والي الشام بتاريخ سنة ١١٩٠هـ ٠ وعليها قيدتمليك باسم اسماعيل بن الجراح العجلوني، المدرس تحت القبة في الجامع الأموي سنة١١٣٠ هـ ٠

هذا المخطوط يقع ضمن مجموع ،ويشكل القسم الأول منه ٠ لا يوجد في نهايته اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ ٠ وهو من مكتوبات القرن الحادي عشر للهجرة ٠ الخط نسخي وبالمداد الأسودوالأحمر،وعلى هامشه بعض التعليقات٠ العدد (٧٠) ورقة ـ القياس (١٤,٥×٢١) سم ـ المسطرة (٢٥) سطراً ٠

٣ ـ المخطوطة رقم (٣٢٤٠) :

وهو من أوقاف المدرسة المرادية (بدمشق) ، وعلى الورقة الأولى قيد تملك باسم عبده محمد بن الحسين الكوراني سنة ١١٢٩ هـ ٠ الكتاب مفروط الأوراق ويحتاج لترميم ٠ الخط نسخي بمداد أسود والعناوين بالأحمر ، وعلى الهوامش كثير من التعليقات والفوائد ،وكتب في نهايته : كان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٩٦هـ ، على يد علاء الدين البابلي الغمري الشافعي ـ عدد الأوراق (٨٩) ورقة ـ القياس (١٥×٢١) سم المسطرة (٢١ـ٢٥) سطرا ٠

٤ ـ المخطوطة رقم (٣٢٤١) :

وهي المخطوط الأول ، في مجموع يضم كتاباً آخر للسيوطي عنوانه (مفحمات الأقران في مبهمات القرآن) ٠ والمجموع مفروط الأوراق ، ويحتاج

لصيانة ،وعلى هامشه تصويبات وتعليقات ، وعلى الورقة الأولى منه كتب أنـه وقف باسم الحـاج مصطفى بن درويش العلبي ، على من ينتفع به من طلبة العلم في ١٥ شوال سنة ١٢٤٥ هـ •عدد الأوراق ٥٤(١ ـ ٥٤) ـ القياس (٢٠×٢٧) سم ـ المسطرة (٢٦) سطراً •

٥ ـ المخطوطة رقم (٣٢٤٢) :

وهي بحالة جيدة ، كتب على الورقة الأولى منها : وقف عثمان الكردي على أرحامه،وعلى طلبة العلم من المسلمين •وعلى الورقـة الثانيـة ، وتحت عنوان الكتاب وفوقه ، كثير من الفوائد،وكذلك على هوامشــه وعلى الورقـة الأخـيرة والغلاف • نسخ هذا المخطوط سنة ١١٧٥ هـ ، الخط نسخي جيد ، وبالمدادين الأسود والأحمر • عدد الأوراق (٩٦)ورقـة ـ القيـاس (١٦×٢١) سم ـ المسطرة (١٧) سطراً •

٦ ـ كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية :

وهو مطبوع على الحجر عام ١٣٠٩هـ ، وقد جاء على غلافه : إن السبب في طبعه ، لتعميم نفعه ، الأجل الأمجـد ،الكامل المكرم ، محمد الشيرازي ، الملقب بملك الكتاب ، لازال لكل خير عـام •

مقدمة الكتاب ، بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله على نعمه السابغة الشاملة •واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له • شهادة بالنجاة من الأهوال كافلة ، واشهد ان محمدا عبده ورسوله ذو الأوصاف الجميلـة الكاملة ••• وبعد •

فلما ظهر لي تصويب الملحّين علي في وضـع شـرح على الكراسة التـي سميتهـا بالنقاية ، وضمنتها خلاصة اربعة عشر علما، وراعيت فيها غاية الايجـاز والاختصار • واودعت في طيّ الفاظها ما نشره النـاس في الكتب الكبار • بحيث لا يحتاج الطالب معها الى غيرها ، ولا يحرم الفطن المتامل لدقائقها من خيرها ، بادرت الى ذلك ، قصداً لعمـوم العائدة وتمام الفائدة،وابرازاً لما انا باستخراجه أحرى،إذ صاحب البيت بما فيها ادرى» •

كان كتاب (إتمام الدراية لقراء النقاية) كتاباً تعليمياً مرغوباً من قبل العلماء وطلاب العلم ، وذلك خلال الفترة الممتدة بين القرنين العاشـر والرابع

عشر للهجرة ، بدليل أن أكثر مخطوطاته كانت موقوفة للتدريس، ومنسوخة خلال تلك الفترة • كما أن امتلاء هوامش تلك المخطوطات بالتعليقات والفوائد دليل أيضاً على كثرة استعمالها من قبل الأساتذة والطلاب •

مقارنة بين كتاب إتمام الدراية وكتاب مفاتيح العلوم :

إن كلاً من هذين الكتابين يعتبر جامعاً مختصراً لمتون العلوم العربية ، الدينية والدنيوية • وقد قسم أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمي كتابه مفاتيح العلوم إلى مقالتين :

المقالة الأولى : خصصها لعلوم الشريعة، وما يقترن بها من العلوم العربية ، وهي تضم ما يلي :

١ ـ الفقه (١١) فصلاً • ٢ ـ الكلام (٧) فصول • ٣ ـ النحو (١٢) فصلاً •
٤ ـ الكتاب (٨) فصول • ٥ ـ الشعر والعروض (٥) فصول • ٦ ـ الاخبار (٩) فصول •

المقالة الثانية : خصصها كما يقول لعلوم العجم ، من اليونانيين وغيرهم من الأمم • وتضم ما يلي :

١ ـ الفلسفة (٣) فصول • ٢ ـ المنطق (٩) فصول • ٣ ـ الطب (٨) فصول •
٤ ـ الارتماطيقي (٥) فصول ٥ ـ الهندسة (٤) فصول • ٦ ـ علم النجوم (٤) فصول.

ـ أما كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية، فيضم العلوم الآتية ، وإلى جانبها عدد صفحات كل منها :

١ ـ أصول الدين (٣ـ٢١) • ٢ ـ علم التفسير (٢٢ـ٥٣) • ٣ ـ علم الحديث (٥٤ـ٧٩) •
٤ ـ علم أصول الفقه (٨٠ـ٣) • ٥ ـ علم الفرائض (٩٤ـ٩٦) • ٦ ـ علم النحو (١٠٦ـ١٢٥) •
٧ ـ علم التصريف (١٢٦ـ١٣٤) • ٨ ـ علم الخط (١٣٥ـ١٣٩) • ٩ ـ علم المعاني (١٤٠ـ١٥٩) •
١٠ ـ علم البيان (١٦٠ـ١٦٨) • ١١ ـ علم البديع (١٦٩ـ١٨٠) • ١٢ ـ علم التشريح (١٨١ـ١٩٠) •
١٣ ـ علم الطب (١٩١ـ٢٠٢) • ١٤ ـ علم التصوف (٢٠٣ـ٢٣٢) •

يقول السيوطي : إن هذه العلوم يحتاج اليها الطالب ، ويتوقف كل علم ديني عليها. إذ منها ما هو فرض عين :وهي أصول الدين والتصوف . ومنها ما هو فرض كفاية ، إما لذاته وهوالتفسير والحديث والفرائض، أو لتوقف غيره عليه ، وهو الأصول والنحو ومابعدهما . ومنه الطب الذي يُعرف به حفظ الصحة ، المطلوبة للقيام بالعبادات والقيام بالمعاش ..

وسنكتفي فيما يلي ببيان ما تكلم عنه السيوطي في علمي التشريح والطب :

يقول السيوطي لقد قدّمت التشريح على الطب لأنه منه كنسبة التصريف للنحو . لأن التشريح يبحث عن ذات البدن وتركيبها ، أما الطب فيبحث عن الأمور العارض لها . ولما كان الطب لمعالجة الأمراض الظاهرة الدنيوية ، لذلك (يستحسن) أن يعقبه التصوف الذي تعالج به الأمراض الباطنة الأخروية .

لقد وصف السيوطي في مبحث التشريح عظام جسم الانسان والأعصاب والأوتار والعضلات والشرايين والأوردة والدماغ والعين .. وهو وصف سطحي يراد فيه تعداد ومعرفة أسماء مختلف أقسام الجسم وأجهزته .

لم يذكر السيوطي ، خلافاً لعادته ، المرجع العلمي الذي استقى منه هذا الوصف، ولكنه أورد ذكر جالينوس عند وصفه للقلب ، ثم تابع وصفه لبقية الأعضاء الداخلية من كبد وطحال وكليتين ومثانة وحالبين وأعضاء تناسل.

وختم كلامه في التشريح بحديث منقول عن مسلم، عن عائشة (ر) قالت « قال رسول الله (ﷺ) : إن الله خلق كل انسان من بني آدم على (٣٦٠) مفصلاً. فمن كبّر الله وحمد الله ، وهلّل وسبّح واستغفر، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً ، وأمر بمعروف أونهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فانه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » .

أما علم الطب فقد عرّفه السيوطي كما عرّفه ابن سينا بأنه حفظ صحة وبرء مرض . ثم قام السيوطي بتعريف بعض المصطلحات التي كانت متداولة في علم الطب ، ثم بيّن وظائف بعض الأعضاء فقال : الأركان : نار وهواء وماء وتراب ــ الغذاء : جسم من شأنه أن يصير جزءاً شبيهاً بالمغتذي ــ الخلط:

جسم رطب سيال يستحيل إليه الغذاء أولاً ـ الأخلاط هي : دم وبلغم وصفراء وسوداء ـ إذا استقر الغذاء في المعدة انهضم فيصير كيلوساً ، أي جوهراً سيالاً يشبه ماء الكشك الثخين • ثم ينجذب لطيفه فيجري في عروق متصلة بالأمعاء ، فيصل إلى العرق المسمى باب الكبد ••• الخ • إن هذا الشرح يدل على أن السيوطي كان على اطلاع لا بأس به على علم وظائف الأعضاء وأسباب الأمراض • وقد ورد في هذا البحث بعض الأحاديث الشريفة التي كان قد ذكرها السيوطي في كتابه « المنهج السوي في الطب النبوي » •

لقد اقتبس السيوطي بعض أقوال موفق الدين البغدادي ، دون أن يذكر اسم كتابه ، فقال : قال موفق الدين البغدادي « الداء خروج البدن أو العضو عن اعتداله ، باحدى الدرجات الأربع • ولا شيء منها إلاّ وله ضد ، وشفاء الضد بضده • وإنما يتعذّر استعماله (أي الدواء الشافي) للجهل به أو فقده ، أو موانع أخرى • أما الهرم فهو اضمحلال طبعي ، وطريق إلى الفناء ضروري ، فلم يوضع له شفاء ، والموت أجل مكتوب ، لا يزيد ولا ينقص ، وفي كل شيء دواء إلاّ الخمر » •

ولدى ذكر الخمر استطرد السيوطي فروى عن مسلم أن طارق بن سويد سأل النبي (ﷺ) عن الخمر فنهاه ، فقال: إنما أصفها للدواء، فقال الرسول (ﷺ): إنها ليست بدواء ولكنها داء • وفي لفظ آخر : إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرّم عليها • وروي عن السبكي في قوله تعالى « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» قال كل ذلك قبل التحريم، فلمّا حرّمت سلبت المنافع كل مصح أو ممرض •

وختم السيوطي بحثه في علم الطب بجملة من الفوائد قال :

ـ قال ابن جماعة ينبغي أن يكون الطبيب صدوقاً عدلاً ، صاحب ذكاء وحذق ومهارة وصبر ونصيحة •

ـ ومعلم الطب ينبغي أن يكون كذلك، بعد استكماله في صناعته ، والمتعلم ينبغي أن يكون خبيراً ذكياً •

ـ يجوز أن يطبب الرجل امرأةوبالعكس ، بشرط حضور محرم أو نحوه • ـ يسنّ (للمريض) التداوي ، فان تركه توكلاً ففضيلة ـ إطعام المريض ما يشتهيه (مستحسن) • ـ يكره الدعاء بالضرر وتمني الموت لأجله •

ـ ليس يصيب المؤمن وَصَبٌ ولاتَعَب ، حتى الشوكة يشاكها ، إلاّ كفّر بها من خطاياه ، أو رُفّع بها درجات ، كما صحّ بذلك الأحاديث •

من ذلك يتبين لنا أن السيوطي كان فقيهاً ، وأديبا لغويا أكثر منه طبيبا • بينما كان الخوارزمي عالماً رياضياوفيلسوفا متكلما ، ولم يشتهر بالفقه ولا الطب ، وإن كتب فيهما •

☆ ☆ ☆

□ الحواشي :

١ ـ اترج : كباد •

٢ ـ إثمد : الكحل الأسود •

٣ ـ إهليلج : ثمر نبات هندي له عدة انواع •

٤ ـ سنوت : شمرة •

٥ ـ سواك : أعواد الأراك •

٦ ـ فاغية : زهر الحناء •

٧ ـ قسط : نبات له عدة انواع يستعمل جذره •

٨ ـ كباث : ثمر الأراك •

٩ ـ القاموس المحيط للفيروزبادي ، مؤلفه مجدالدين محمد ابن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) •

١٠ـ بدل هذه الجملة (الى الوجوه) في مخطوطه كتاب الصنبري (رقم ١٠٩٨٦) •

١١ـ حكمته •

١٢ـ المضارات •

١٣ـ جملة غير موجودة في المخطوط المذكور •

١٤ـ وبعد •

١٥ـ وهذبت به اعراضه وقربت اغراضه في المخطوط المذكور•

١٦ـ لـيروق •

١٧ـ احوال •

١٨ـ المعالي •

١٩ـ ونوضح بالبرهان •

٢٠ـ (فحوى للمستدل وصول) •

٢١ـ الرجاء فيه (هذه التصويبات من المخطوط المذكور ايضا)•

٢٢ـ بدل هذه الجملة (واختصرت جملة الكتاب في خمسة ابواب)•

☆ ☆ ☆

اللغة والحرفة في شعر كشاجم

د. مسعود بوبو

– ١ –

كُشاجم هو أبو الفتح محمود بن حسين الرملي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . ووجدت ترجمته على ظهر ديوانه على الوجه التالي(١) :

هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الكاتب المعروف بكشاجم . هو من أهل الرملة من نواحي فلسطين ، كان رئيساً في الكتابة ، ومقدّماً في الفصاحة والخطابة ، له تحقيق يتميّز به على نظرائه ، وتدقيق يربو به على أكْفَائه ، وتحديق في علوم التنجيم أضرم فيه شعلة ذكائه ، فهو الشاعر المفلق، والأديب المدقق ، لقّب نفسه بكشاجم ،فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب، والشين من شاعر ، والألف من أديب ،والجيم من جواد ، والميم من منجم .وكان طبّاخ سيف الدولة (الحَمْداني) ..له كتاب المصايد ، وأدب النديم . نشر ديوانه ببيروت سنة ١٣١٣ هـ . قال فيه بعضهم :

يا بؤسَ من يُمنى بدمعٍ ساجمٍ … يَهمي على حُجُب الفؤاد الواجم
لولا تَعَلُّلُه بكأسِ مُدامةٍ … ورسائل الصابي وشعر كشاجم

– ٢ –

وقبل النظر في طبيعة لغته الحِرَفية وخصائصها يستحسن أن نقف عند مفهوم الحرفة وصلتها باللغة عند علماء اللغة المحدثين .

أما مفهوم الحرفة فيطلق اليوم على العمل الذي يؤديه الانسان ليحقق به دخلاً، أو على المهنة التي يزاولها ليكسب منها عيشه، أو ليرضي بها ميله وهوايته أو لينفذ أوامر ألزمته بهذا النشاط الانساني أو ذاك . وتدرج الحرفة عند العرب في جملة الصنائع التي عرفوها في تراثهم وحضارتهم . وقد كانت حرفهم قديماً بسيطة محدودة توافق طبيعة حياتهم وحاجاتهم التي يستدعيها السكن والكساء والطعام ومايتفرّع عن ذلك من آلة الحياة .. ولعل ابن خلدون من هنا قرر أن « العرب أبعد الناس عن الصنائع ، والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري »(٢) .

ولأن الحرف لم تنتشر في المجتمع البدوي فقد أنف العرب الاشتغال بها وتركوا أمور خدماتهم للعبيد أو الأسرى أو الاماء(٣) ، فضلاً عن أن حياة الحل والترحال والغزو والاغارة والصيد لم تكن تتيح لهم التروي في العمل اليدوي الذي تتطلبه حرفهم البسيطة . لكن العرب ، عندما اختطوا الحواضر والمدن وعرفوا مجتمعات الاستقرار والتحضر ، اتّسمت بهم الحاجة إلى الحرف والصنائع ، وفرزت طبقة من الحرفيين الذين صار لهم أسواقهم ومحالّهم الخاصة ، وانتظم كثير منهم في ما يشبه النقابات التي كانت تسمى « الأصناف » ، مما دفع بالسلطات الادارية في الدولة الى الاهتمام بهذه الطبقة : رعاية ، وتنظيماً ، ورقابة ، وفق ضوابط أو قوانين تتفق مع طبيعة العصر والبيئة ونوعية الحرفة . وتطوّر نظام الادارة في الدولة العربية حتى عرف نظام النقابات والحسبة والمحتسب(٤) .

وليس في النية الافاضة في الحديث عن اتساع دائرة الحرف والصنائع وما يتصل بذلك من أنظمة وتصنيف للحرَف ومراتبها ونظرة المجتمع إليها وإلى أصحابها ، فلذلك موضع آخر(٥) ، إنما نريد ربط لغة الحرفة هنا بالدراسات اللغوية الحديثة لنصل إلى غرضنا الأساسي .

- ٣ -

ففي علم اللغة الحديث Linguistics شاع مصطلح يسمّى : « علم اللغة التنظيمي INSTITUTIONAL LINGUISTICS » وهو علم يدرس لغة لدى جماعة

ذات طبيعة عمل واحدة ، أو ممّن يمكن أن تضمهم نقابة أو حرفة واحدة ، وبتعبير آخر : هم من ذوي اختصاص واحد ··

وفي ميدان علم اللغة الاجتماعي يجري الحديث عن هذا الجانب عند رصد لغة المواقف الاجتماعية، إذ يتناول علماء اللغة المحدَثون مستويات الأداء اللغوي بالتحليل ويصنفون نوعية اللغة الموافقة لكل موقف ، مما سمّاه علماء البلاغة العرب « لكل مقام مقال » ؛ فالحديث مع الطفل يتطلّب تخيّر لغة موافقة للخطاب والمحاورة والتواصل ،وقل مثل ذلك عن الحديث مع العجوز ، أو المتدين ، أو المرأة ، أو الحرفي ، أوالمفكّر ·· وإذا ما تفهّمنا مثل هذه الحالة كان بمقدورنا أن نتصوّر اللغة الخاصة التي يمكن أن يستخدمها أصحاب الحرف للتخاطب والحديث والتعبير عن مكنونات النفس والمنازع الداخلية ، والتفريغ النفسي ، أو « المونولوج » الداخلي الذي يسمّيه بعضهم تيار الوعي ·

ولا ينبغي أن نؤخذ في رصد ذلك بظواهر الأداء أو المحاكاة اللغويين ، فكثيراً ما يتكلف الشاعر أو الناثر (الروائي أو المسرحي) محاكاة طائفة من الجماعة الكلامية ذاهبا إلى إتقان التصوير الواقعي، ولكنّ بعض مفرداته قد تكشفه وتدلل على انتمائه إلى جماعة أخرى لم يستطع أن يتخلص كليا من موروثاتها اللغوية أو عاداتها الكلامية، فيبدو شبيهاً بحديثي الثراء في تصرفاتهم المرتبكة أو المضحكة ، أو يبدو غير متقن لمصطلحات الجماعة ولا ممسك بمفاتيح أسرارهم ·· وأحياناً يكون لأصحاب الحرف رموزهم اللغوية التي يتفقون عليها وتشيع في دائرتهم وحدها ، كما في المجتمعات الضيّقة للمهربين أو المشتغلين بالنشاطات السرية والسلع الممنوعة ·

ولأصحاب الحرف من الشعراء بواعثهم ودواعيهم الخاصة في اصطفاء ألفاظ وثيقة الصلة بطبيعة عملهم ·فقد يكون ذلك تطرّفا ، أو تقرّبا من الكبراء ، أو لاضحاكهم ونيل عطاياهم،وقد يكون للشكوى أو للتسرية عن النفس أو لابراز براعتهم في أعمالهم··أيتما حال ، تظل تعابيرهم ولهجاتهم تنم على نوعية مشاغلهم ، وترشح باللون الذي تلونت به حياتهم الخاصة وما

يحيط بهــا من بيئــة ومخالطين ، وهذاما يسمّى في علم اللغة الحديث بالحقل الــدلالي SEMANTIC FIELD .

وشاعرنا كشاجم كان من شعراء الحرف ، وفي مرآة شعره تنعكس ألفاظ حرفتي الطبــخ والكتابة على نحو يلفت نظر المتأمل المدقق ، من مثل ذلك قوله في الطبــخ[٦] :

بالحرص في الــرزق يذّل الفتى   والصّبر فيـه الشرف الشامــخ
ومستزيــد في طــلاب الغنــى   يجمــع لحمــا مالــه طــابخ
يضيــع ما نــال بمــا يرتجــي   والنــار قــد يطفئها النافــخ

يريد كشاجم هنا أن يحلّي شعره بالحكمة مستقبحاً التقتير الذي قد يحيل صاحبــه مُنْــدَماً خســران ، ولكنــه لا يستطيع أن يتخلص داخليــاً من أثر حرفة الطبخ ، بل يُبقي رائحته ترشح مــن ألفاظ لا تخرج بعيداً عــن الحقل الدلالي لحرفتــه • فالرزق والحــرص والذل والصبر والتضييع كلمات لا نراها غريبة-أو نائية عن حرفة الطباخ، فضلاً عن أن الشاعر يكشف النقاب عن ملامح حرفته بألفــاظ اللحم والطبخ والنــار والنفخ والاطفاء، يريد أن يزيّن الصبر ويزري بالبخل فيصوغ هذا بلغة الحس، وبالألفاظ ذات الدلالات المــادية ، على حين أن ميدان الحكمة الاقناع وتحريض الذهــن على المحاكمــة وتــدبر منطــق القــول ••

ومن مظاهر إلحاحه على توظيف حرفــة الطبــخ أو الافادة منهــا لغــوياً واستثمار صورها وتأثــيراتها في نفسه قــولــه[٧] :

ولحمــان ممــا امسكتــه كلابنــا   علينــا وممــا صيــد بالشبكــات
طعــام اذا ما شئت باشــرت طبخه   على كثــرة من غلمتي وطهاتي

فهذا الصيد وفّر له ولمن معه طعاماً كــان بمقدوره أن يصفــه فيقــول : شهياً،أو لذيذاً ، أو كثيرا •• كما ألِفنا عند نظرائه من الشعراء ، ولكنه يعدل عن ذلك ويميل إلى الحديث عن حرفتــه في الطبخ ، وكأنه يتلذذ بذكر الطبــخ والطهاة ، أو كان للحرفة عليه حقاً لا معدى عن أدائه •

ويتكرر ذكر المطبخ على نحو آخر يوحي للمتأمّل بأن هناك سبباً خفياً لمعاودة ترداد هذه اللفظة ، كما يُلحظ في هذه الأبيات التي كتب بها إلى صديق بعد رحلة صيد أخرى وفيرة الحصيلة ، يقول[٨] :

واحوزنا من الدرّا ج ما الرحل به ضاقا
فاطعمت واهديت الى المطبخ اوساقا
وخير اللحم ما اقلقه الجارح اقلاقا
فكلْ منه شفاك الله مشويا وامراقا

ومع المطبخ تحتشد دلالات وثيقة الصلة بعالم هذه الحرفة،كطائر الدُراج والاطعام واللحم والجارح والأوساق (جمع وَسْق : مكيلة معلومة وهي ستون صاعاً . أو حمل البعير أو العربة والسفينة)[٩] والشفاء والشواء والامراق[١٠] .. وكرم الطابخ الذي يبدو مُحمَّلاً بالفخر والسخاء .. وتتلون اللغة بألوان الطعام ، ويصطنعها الشاعر على وفق صناعته في الطبخ ، كما في قوله يصف صناعة القطائف (نوع من الحلوى)[١١] :

عندي لأضيافي اذا اشتدّ السّغبْ قطائف مثل قراطيس الكتبْ
كأنه اذا تبدّى عن كَثَبْ كوائر النمل بياضا وثقب[١٢]
قد مجّ دهن اللوز مما قد شرب وابتلّ ممّا عام فيه ورسبْ
وجاء ماء الورد فيه وذهب وغاب في السكّر عينا واحتجبْ

هذا المزج في التشبيه بين القطائف والقراطيس شاهد على ما يقيل في مخيلة الشاعر من صور حرفتي الطبخ والكتابة وأدواتهما ومستلزماتهما التي تتناقلها يداه وتتابعها عيناه . ويتبدى اللون القرطاسي الأبيض في البيت الثاني شبيهاً بكوائر النمل الصغيرة البيضاء . ثم يحشد من ألفاظ مادة صناعته : دهن اللوز ، وماء الورد ، والسكّر .. ويمزجها بألفاظ الابتلال ، والعوم ، والشرب ، والمجّ (الامتصاص) .. التي يستحضرها لتكون عُدّته ، فهي من لوازم الأكل أو الأضياف الذين دعاهم .

وتتسع دائرة هذا الاهتمام الحرفي لتماود الظهور في كثير من طردياته ورحلات صيده الجماعية ، ولكنها تبقى دوائر تحت سيطرة اللغة التي لا تخفيها أقنعة الشعر أو أثوابه المبدّلة ، كما يمكن أن يلحظ المتأمل من قراءة هذه الطردية التي يصف فيها كلاب الصيد ،حيث يقول[١٣] :

توسعنا صيدا فمطبوخٌ ومشويُّ خليطْ
وباشق ذي نخوة على الطيور ذا سخط
يهبط بالطير معا اذا علا ثم انهبط
غدا فاردى حَجَلاً منها ودُرّاجا وبطْ
وفانقا من الاوزّ والحمام والحَبَّطْ

فهذه الوليمة التي مَوّلها با لصيد تفوح منها لغة مشبعة برائحة الطيور ، الطيور باسمها العام الصريح ، وبأنواعها الصائدة والمَصيْدة : الباشق ، والحجل ، والدراج ، والبط ، والاوزّ ،والحمام ، والحبط .. ولكن الشاعر ـ قبل أن يحتقب مادة صناعته ـ يماجلنابمفردات من صميم مهنته كالطبخ والخلط والشواء ، وربما كان الأوفق إرجاؤها لتعقب ذكر الطير والطيور !.

ويماوده ذكر الطبخ في موضع آخر وكأنه ظل يلاحقه ، أو لفظ استعذبه فلا يملّ ترديده ، يقول[١٤] :

لنا شرائح من ظبي قنصناه وعند طبّاخنا جدي قرضناه

ولا يخفى على المتتبع أن يستبطن نزوع الشاعر الخبيء إلى استحضار المفردات التي تظلّ ضمن إطار الحقل الدلالي لحرفة الطبخ : كالشرائح ، والقنص ، والظبي ، والطباخ ، والجدي ، والقرض ، أي القطع بالمقراضين .. فما الذي يبقى من ألفاظ البيت ؟!

ويقول في بيت آخر[١٥] :

اغِثْنا فاننا قد ظَمِئنا ورَوِّنا من الرائق المطبوخ وليكُ معسولا

ولا نجد كبير عناء في تلمس الذائقة الحسيّة المُندسّة في ألفاظ : الظمأ ،

والري ، والرائق ، والمطبوخ ، والمسول • وما شيء منها ببعيد عن دائرة اهتمام محترف الطبخ ••

وتريك تعابيره اللغوية أنه ذو بَصَر طيِّب بتفصيلات أداء حرفته ، وذو شغف ملحوظ بقص أخبارها وأسرارها كما يمكن أن يستخلص القارىء من تأمل هذه الأبيات التي يصف فيها دجاجة، أو طبخ دجاجة ، يقول(١٦) :

دجاجةٌ في سِمَنِ السَّمَنْدِ نبيلة وفخرها بالهندِ
عظيمةُ الزَّوْر كصدرِ نهدِ اجريت منها في مجال العقدِ
مُرْهفةً ذاتَ شبا وحدْ لغير ما ذحل وغير حقدِ
بل رغبة فيها شبيه الزهد ولم تزَل بالماء كفَّ العبدِ
لفرقٍ بين ريشها والجلد وفصلت اعضاؤها من بعدِ
حتى اذا انضجها بالوقد صُبَّ عليها اللوز مثلَ الزبدِ
وغُلِّيتْ بعدُ بماء الورد ثم اتى لنا بها المهدي

والسَّمَنْد : كلمة فارسية الأصل تعني الفرس المائل لونه إلى الصفرة، والمقصود بالمرهفة ذات الشبا : المدية ذات الشفرة أو الحد الشديد القطع ، ومفرد الشَّبا : شَباة ، وتقال للسنان والعقرب • والذَّحْل : الضغينة والحقد الدفين(١٧) • وهذا الاستعراض التفصيلي من شاعرنا يكاد ينطق بسر المهنة ، إذ يتدرجّ الشاعر من وصف الدجاجة بالسِّمَن إلى ذبحها فنتفها فتفصيل أعضائها حتى إنضاجها بالنار ، ثم يصب عليها دهن اللوز ويغليها بماء الورد • ولا يتردد المرء كثيرا في القول: إن شعراً كهذا ينبغي أن يكون قد صدر عن صاحب حرفة ولو لم يُخبَّر بذلك إذ لا يُتصوَّر أن شاعراً اتّباعياً أو رومانسياً أو عاديا يمكن أن يتقصّى مثل هذه التفصيلات أو يشغل نفسه بتقييد خطوات عمل لا يحظى بغير اهتمام الطهاة في الأعم الأغلب !• إن موضوعاً يعج بالفاظ : السمن ، والزور ، والصدر ، والسكين، والريش ، والجلد ، والأعضاء ، والنضج أو الانضاج ، وصب اللوز ، والزُبْد ،والغلي بماء الورد •• يفضي بالقارىء أو يخرج به من مطبخ تلاحقه الروائح والدهون فيوشك على المسارعة إلى الاستحمام ••

ويعرض في قصيدة أخرى لصديقه المدعو الوانا من الأطعمة والبقول والحلوى والمسمّيات مما لا يتسع المجال لايراده تفصيلاً • من ذلك مثلاً[١٨] :

وحرّيف من الجُبْن به الأوساط مقرونة
وباذنجان داراني به نفسك مفتونة
وهليون ، ومهدي بك تستعذب هليونه
ولوزّينَجة في الدهن وفي السكر مدفونة
وعندي لك دستيجة مطبوخ وقنّينة

وتتزاحم في القصيدة ألفاظ : الجدي ، النمنع ، البقل ، الطرخون، الفرخ، الزور ، الطيهوج ، الفرّوج ، السبنّوج، الطروين ، البيض ، الزيتون •• إلخ• وهذا التزاحم الشبيه بسوق الخضار غني عن كل إضافة أو تعليق ! •

وكشاجم كان كاتباً إلى جانب حرفة الطبخ كما قدّمنا ، والمقصود بالكتابة هنا : النسخ والتحبير ، أو الكتابة الديوانية ، لا كما نفهم اليوم من مدلول كلمة الكاتب بصفته الابداعية ، ويمكن أن نستنتج ذلك بيسر ووضوح حين نتأمل الأبيات التالية التي يذكر فيها سكين دواة له سرقت (أي السكين)، يقول[١٩] :

يا قاتل الله كتّاب الدواوين ما يستحلّون من سرق السكاكين
لقد دهاني لطيف منهم ختِلٌ في ذات حد كحد السيف مسنون
فابتزّنيها ولم يُشعَر به عبثاً ولست لو سامني غلِّ بمغبون
واقفرت بعد عمران بموقعها منها دواة فتى بالكتب مفتون
تبكي على مدية اودى الزمان بها كانت على جائر الاقلام تعديني
كانت تقوّم الـلامي وتنحتها نحتا وتسخطها قطّا فترضيني
فاضحك الطرس والقرطاس عن حلل تنوب للعين عن نور البساتين
اذا بَشَرت بها سوداء من صحفي عادت كبعض خدود الخرّد العين

إلى أن يقول :

كانتها حين يشجيني تذكرها في القلب مني وفي الاحشاء تفريني
فلست منها بسال ما حييت ولا بواجد عوضاً منها بسكين

ظاهر القصيدة يوحي بسرد حادثة عارضة هي سرقة سكين ، ولكن مضمون النص الشعري يرشح بظلال العلاقة الانسانية بين الشاعر وأدواته في حرفة الكتابة، أو قل بين الشاعر وعالمه الخاص بين كتّاب الدواوين ، أو بينه وبين عالمه الداخلي • فهذه العلاقة الحميمة ترسم الدلالات اللغوية ملامحها وقسماتها بكثير من الألفة والاحتفاء بها • ومناط هذه العلاقة الحميمة ألفاظ مثل :البكاء، والشجى ، والتذكر ، وافتقاد السلوان والعوض منها ، (والسكين تؤنّث وتذكّر) • ولكن طرفي هذه العلاقة :الشاعر والسكين ، لا يستأثران بألوان الرصيد اللغوي المبثوث في نسيج القصيدة ، ولا تستحوذ السكين على خياله كله ، بل يُفرد بعضَ نَظَرِه وعقله لمكمّلات الصورة الأصل ، وتمدّ الرؤوس كلمات مثل : الدواة ، الكتب والافتتان بها، الأقلام، النحت، القَطّ، الطرس ، القرطاس ، الصحف ••وكلها ألفاظ تنتمي صراحة إلى«الحقل الدلالي» لحرفة الكتابة • والمقصود بالنحت: بري القلم وقشره ، والقَطّ : القطع عامة ، ويتجه في الاستخدام إلى القطع العَرْضي • أما الطرس فهو الكتاب الذي مُحي ثم كتب ، أو الصحيفة• والقرطاس: الورق ، ويرى بعض اللغويين المحدثين أن الكلمة دخيلة من اليونانية بلفظ« خارتس » •

ولعل أبرز ما ينم على أثر حرفة الكتابة في شعر كشاجم قوله في وصف أجزاء القرآن(٢٠) :

وكأن الخطوط فيها رياضٌ	شاكراتٌ لصبغة الأنواءِ
وكأنّ البياض والنقَطَ السو	دَ عبيرٌ رششته في الماءِ
وكأنّ السطور والذهب السا	طع فيها كواكب في سماءِ
وهي مشكولة بعدة أشكا	لٍ ومقروءةٌ على أنحاءِ

إن الخطوط ، والصبغة ، والبياض، والنقط السود ، والسطور، والتشكيل، والقراءة•• مفردات تُصنف بدلالاتها في إطار « فن الكتابة » وأدواتها وأصول إجادة الخط وتحسينه ، وكذلك التذهيب الذي يعني الكتابة بماء الذهب ، ممّا شاع في حرفة الوِراقة • ويُقرن بهذا قوله(٢١) :

لا أحب الدُّويّةَ تحشى يراعا	تلك عندي من الدُّويّ معيبةْ
قلم واحد وجودة خطٍ	فإذا شئت فاستزد أنبوبةْ

هذا الحكم الذي ارتضاه كشاجم في حرفة الكتابة جاء بعد خبرة ودُربة وتجربة جعلته يفضل الاكتفاء بقلم واحد قد يُمزّز بأنبوبة من القصب لبعض الأغراض الكتابية كتخطيط العنوانات والديباجات ، أو « خطبة الكتاب » . والدُّويّ : جمع الدواة (ما يكتب منه) ، وتجمع في القليل على دَوَيات ، مثل نَوَيات وقَنَوات ، جمع نواة وقناة . كما تجمع الدواة على دَوًى ، مثل نوى ، جمع نواة[22] . واليراع: القصب تُتخذ منه الأقلام . والأنبوبة : ما بين العقدتين في القصب والقناة[23] .

ومن الشواهد اللغوية على مدى تأثره بهذه الحرفة قوله يصف تخت الحساب والرمل[24] :

وقلم مداده تراب في صحف سطورها حساب
يكثر فيه المحو والاضراب من غير أن يُسَوِّدَ الكتاب
حتى يبين الحقُّ والصواب وليس إعجامٌ ولا إعراب

ولا يخفى على المتأمل أن النسيج اللغوي الذي حيكت منه هذه الأبيات كان كله ـ ما عدا كلمة الحق ـ من صميم لوازم الحرفة، ومن مفردات الحقل الدلالي الخاص بها ، مما يُظهر مدى تأثير حرفة الكتابة في لغة الشاعر وإمساكها بزمام العقل الباطن له ، حتى ليبدو التعبير اللغوي عنده صدى لايقاعها الداخلي في وعيه ، أو في « اللاوعي » كما يعبر المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس : ففي صَبَوَاته وتعلّقه بمن يحب ، أو بمن يشغله يظل أسير هذه السيطرة الحرفية ، كما يستخلص من قوله في الحب[25] :

ورايته في الطِّرْس يكتب مرّةً فغلطا ويوصل محوه برضابه
فوددت اني في يديه صحيفة ووددته لا يهتدي لصوابه

فالطرس والكتابة والغلط والمحو والصحيفة والصواب هنا ألفاظ تتعاور مشاعره وتندس في هذه العلاقة الانسانية (الحب) كطيور أليفة تحط على كتفيه وتُملي عليه فيكتب .. وعلى غرار ذلك تلاحقه ألفاظ الحرفة في وصف حصانه في إحدى طردياته حيث يقول[26] :

كـــانّ متتنيـــــه اذا ريـع بشخـص فاختلـطْ
احســن ما يُكتَب في الـ قرطـاس من شكـل وخطّ

وما ألفنا في أوصاف الخيل ـ على كثرتها ـ مثل هـذا التشبيه الجديـد ، ولكنه ضرب من أثر لغة الحرفة وأدواتها لم يستطع الشاعر أن يُفلت من إساره، ولعلّه يسوّغ هذا المسلك بقوله(٢٧) :

لـم تَرَني قطّ باريـا قلمـا في بَرْيه مهنـةٌ معـا وضَعَةْ

وكأنه يدافع عن حرفته ويُبرّئها من شبهة المهانة أو الوضاعة اللتين قـد يرميها بهما بعض من كانوا ما يزالون ينظرون إلى الحرف نِظْرة ازدراء ، بل تراه في موضع آخر يتخذها سبيلاً للفخر والمباهاة ، كما في قوله(٢٨) :

سَلْ بـي وبالأيـام تَعرفْ انـي ابن دهـر ليـس يُنصفْ
وبـلاغـــة معـروفـــة سهلتْ واخطـاها التكلّفْ
وســطور خـطٍ مـونـق في الطـرس كالثـوب المفوّفْ

والخطّ المؤنـق : المُعجِب ، مـن الأناقـة . والثـوب المُفَوّف : بُرْدٌ رقيق مخطط . على هذه الصورة تتغيّر تدريجياً النظرة إلى الحرفة ، فتصبح ، بتطور البُنى الاجتماعية ، محل فخر وامتداح ، ويحاول الشاعر أن يقيـم نوعاً مـن المصالحة والوئام بينه وبـين حرفته من جهة، وبينه وبين من لا يرون في اتخاذ الحِرَف اختيـارا حميداً ، أوقـل إن نوعاً من الأُلفة نشأ بينه وبين أدوات هذه الصناعة فراح يتخذ منهـا وسيلة للافتخار في سطور الخط الأنيق يزركش الورق الأبيض ، فيبـدو ذلك الورق مزداناً بالتحاسين كالثوب المفوّف . وشبيه بهذا قوله(٢٩) :

وسطـور خططتهـا في كتـاب مثـل غيـم السحابة الرقراقِ

وتصير حرفة الكتابة أداة للتعريض عنـد الموازنة بينه وبين من يحاول أن يجاريه أو يدانيه في هذا الفن الذي قطع فيـه شأواً بعيداً ، يقول في هـذا(٣٠) :

وزعمتَ انك في الكتابة مُدرِكٌ شَأوي وقلت سـلاحنـا الاقـلام
هيهـات تلك صناعـة ممزوجـة فيهـا صبـاح واضـح وظـلام
هذا الحديـد سلاح أبطـال الوغى وبـه يُريـق دماءنـا الحَجّام

أي لا يكفي أن تحمل الأقلام مثلي لتصير نظيري ، فما كل من حمل قلماً صار كاتبا ؛ إن هذه الصناعة تنطوي على نقيضين : الأبيض كالصباح الواضح الألاّق ، والأسود الحالك المظلم . والحديد كالأقلام ، وكما يستعمله الفرسان في الحروب والمعارك ، كذلك يستعمله الحجّام في الحِجامة (والحِجامة حرفة الحَجّام الذي يمتص الدماء بالمِحْجم ، ولم تكن حرفة حميدة على كل حال) . وشتان ما بين الحجّام والفارس البطل ، كأن الشاعر يريد أن يقول : إنه الفارس المُجلّي في هذا الميدان !؟

ولشدّة شغفه بهذه الحرفة تبدو أشعاره عنها أو فيها ضرباً من التعصّب والانتصار لها ، ويسوؤه ألاّ يحسن بعضهم تقدير قيمتها ، بل قدسية عناصرها ، كما يمكن أن نجد في هذه الأبيات[٣١] :

هددتَ بكسر دفترنا وعهدي بالاديب ثقةْ
فغذّه واردد قيمته ولا تستغنمنْ ورقه
فلست أحب للأبناء أن يتأدبوا صدقة

وقوله في الموضوع نفسه[٣٢] :

ما يكسر الدفتر الا الذي يرغب في قيمة اوراقه
او عاجز لم يستطع نسخه فضاق عن اجرة ورّاقه

وكسر الدفتر هنا : تقطيعه أو تمزيقه ، إمّا لأخذ الأوراق البيض التي لم يُكتب فيها للافادة منها في الكتابة ، وإمّا لأخذ الأوراق المكتوب فيها للافادة بما تضمّنته من مادة معرفية ، ويرى أن الأفضل في مثل هذه الحال الأخيرة أن تنسخ المادة المكتوبة ، وأن يبقى الدفتر كاملاً من غير كسر ، وينمّ هذا على حرص داخلي دفين على التعامل مع عناصر هذه الحرفة بكثير من الاجلال والتقدير ، ولعلّ مما يقوّي هذا الزعم أننا لا نجد شعراء آخرين تناولوا مثل هذا الأمر بالنظم والاهتمام ، لكنّ الشاعر كشاجم مخلص لمهنته ، ممتلىء بها ، حريص على إحاطتها بكل أسباب الرعاية والحماية حرصه على إيصال هذا الشغف بها إلى الآخرين وحضهم على مثل هذا الاهتمام والتملق بها .

وبهذه الجولة القصيرة في شعر كشاجم نكون قد وقفنا على جوانب من الظواهر اللغوية التي رصدناها في شعر الحرفة عند هذا الشاعر ، مكتفين من شواهده بهذا القدر المعبّر عما توخيناه، ويمكن تلخيص هذه الظواهر في الخطوط العريضة التالية :

١ ــ كانت الصدارة في هذا البحث الموجز للألفاظ اللغوية « المفردات » في دلالاتها ومسمّياتها وإيحاءاتها ،وأغفلنا الأسلوب والبلاغة والصورة الشعرية وغير ذلك ممّا يتم بحثه تحت مصطلح الدراسة الأدبية أو النقدية . ولقد استطاعت تلك الحصيلة من المفردات التي استخدمها الشاعر في نظمه الحِرَفي ــ إذا صح التعبير ــ أن ترسم إطاراً عاماً لحرفتي الطبخ والكتابة على ما قررت اللغة ..

٢ ــ بتعبئة هذه الطائفة من المفردات ونَسْقها في قصائد أو أبيات استطاع الشاعر أن يرسم صورة أو لوحة لطبيعتي الحرفتين مفيداً من خلال الدلالات وإيحاءاتها وتوظيفاتها ، مما جعلنا نكوّن فكرة كافية عن الحرفة في إطارها الاجتماعي ، وعن علاقة الشاعر بها ، وعن أدواتها وموادها الأولية .

٣ ــ يمكن الالماح إلى أن قدرا قليلاً من المصطلحات قد تخلل الشواهد الشعرية المنتقاة ، وخاصة في حرفة الكتابة ، كالنحت والقَطّ وبشر الصحيفة والنَّقْط والاعجام والمحو والتشكيل والاعراب والتذهيب والتوريق .. مما يعطي فكرة كافية عن شيوع هذه المصطلحات واستقرارها .

٤ ــ تبين من استقراء الشواهد الشعرية أن قدرا من الكلمات الدخيلة قد شاب عربية الشاعر الفصيحة ،وخاصة في مفردات مهنة الطبخ ، كالباذنجان واللوز والباشق والسَّمَنْدو الهليون واللّوزينج (نوع من الحلواء) والدستيج (وعاء يحمل باليد) والدواوين والبساتين .. وكلها من اللغة الفارسية مما ينبىء عن أثر الحياة الاجتماعية للفرس في اللغة والمجتمع العربيين إثر اختلاط الشعبين : العربي والفارسي بعد الاسلام . ويستخلص من استعراض

مفردات الشاعر أنه كان أميل إلى استخدام المسمّيات والمعاني المادية الحسية التي كان لها الغلبة على الألفاظ الذهنية المجرّدة ٠

☆ ☆ ☆

□ الحواشي والاحالات :

١ ـ انظر ديوان الشاعر كشاجم ، ص ٢ـ٣ ، طبع في بيروت بالمطبعة الانسية سنة ١٣١٣ هـ ٠

٢ ـ مقدمة ابن خلدون : ٤٠٢ ، دار احياء التراث العربي ط ٤ ، بيروت ٠

٣ ـ انظر « ادب الصناع وارباب الحرف » ، ص ٣٨ وما بعدها ، للدكتور محمود سالم محمد ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٣ ٠

٤ ـ السابق ، ص ٤٠ـ٤١ ٠

٥ ـ لمزيد من الاطلاع انظر المرجع السابق ، ص ٣٨ وما بعد ٠

٦ ـ ديوانه ، ص ٣٧ ٠

٧ ـ نفسه ، ص ١٩ ٠

٨ ـ نفسه ، ص ١٢٩ـ١٣٠ ٠

٩ ـ المعجم الوسيط : وسق ، دار احياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ـ لبنان ٠

١٠ـ الإمراق : إكثار المَرَق ، وهو الماء المغلي فيه اللحم فصار دسما ٠

١١ـ ديوان كشاجم ، ص ١٠ ٠

١٢ـ قنب الشيء واللون : توهج واشتدت حمرته ، ومنه عود القنّاب ٠

١٣ـ الديوان ، ص ١١٥ ٠

١٤ـ الديوان ، ص ١٨٢ ٠

١٥ـ الديوان ، ص ١٨٥ ٠

١٦ـ الديوان ، ص ٥١ ٠

١٧ـ في الديوان المطبوع : « الفي ما دخل » ، والصحيح ما اثبتناه بقرينة لفظ العقد المرادفة للدّاخل ٠

١٨ـ الديوان ، ص ١٧٩ ٠

١٩ـ الديوان ، ص ١٧٤ـ١٧٥ ٠

٢٠ـ الديوان ، ص ٧ ٠

٢١ـ الديوان ، ص ٩ ٠

٢٢ـ انظر : الاقتضاب في شرح ادب الكتاب لابن السيد البطليوسي ، ص ٨٢ ، دار الجليل ـ بيروت١٩٧٣ ، واللسان : دوا ٠

٢٣ـ اللسان : نيب ٠

٢٤ـ الديوان ، ص ١١ ٠

٢٥ـ الديوان ، ص ١٣ ٠

٢٦ـ الديوان ، ص ١١٤ ٠

٢٧ـ الديوان ، ص ١٢٣ ٠

٢٨ـ الديوان ، ص ١٢٨ ٠

٢٩ـ الديوان ، ص ١٣١ ٠

٣٠ـ الديوان ، ص ١٩٠ ٠

٣١ـ الديوان ، ص ١٣١ ٠

٣٢ـ الموضع السابق ٠

☆ ☆ ☆

العرب يصنّفون معارفهم بالشعر

د. عادل الفريجات

نقصد بالتأليف بالشعر عند العرب نَظْمَ الكتاب او المصنّف شعراً ، سواء كان هذا الكتاب لغويا اونحويا ، او صرفيا ، أو عروضيا،او بلاغيا ، أو ادبيا قصصيا ، او فقهيا ، او زراعيا ، او ملاحيا ، او فلكيا ، او رياضيا ، او كيميائيا ، او طبيا، او تاريخيا ٠٠٠

والحقيقة اننا سنعاين فيما يلي من هذه الدراسة آثارا شعرية تتصل بكل علم من العلوم السابقة ٠ وربما نذكر نتفا من الأشعار التي كانت قوام كل مؤلف أو مصنف للتدليل والتمثيل ٠

وقد كان العرب ، وما زالوا ، أمة الشعر ، فالشعر كان ، منذ الجاهلية ، ينثال على كل لسان أو يكاد،وكانت العرب تعلي شان الشاعر أيّما إعلاء ، فقبائلهم حين ينبغ فيها شاعر «تأتي القبائل لتهنئتها،وتصنع الأطعمة، وتجتمع النساء ليلعبن في المزاهر ، كمايصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذبٌ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم » ٠ (العمدة ١ : ٦٥) ٠

إن الروح الشعرية الطاغية قد ضربت جذورها في أعماق النفس العربية ، ثم سرت في دماء العرب عامة ، فآلت بالشعر إلى أن يحتل مكانةً سامية في النفوس والعقول معاً ، حتى إن بعض المصنّفين والعاملين في ميدان التأليف

والبحث لم يتردد في التباهي بموهبته الشعرية، فسخّرها للتأليف والتصنيف، وراح ينظم بعض معارفه شعراً، وخاصة تلك التي برع فيها وتعمّقها وأحصاها، وذلك تغليباً لرونق النظم وظلّه الخفيف، على جفاف النثر وظله الثقيل، ورغبة في تسهيل حِفْظ ما يُرى نفع في حفظه، فرواية الشعر المضطرب الوزن، تذكّر القارىء أو السامع، بأن خللاً فيه قد وقع فيتدارك ما اختلّ، ويتذكّر ما سقط، ويصحح ما جاء فاسداً ٠٠٠ فتأتي المعلومة صحيحة وكاملة ومضبوطة.

والأمثلة على ما تقدم كثيرة، بل وكثيرة جداً، ففي ميدان اللغة، وهو ميدان صال فيه العرب وجالوا، واستأثر بالجم من جهودهم الفكرية، نقع على منظومة في « غريب اللغة وشرحه » لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨ هـ) عنوانها « قصيدة في مُشْكل اللغة » نشرها الأستاذ عز الدين البدوي النجار في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٦٤، ج ٤، عام ١٩٨٩ م)، وقد افتتح أبو بكر الأنباري قصيدته بقوله :

يا مُدَّعِي عِلْمَ الغريبِ والقريضِ والمَثَلْ
مُقْ جوابي : ما القزيحُ والشَّقيحُ والألَلْ

ويجيب الأنباري نفسه عن سؤاله شارحاً : « قال أبو عبيدة : القريض هو القصيدة من الشعر خاصة دون الرجز والقزيح فيه قولان ٠ قال أبو بكر : القزيح : المليح ٠ تقول العرب : مليح "قزيح" ٠ وقال آخرون : القزيح : العجيب ٠ قال أبو بكر : والشقيح : القبيح، يقال قبيح" شقيح" ٠ والألَل: قال أبو عمرو : البَرْق » ٠ ثم يضيف الأنباري في قصيدته :

وما العِمار والعَمار والخَبار والسَّفَلْ ؟

ويمضي شارحاً بعده الكلمات التي ساقها في البيت، معتمداً في ذلك على أئمة اللغة، كصنيعه في البيتين السابقين ٠

ولم تكن قصيدة أبي محمد بن القاسم الأنباري فريدةً في بابها، فقد ذكر ابن النديم (٣٨٤ هـ) في «الفهرست» تحت عنوان : (القصائد التي قيلت في

الغريب) : « قصيدة الشرقي بن القطامي » و « قصيدة موسى بن حرنيد » و « قصيدة يحيى بن نجيم » و « قصيدةالأبراري » و « قصيدة شبل بن عزرة » و « قصيدة أحمد الأنباري » (الفهرست ص ١٩٦) ٠

وفي كتب فهارس المخطوطات نطالع إشارات إلى مخطوطات شرحت قصائد في اللغة ، مثل : « شرح مثلث قطرب » (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) لمجهول ٠ ومثل شرح منظومة ثعلب المسمى « الموطأ في اللغة » وقد نهض به عبد الوهاب بن الحسن بن بركات المهلبي (٦٨٥ هـ) وأولها بعد البسملة :

يا مُولَعاً بالغَضَبِ والهَجْرِ والتجنّبِ
حُبُّكَ قد برَّحَ بي في جِدِّهِ واللعبِ

(انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، علوم اللغة العربية ص ٩٧ ، ٩٨) ٠

وذكرت كتب التراث أيضا ،أن لابن مالك النحوي الطائي (٦٧٢ هـ) أرجوزة في ثلاثة آلاف بيت بعنوان (الاعلام بمثلث الكلام) ٠ وفيها ذكر الألفاظ التي لكل منها ثلاثة معان باختلاف حركاتها(انظر مقال رزوق فرج رزوق:« الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية»في مجلةالمورد العراقية مج١٩،ع١،ص٢١٦) ٠

وفي ميدان النحو الذي حظي هو الآخر بحفاوة بالغة من ذوي الهم العلمي عند العرب ، نطالع لجمال الدين محمدبن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي ، وهو من أعظم نحاة القرن السابع شهرة،وقد ذكرناه من قبل ، نطالع قواعد النحو العربي وقد نُظِمت في ألف بيت ٠ وعرف هذا العمل فيما بعد بـ « ألفيّة ابن مالك » ٠ وكانت هذه الألفية خلاصة نحوية مركزة ظفرت بشرح أكثر من أربعين عالماً ٠ وفي هذه الألفية يقول ابن مالك في باب الكلام وما يتألّف منه مثلاً:

كلامُنا لَفْظٌ مُفِيدٌ فاستقِمْ واسمٌ وفِعْلٌ ثم حرفٌ الكَلِمْ

ونقرأ له في باب (المبتدإ والخبر) قوله :

مبتدأ زيدٌ ، وعاذِرٌ خَبَرْ إنْ قُلْتَ:زيدٌ عاذرٌ مَنِ اعتَذَرْ

وكذلك نراه يجمع (إنّ)وأخواتهاوعملها ، الـذي يخالف عمل (كـان) وأخواتها ، في قوله :

لأنَّ إنَّ ليتَ لكنَّ لَعَلْ كانَّ،عَكْسُ ما لِ (كانَ)مِنْ عَمَلْ

ومن الكتب النحوية المهمة التي نُظِمت شعراً « الآجرُّومية » وهي مقدمة في النحو الّفها أبو عبد الله محمدبن محمد بن داود بن آجرّوم الصنهاجي (٧٢٣هـ) • وكان فقيهاً ونحوياً ولغوياً ومقرئاً وشاعراً • ولم يكن في أهل (فاس) في وقته أعلم منه في النحو •وقد نظم (الآجرّومية) ميمون الفخار ، والمغربي الفاسي ، ومحمد نووي •واسمكتاب النووي هذا « النفحة المسكية في نظم الآجرّومية » ، وشرف الدين يحيىبن موسى العمريطي (٩٨٩ هـ) الذي سمّى كتابه « الدرّة البهيّة في نظمالآجرّومية » (وهو مطبوع ضمن مجموعة من المتون بما في ذلك الآجرّوميةذاته ، بعناية أحمد سعيد علي ، بالقاهرة عام (١٩٤٩ م) •

ونَظَمَ « الآجرّومية » أيضاً عبدالله بن الحاج الشنقيطي (١٢٠٩ هـ) • وللشنقيطي هذا مؤلفات عدة ، أغلبها منظوم ، منها مثلاً : نَظْمُ كتاب مختصر الخليل ، ونظم الخزرجية في العروض ، ونظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني•ومن أمثلة نَظْمِ الشنقيطي للآجرّومية قوله:

قالَ عُبَيْدُ ربِّهِ مُحَمَّدُ — اللهُ في كلِّ الأمورِ أحمدُ
مُصليّا على الرسولِ المُنْتَقى — وآلهِ وصَحْبِهِ ذوي التُقى
والبعدُ والقَصْدُ بذا المنظومِ — تسهيلُ منثورِ ابنِ آجرّومِ

وفي باب الاعراب يقول :

الاعرابُ تغييرُ أواخِرِ الكَلِمْ — تقديرا او لفظا فذا الحدّ اغتنمْ
وذلكَ التغييرُ لاضطرابِ — عواملِ تدخلُ للاعرابِ
اقسامُه اربعةٌ تُؤمُّ — رَفْعٌ ونَصْبٌ ثم خَفْضٌ جَزْمْ

فالأوّلان دونَ رَيْبٍ وَقَعا في الاسمِ والفعلِ المضارعِ معا
فالاسمُ قد خُصِّصَ بالجرّ كما قد خُصِّص الفعلُ بِجَزْمٍ فاعلما

(انظر مقال الأستاذ خليفة بديري : نظم متن الآجرومية في مجلة كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس ، العدد ٦ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣) ٠

وكذلك نظم السيوطي (٩١١ هـ) ألفيةً في النحو سماها (الفريدة) ٠ وهي مطبوعة ٠ ولها شرح بعنوان « المطالع السعيدة في شرح الفريدة » ٠

وإذا تركنا النحو ، وانتقلنا إلى علم الصرف ، وهو علم يهتم ببنية الكلمة العربية وبأوزانها ومجردها ومزيدها ، وإبدالها وإعلالها ، وجامدها ومشتقها ، وقعنا على أمثلة كثيرة من نظم (الصرف)، منها مثلاً « قصيدة أبنية الأفعال » التي نظمها ابن مالك صاحب الألفية النحوية المشار إليه سابقاً ٠ وهذه القصيدة التي تسمى أيضاً بلامية الأفعال شرحها ابن الناظم ذاته ، واسمه بدر الدين محمد بن محمد (٦٨٦ هـ) ٠ وقد جاءت القصيدة على البحر البسيط ، وتقع في (١١٤) بيتاً ٠ ونشر شرح الابن عليها الدكتور ناصر حسين علي بدمشق عام ١٩٩٢ م بعنوان « زبدة الأقوال في شرح قصيدة أبنية الأفعال » ٠

وإذا طالعنا كتاب (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ـ علوم اللغة العربية) نقع على منظومة صرفية أخرى بعنوان « الترصيف في التصريف » نظمها عبد الرحمن بن عيسى العمري المرشدي المكي (١٠٣٧ هـ) وأولها :

أفضل ما إليه تصريف الهِمِمْ بحُسن حمدِ الله وهّاب النِّعمْ

وتقع هذه المخطوطة في (١٢) ورقة ورقمها ١٠٨٥٩ (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية ـ علوم اللغة العربية ص ٤٥٧) ٠

وقد ألّف ناصيف اليازجي اللبناني المعاصر كتاباً سماه « الجمانة في شرح الخزانة » ٠ وهذا الكتاب هو أرجوزة في علم الصرف أسماها (الخزانة) ، ثم علّق عليها شرحاً لها سمّاه « الجمانة » ٠

وطبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٧٢ م ٠ يقول ناصيف اليازجي في فاتحة كتابه مثلاً :

اقــول بعــد حمــد ربٍّ محسنٍ لا عــلم لي إلاّ الــذي علـّمنــي
قــد اصطنعت هــذه الخــزانـه حاويــة مــن شرحهــا الجمانــه
جعلتها في الصرف مثـل القطبِ فقـُلـت والله الكريـم حسـبي

ثـم قـال :

الصرف عِلـم باصول تعرف بهـا مبـاني كـَلِـم تـصـرّف
والأحرف التي ابتنت منها الكلِم إلى صحيـح وعليـل تنقسـم
واحـرف العِلـّة واو والِـف والياء والباقي بصحة وصِـف
وتشـرك الهمزة حـرف العلـّه فتلـك بَـينَ بَـين في المحلـّه

وفي مجال علوم اللغة العربية الأخرى كالبلاغة وفروعها ، كعلم المعـاني ، والبيان ، والبديـع ، يمكن المـرء أن يشير إلى جهود ابن الشحنة (٨١٥ هـ) واسمه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن أيوب الحلبي الذي ألّف منظومة في علم المعاني والبيان والبديع ، وقـد شرح هذه المنظومة محمد بن تقي الدين أبو بكر الحموي الدمشقي المحبي (١٠١٠ هـ) . ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة تقع في (٦٨) ورقة في دار الكتب الظاهرية (انظر فهرس مخطوطـات دار الكتب الظاهرية ـ علوم اللغة ص٣١٩ ـ ٣٢٠) .

وكذلك ألّف السيوطي (٩١١ هـ)قصيدة أسماها « عقود الجمان » وهي في علمي المعاني والبيان ، وقـد شرحهـا بنفسه . ومن هذا الشـرح نسخة بـين مخطوطات الظاهرية (انظر فهرس مخطوطـات دار الكتب الظاهريـة ـ علـوم اللغة ص ٣١٦) .

كما يمكن المرء أن يشـير في مجال البديع وحده إلى منظومة للشيخ الامام زين الدين يحيى بن معطي المغربي الزواوي (٦٢٨ هـ) جمع فيهـا شواهـد البديع من أشعار المبرزين من الشعراء ،وذلك بأن حدّد نوع البديع ، ثم أعطى الشاهد عليه ، وأولها بعد البسملة :

يقول ابن معط قلت لا متعاطيا مقالة مَن يرجو الرضى والتعاطيا

ومن هذه المنظومة نسخة في دار الكتب الظاهرية تقع في ٩ ورقات ضمن مجموع عدد أوراقه ٢٧ ورقة انظر(الفهرس المذكور سابقاً ص ٢٠٨) ٠

وفي مجال العروض مر بنا ذكر نظم الشنقيطي للخزرجية في العروض قبل قليل ٠ ونطالع في فهارس المخطوطات آثاراً أخرى في هذا الفن ، منها منظومة في العروض لمحمد بن الحسن الحسيني الشافعي الهروي (٦٧٦ هـ) أولها بعد البسملة :

أحمدُ مَن صلّى على محمدِ وآلـه نجومِ كلِّ مُهتدِ

وهي من مخطوطات الظاهرية ، وقد كتبها ناظمها نفسه ٠ وتقع في أربع ورقات ـ (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية ـ علوم اللغة ص ٤٤٠) ٠

وأشار صاحب « معجم المؤلفين » إلى أن إبراهيم بن عبد الله بن جمعان اليمني الزبيدي (١٠٨٣ هـ) قد ألف مقطوعة في العروض سماها (آية الحائر) ـ (انظر معجم المؤلفين ١ : ٥) ٠ وبين مخطوطات الظاهرية مخطوطة بعنوان « هالة العروض » وهي أرجوزة نظمها محمد صالح بن أحمد بن سعيد المنير الدمشقي (١٣٢١ هـ) ٠ قدم بها لعلم العروض وتناول فيها الزحافات والعلل والأبحر والدوائر العروضية ، وختمها بألقاب الأبيات ، أتم نظمها في (الأستانة) في شعبان سنة ١٢٩٩ هـ ، وأولها بعد البسملة :

يقول صالح بن أحمدَ السري القدوةُ المشهورُ بالمُنيرِ

وهي نسخة بخط ناظمها ، وتقع في (٨) ورقات (انظر فهرس علوم اللغة المذكور ص ٤٤٢) ٠

وفي ميدان الأدب القصصي جرّب (أبان بن حميد اللاحقي) ، وهو شاعر إسلامي من أهل البصرة ، جرّب قدرته في النظم في صياغة كتاب كليلة ودمنة شعراً ٠ وقد استغرق نظمه لهذا الكتاب ثلاثة أشهر ٠ وبلغت أشعاره (١٤) ألف بيت ، وقدمه إلى يحيى بن خالد البرمكي، فكافأه هذا عشرة آلاف دينار ٠

ونجد في كتاب (الأوراق) للصولي (٣٣٥ هـ) من هذا النظم ما يربو على (٨٠) بيتاً ٠ وأول ذاك النظم قول أبان اللاحقي :

هـذا كتابُ أدبٍ ومحنهْ   وهو الذي يُدعى كليلة ودِمْنهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رشدُ   وهو كتابٌ وضعته الهِندُ

ومن نظمه مثلاً في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة :

وإن مَن كان دنيءَ النفسِ   يرضى من الأرفعِ بالأخسّ
كمثلِ الكلب الشقيّ البائسِ   يفرح بالعظمِ العتيقِ اليابسِ
وإن أهل الفضلِ لا يرضيهمُ   شيء إذا ما كان لا يرضيهمُ

وذكر الصولي أيضاً أن « أباناً »هو الذي عمل القصيدة (ذات الحُلَل) ، وفيها ذكر مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق ، وغير ذلك ، وهي قصيدة مشهورة ٠ ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية ، والصحيح أنها لأبان ٠ (انظر كتاب الأوراق للصولي ،تحقيق ج. هيورت، بيروت، ط٢/١٩٧٩، ص١ و ص٤٦ ـ ٤٨) ٠

وقد نظم « كليلة ودمنة » أيضاً (ابن الهبّارية) (٥٠٤هـ) وهو الذي نظم أيضاً كتاب (الصادح والباغم) ٠ومن ناظمي كتاب الفيلسوف الهندي ، محمد الجلال ، وعبد المنعم بن حسن وعلي بن داود كاتب زبيدة ـ زوج الرشيد ، وجلال الدين النقاش من القرن التاسع الهجري ٠

وفي مجال الفقه الاسلامي نظم محمد بن علي الرحبي ، (المتوفى سنة ٥٧٧هـ) ارجوزة في أحكام الارث الاسلامي،وعرف كتابه بمتن الرحبية نسبة إليه ٠ وقد شرح هذا المتن كثيرون من العلماء ، منهم: أبو بكر أحمد السبتي ، وجلال الدين السيوطي ، وعبدالقادر الفيومي ، ومحمد بن صالح الغزي ، ومحمد بن محمد الماريني ، وشرح هذا الأخير مطبوع ٠وكذلك شَرحَ الرحبية محمد بن خليل ابن خليون وسمى شرحه : (تحفة الاخوان البهية على المقدمة الرحبية) ٠ وقد حقق هذا الشرح الأستاذ السائح علي حسين ، وطبعه في طرابلس بليبيا عام ١٩٩٠ م ، تحت عنوان (التحفة في علم المواريث) ٠ وفي أسباب الميراث نقرأ قول الرحبي : (التحفة في علم المواريث ص ٨٥) :

أسبـاب ميراث الـورى ثلاثـه   كـلٌ يفيـد ربـّه الوراثـه
وهـي نكـاح وولاء ونسَـب   ما بعدهـنّ للمواريث سَبَـب

ويقول في موانع الارث (التحفة ص٨٩) :

ويمنـع الشخصَ مـن الميـراثِ   واحـدة" مـن عِلـلٍ ثـلاثِ
رق" وقتـل واختـلاف ديـنِ   فافهـم ، فليس الشـك كاليقينِ

ويقول في باب أصحاب الثُمُن (التحفة ص ١٠٢) :

والثُمُنُ للزوجـةِ والزوجاتِ   مـع البنـين أو مـع البنـاتِ
أو مـع اولادِ البنـين فاعلـمِ   ولا تظنّ الجمـعَ شرطـا فافهَمِ

ومن الكتب القريبة من الفقـه والشرع وصلتنا كُتب تعالج قضية الامامة في الاسلام منذ وفـاة الرسول (ﷺ) إلى عصر كاتبها . ومن تلـك الكتب كتاب بعنوان (الارجوزة المختـارة) للقاضي النعمان (٣٦٣هـ) . وقد حققها إسماعيل قربان حسين ، ونشرها ضمن منشورات معهد الدراسات الاسلامية في (مونتريال) بكندا . وهـذه الأرجوزة تلقي ضـوءاعلى موقف الفرق المختلفـة من قضيـة الامامة والأدلة التي قدمتها كل فرقة ،وتمدّ هذه الأرجوزة التي ألّفت في أيام الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله من أقدمالنصوص الفاطميـة في الامامـة ، وفي مطلعها يقول الناظم مثلا :

الحمـد" لله بديـع" مـا خلـق   عن غـير تمثيلٍ على شيء سبق
بـل سَبَقَ الأشيـاء فابتداهـا   خلقـا كمـا أراد إذ بَـراهـا

ومن كتب الفـرق المنظومة شعرا «القصيدة الصورية» التي ألّفها الداعي الاسماعيلي الأجل محمد بن عليبنحسنالصوري ، وحقّقها عارف تامر،ونشرها في نطاق منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشـق عام ١٩٥٥ م . وهي كما قال ناشرها :

« أقدم المصادر عن الاسماعيلية ،ومن أهم الرسائل التي تنطق بالحقائق ، وتمثل العقائد أصدق تمثيل ، ومن أحسن المراجع في تاريخ قصص الأنبياء وعدد الأئمة المنحدرين من الامام علي بن أبي طالب حتى الامام المستنصر بالله الفاطمي.. ولذلك كانت تتناقلها الدعاة ويحافظون على سريتها وعدم تسربها ، وليس بالغريب إذا قلت إن أكثرهم كان يحفظها غيباً بالنظر لاعتمادهم على بيانها الرائع وأصولها وفروعها ، ومتانة أسلوبها وترتيبها » ·

ومؤلف هذه القصيدة هو محمد بن علي بن حسن كانت مدينة (صور) مسقط رأسه،لذا نُسِبَ إليها،وقد عاش ردحاً في (طرابلس) داعية للفاطميين ، وقام بالرحلة في طلب العلم والحديث ·وقيل إنه سمع بالكوفة من أربعمئة شيخ، وهبط القاهرة في عهد الامام المستنصر بالله الفاطمي · واستوطن بغداد سنة ٤١٨ هـ ، وقد توفي فيها سنة ٤٤١ هـ ·

والحقيقة أن هذه الأرجوزة الاسماعيلية ليست الوحيدة في تراثنا · فقد شاعت الأراجيز في العهود الفاطمية ، واستعملت للدعاية وللتعبير عن الموضوعات الفلسفية والتعاليم العقائدية ـ (انظر ص ١٧ من القصيدة الصورية) ، ولكي نعرف طريقة هذه المنظومات نسوق هنا مطلع القصيدة الصورية ، وهي في باب القول بالحمد والاستفتاح (ص ٢٣) :

الحمد لله مُعِلِّ العِلَلِ	ومبدع العقل القديم الأزلِ
ابدعه بأمره العظيمِ	بلا مثالٍ كان في القديمِ
وصيَّر الأشياء في هويته	مجموعة باسرها في قدرته
فهو لها أصل كريم يجمعُ	فمنه تبدو وإليه ترجعُ
سبحانه من ملكٍ ديّانِ	العقل والنفس له عبدانِ
جلَّ عن الادراك في الضمائرِ	والوصف بالاعراض والجواهرِ

وفي مجال الفلاحة ، نقرأ لسعد بن أحمد بن ليون التجيبي (٧٥٠هـ) أرجوزة تشمل (١٣٠٠) بيت · نشرها في غرناطة،عام ١٩٧٥ (جواكينا أجوارس أبانيث).

وقد كان ابن‌ليون التجيبي عالما موسوعيا له وَلَع" باختصار الكتب ، وتتلمذ على يديه في (المرية) من أعلام الأندلس ابن خاتمة الأنصاري ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن جعفر بن الزبير ، وابن‌رشيد الفهري • وسمى (ابن ليون) أرجوزته « كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة » • وقد عددّ المؤلف في كتابه هذا أركان الفلاحة شعراً ، فكانت حسب قوله :

هي الأراضي والمياه والزبولُ ... والعمل الذي بيانه يطولُ

ونراه يشير إلى الأرض وما يحفظها أو يفسدها ، فيقول مرتجزاً :

الفول والترمس والكتانُ ... تحفظ الأرضَ وكذا الجلبانُ

والدخن مُضعِف لها والجلانْ ... وما يكرّر بها كل زمانْ

ووَرَقُ الحِمّص والكرسنّهْ ... مُفسِدةٌ للأرضِ بالملوحهْ

ونجده يشير في موضع آخر إلى أعمار الثمار والنبات في نظره ، فيقول معتمداً على أقوال (ابن بصّال) و (الطغنري)،وهما عالمان في الزراعة أيضاً:

وعمرُ الزيتون مِنْ عدّ السنينِ ثلاثة آلافٍ حينٌ بعدَ حينِ

وفي الصنوبرِ عن ابنِ بصّال ... بمئتي عامٍ يقول استكمال

والطغنري قد قال : ما لا يسقطُ ... ورقُهُ ، اعمرُ مما يسقطُ

وأكثرُ الثمارِ يبلغ المائهْ ... أو نحوها ، وقد تزيد تبقيهْ

وكل ما في النشء منها يسرعُ ... فعمرُهُ اقصره لا يتّسعُ

(انظر مقال أمين توفيق الطيبي فيمجلة كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس: كتب الفلاحة الأندلسية ـ ارجوزة ابن‌ليون في الفلاحة العدد ٥ ، ٦ ص ٣٥٤ فما بعدها) •

وفي مجال الملاحة يقع الباحث علىأراجيز كثيرة ، فيطالع لابن ماجد (المتوفى بعد ٩٠٤ هـ) الملقّب بأسدالبحر الذيأرشد قائد الأسطولالبرتغالي

(فاسكو داغاما) في رحلته لاكتشاف طريق الهند من خلال رأس الرجاء الصالح ، أرجوزة، اسمها «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» • وقد نشر هذه الأرجوزة الأستاذ إبراهيم خوري بدمشق ضمن منشورات المعهد العلمي الفرنسي • يقول ابن ماجد في تقديم أرجوزته :

يا أيها الطالبُ علمَ اليمّ ... إليك نظماً يا له من نَظمِ
في العلم والهيئة والحسابِ ... وما هو استنبط للصوابِ
إن كنتَ ممن جدّ في العلومِ ... وذاكر الأستاذ كلّ يومِ
يغنيك عن رهمانجات النثرِ ... هذا الذي نظمتُه بالشعرِ

وفي ميدان الرياضيات يمكن أن نشير إلى أرجوزة (ابن الياسمين) في الجبر والحساب • وابن الياسمين هو عبدالله بن الحجاج المعروف بابن الياسمين • وهو من أهالي (فاس) • وقد أفرغ علمه في هذه الأرجوزة الشهيرة ، وتوفي ابن الياسمين عام (٦٠٠هـ) • وقد ابتدأ ابن الياسمين بوضع تعريف شامل وهام لمجال علم الجبر ، فقال :

على ثلاثة يدور الجبرُ ... المال والأعداد ثم الجَذْرُ

ثم عرّف المقصود بالمال في البيت الثاني ، فقال :

فالمال كلُّ عددٍ مربَّعِ ... وجذرُهُ واحد تلك الأضلُعِ

والعدد عند (ابن الياسمين) هو الشيء ، أو العدد المجهول ،ومربعه هو الكمال • وفي بعض أبيات الأرجوزة يقول :

وضربُ كلّ زايدٍ وناقصِ ... في مثله زيادةٌ للفاحصِ
وضربُه في ضدّهِ نقصانُ ... فافهمْ هداكَ الملكُ الديّانُ

وقدم الأستاذ بديع الحمصي بحثاً عن ابن الياسمين وأرجوزته هذه في الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب في نيسان عام ١٩٧٩م • وفي الظاهرية بدمشق سبع نسخ للأرجوزة وشروحها • ويذكر الأستاذ محمود

الصغيري أن باليمن في (زبيد) تحتفظ المكتبات الخاصة بعشرات النسخ من هذه الأرجوزة .

انظر (قضايا في التراث العربي ـ لمحمود الصغيري ، دمشق ١٩٨١ م ص ١٥٥) .

وفي ميدان العلوم التطبيقية كالكيمياء والطب والصيدلة حَفِل تراثنا العظيم بأراجيز كثيرة جداً ، تناولت المعارف التي تنتمي إلى هذه العلوم . ففي مجال الكيمياء ربما كان ديوان الأمير العالم الشاعر الأموي خالد بن يزيد (٩٠ هـ) واسمه « الصنعة » هو أقدم ما أُلِّف شعراً في علم الكيمياء . وربما أهَّلَ هذا الديوان صاحبه لأن يوصف بأنه الشاعر التعليمي الأول في التراث العربي . وقد ذكر حاجي خليفة هذا الديوان فقال يصفه :

(فردوس الحكمة في علم الكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الأمير الحكيم . منظومة في قوافٍ مختلفة وعدد أبياتها ألفان وثلاث مئة وخمسة عشر بيتاً، أولها:

الحمدُ لله العليِّ الفردِ ... الواحدِ القهّار ربِّ الحَمْدِ

يا طالباً بوريسطس الحكماءِ ... خُذْ منطقاً حقاً بغير خفاءِ

(كشف الظنون ١٢٥٤ ـ ١٢٥٥)

ويمكن أن نضيف إلى هذا الديوان، ديواناً آخر لأبي الحسن علي بن موسى الأنصاري المعروف بابن أرفع رأس (٥٩٣هـ) اسمه « شذور الذهب في صناعة الكيمياء » . وهو ديوان شعري مرتب على الحروف ، شرحه أيدمر بن علي الجلدكي وسمى الشرح « غاية السرور »، وخمَّسه شرف الدين محمد بن موسى القدسي الكاتب (المتوفى سنة ٧١٢ هـ) تخميساً حسناً ـ (انظر كشف الظنون ١٠٢٧) . وقد أضاف الأستاذ رزوق فرج رزوق أن عدد منظوماته في مخطوطة جامعة برستن بالولايات المتحدة ٤٣ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٨٧ بيتاً . وعدد منظوماته في مخطوطة كلية الآداب بجامعة بغداد ٤٢ منظومة يبلغ مجموع أبياتها ١٤٣١ بيتاً . (انظر مجلة المورد ـ بغداد ١٩٩٠ ـ مج ١٩ العدد الأول ص ٢١٣) .

ومن المعروف أيضاً أن الرازي أبا بكر محمد بن زكريا (٣١٣ هـ/٩٢٥م)

ـ (جالينوس العرب) ، وهو من أكابر الكيميائيين والأطباء العرب، نقل (كتاب الآس) لجابر إلى الشعر ، وله قصيدة في المنطقيات ، وقصيدة في المغلة اليونانية (الفهرست ط تجدد ـ ص٣٥٩) ٠ وله أيضاً أرجوزة في الطب ذكرتها هيا محمد الدوسري في كتابها «فهرس المخطوطات الطبيــة المصورة ـ الكويت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧» أولها :

الحمــد لله الـذي بَـرانـا وركـّب العقـول والأذهانـا
ومَـنّ بالسّمـاعِ والابصـارِ يهـدي لهـا مـن ذا اعتبــارِ

وآخرهـا :

امـا لـــه مُعتبـرٌ في نفسـهِ كيـف يصيـر جسمـه في رمسهِ
بعــد النعيـمِ جيفـةً نتينـهْ ونفسـه بمـا جَنَـت رهينـهْ
حتــى تؤديـه إلى دار البقـا والخلـدِ إمـا في نعيـمٍ او شقا

وقد نسخت هذه الأرجوزة عام ١٠٥٤ هـ ، وتقع في ٨ ورقات ، وهـي في (مكتبة جستر بيتي ـ ٥٢٤٤ مجموع) ٠

ومن المعروف أن للرازي أيضاً كتباًكثيرة منها ـ عدا الحاوي ، والمنصوري ، والطب الروحاني ـ كتاب «برء الساعة»وقد حَوَّلَ هـذا الكتاب إلى أرجـوزة محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنبلي (٩٧١ هـ) وأعطاها عنوان «الدرر الساطعة في الأدويــة القاطعـة » ٠ وهي في ١٣٥ بيتـاً ، وذكر ذلك عمر رضـا كحالة في كتابه : (معجم المؤلفين ٨ : ٢٢٣) ٠

أما ابن سينا الشيخ الرئيس (٤٢٨هـ) ـ (أبقراط العرب) وشيخ أطبائهم، فقد ألّف كتاب « القانون في الطب » الذي ظـل مرجعاً أساسياً لطلبــة الطب في الشرق والغرب حتى أواخر القـرن الماضي ، ابن سينا هذا ارتأى أن يلخّص المعلومات الطبية التي وعاها وخبرهــا وتمرّس بها في أرجوزة شعرية تسهيلاً لحفظها ، ولينتفع بها تلامذته في كل مكان وزمان ٠ لذا أنشأ « أرجوزته في الطب » وهي أرجوزة تقع في ما يزيد على /١٣٠٠/ بيت ٠

وقد أثّرت تلك الأرجوزة كثيراً في تدريس الطب في المشرق العربي وفي المغرب والأندلس ٠ وكانت عمدة أساتذة الطب لسنين طويلة ، وشُرحت كثيرا وعُلّق عليها، وعورضت واستدرك عليها، وممن استدرك عليها هارون بن اسحق المعروف بابن عزرون، وذلك في أرجوزته في الحميات والأورام، فقد ذكر ابن عزرون أن ابن رُشد قد لاحظ تقصير أرجوزة ابن سينا في ذكر الحمّيات والأورام : فحفزته تلك الملاحظة على نَظم أرجوزة في هذا الباب ٠٠٠ وأكمل محمد بن قاسم ابن محمد الفاسي (١١٢٠ هـ) الأرجوزة السينوية بأرجوزة سمّاها « الدرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة » ٠ ومما قاله ابن سينا في أرجوزته :

بدأتُ باسمِ اللهِ في النّظمِ الحَسَنْ ... أذكُر ما جرّبتُه طولَ الزّمَنْ

وفي موضع آخر يقول ابن سينا :

الطّبُّ حِفظُ صحّةٍ بُرءُ مَرَضْ ... من سَبَبٍ في بدنٍ عَنهُ عَرَضْ

قِسمتُه الأولى لعِلمٍ وعَمَلْ ... والعِلمُ في ثلاثةٍ قد اكتمَلْ

سبعُ طبيعاتٍ من الأمورِ ... وستّةٌ وكلُّها ضروري

ثم ثلاثٌ سُطّرت في الكتُبِ ... مِن مَرَضٍ وعَرَضٍ وسَبَبِ

وقد طبعت أرجوزة ابن سينا ٠ ومنها نسخ مخطوطة كثيرة في الظاهرية ــ (انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ــ الطب والصيدلة ١/٤٥٠) ٠

ولابن سينا أيضاً أرجوزة في التشريح (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية ــ الطب والصيدلة ٢/٣٤٢) ٠ وقد شرح ابن رشد (٥٩٥هـ) منظومة ابن سينا هذه ٠ ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة في الظاهرية (فهرس الطب والصيدلة ص٤٤١) ، ومنها نسخة مصورة عن مكتبة جستر بيتي (رقم ٣٩٩٣) في الكويت تقع في ١٣٠ ورقة ــ (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة السابق الذكر ــ ص ١١٥) ٠

وكذلك شرح هذه الأرجوزة محمد بن إسماعيل بن محمد المتطبّب (ت بعد ٩٨٨ هـ) ٠ وهو شرح يقع في ١٨٠ ورقة ٠ وعنوانه : « التوفيق للطبيب الشقيق »٠ ومنه نسخة بخط المؤلف في دار الكتب الوطنية بتونس (انظر فهرس

المخطوطات الطبية المصورة في قسم التراث ـ الكويت ١٩٨٤ ، ص ٦٣) • و (فهرس دار الكتب الوطنية تونس ١/٨) • وانظر (٩) أراجيز لابن سينا ذكرها رزوق فرج رزوق في (مجلة المورد مج ١٩ العدد الأول لعام ١٩٩٠ ص ٢١٠ ـ ٢١١) •

ونظم أبو عبد الله محمد بن العباس بن أحمد الدنيسري (٦٨٦ هـ) أرجوزة في نظم « مقدمة المعرفة » لبقراط ، وأرجوزة في الدرياق الفاروقي (انظر فوات الوفيات ٢ : ٤٤٠) و (هدية العارفين٢ : ١٣٦) • وكذلك نظم داود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) الفيّة" في الطب •كما نظم « القانون في الطب » لابن سينا وشَرَحَه (انظر كشف الظنون ١٣١٣)و (هدية العارفين ١ : ٣٦٢) • والحقيقة أن المنظومات الطبية كثيرة جداً ولم نذكر منها إلا غيضاً من فيض ، وذلك لأن الاستقصاء هنا ليس غرضنا •

وإذا تركنا الطب وانتقلنا إلى الفلك، نجد أن العرب قد أحرزوا في هذا العلم إنجازات عظيمة ، وليس أدل على ذلك من احتواء اللوحة التي وضعها (نيل آرمسترونغ) ـ أول إنسان وطئت قدماه أرض القمر ـ على اسم(البتّاني)، وهو عالم فلكي سوري من الرقة عاش في القرن الرابع الهجري ، وذلك تقديراً لجهود هذا العالم في علم الفلك،واجلالاً لما صنعه في زمانه من زِيْجات فلكية صحيحة • ومن المعروف في هذا الباب أن لأبي الحسن علي بن أبي الرجال (بعد ٤٣٢ هـ) أرجوزة في الأحكام الفلكية ، وهي مطبوعة ـ (مجلة المورد مج١٩ ع١ لعام ١٩٩٠ ص٢١١) •

ونطالع في (كشف الظنون ص١٣٤٥) ذِكْرَ قصيدة في النجوم مزدوجة طويلة ألّفها أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الغراوي •

وكذلك ذكر د• رزوق فرج رزوق أن محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي المعروف بابن رقام (٧١٥ هـ) له منظومة في العمل بالاسطرلاب (انظر مجلة المورد مج٢ ع١ ص٢١٨) •

ومن المعروف أن الاسطرلاب آلة فلكية • كذلك لعبد الواحد بن محمد ابن محمد المشهدي (٨٣٨ هـ) منظومة في الاسطرلاب • انظر (هدية العارفين ١ : ٦٣٢) •

وفي (كشف الظنون) أيضا عرفنا أن شرف الدين أحمد بن ادريس بن يحيى الماريدني(٧٢٨هـ) قد ألّف «نظم الدرر في معرفة منازل القمر» ،رتبه على عشرة أبواب كلها منظومة • انظر (كشف الظنون ص١٩٦٣) •

وكذلك نطالع لرضي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن أحمد الغـزي (٩٣٥ هـ) ألفية في علم الهيئة ، وهو علم الفلك ذاتـه • (انظر مجلة المورد مج٢٠ ع١ لعام ١٩٩٢ بغداد ص ١٣٣) •

ولفخر الدين محمد بن مصطفى بن زكريـا الدوركي (٧١٣ هـ) قصيدة في النجوم (هدية العارفين ٢:١٤٢ ـ ١٤٣) •

وفي ميدان التاريخ ألّف أسعد بن البطريـق النصراني (٣٥٧ هـ) كتابـا بعنوان:« نظم الجواهر في أخبار الأوائل والأواخر» انظر(إيضاح المكنون ٢:٦٥٨)•

ونقع في كتاب (هدية العارفين) على غير إشارة إلى منظومات في التاريخ منها مثـلاً أن محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر السعدي الجذامي الروحي(٦٩٢هـ) قد نظـم سيرة السلطان الظاهـر بيبرس (هدية العارفين ٢ : ١٣٧) •

وكذلك نظم شهـاب الدين محمد أمين الخولي (٦٩٣ هـ) سـيرة ابن هشام (هدية العارفـين١/٥٨١) و (كشف الظنون ٤٩٢ ، ١٠١٢) •

وذكر الزركلي أن عبد الملك بن أحمد الأرمنتي (٧٢٢هـ) قد نظم (تاريخ مكة) للأزرقي على شكل أرجوزة (الأعلام ٤ : ٣٠١) •

ونظم صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤ هـ) أرجوزة تاريخيـة وشَرَحها،وهي بعنوان: «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب » وقد طبع هذه الأرجوزة صلاح الدين المنجد ، وفيها يقول مثلاً محدثا عن محتوى كتابه بعد حمد الله وشكرانه:

وبعد ، فالمقصود من ذا الرَّجَزِ حُسنُ البيـان في كـلامٍ موجزِ
أذكـرُ فيه الخُلَفَـا والأمـرا علـى دمشـق نَسَقا كما تـرى

لكنّه على الحروف رتّبه · فضيّع المقصود منه واشتبه
ولم يصل إلا لنور الدين · وعاق ذاك وارد المنون
وقد ذكرت مَنْ أتى مِن بعده · ليومنا فاستجل دُرّ عِقْده

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف نفسه قد شرح أرجوزته في كتاب حمل العنوان ذاته ، وقد طبع بدمشق عام ١٩٩٢ في جزءين بتحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي ، وزهير حميدان الصمصام ·

ويمكن أن نضيف في هذا المجال الأرجوزة التي نظمها تاج الدين الحسن ابن راشد الحلي (نحو ٨٣٠ هـ) وعنوانها « تاريخ الملوك والخلفاء » ،وأرجوزة للمؤلف ذاته ، وهي تحمل عنوان : تاريخ القاهرة (الأعلام ٢ : ٢٠٤) ·

والأرجوزة التي في تاريخ المعتضدبالله ، وهي مطبوعة ، وقد ألّفها أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء المعروف بابن شرشير (٢٩٣هـ) ·

ونظم عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني (٦٩٤ هـ) سيرة ابن هشام شعراً (انظر هدية العارفين ١ : ٥٨١) ·

والحقيقة أن هذا التقليد التراثي أعني التاليف بالشعر ، لم يندثر ، بل استمرت نماذجه في مجرى الثقافة العربية تطالعنا بين الفيْنة والأخرى وإن قلّت ، بوضوح ، عما كانت عليه في القديم · وقد راح بعض الشعراء في أيامنا هذه يستعرضون قدراتهم على النظم فيتأليف بعض الكتب · ومن هؤلاء الشاعر السوري (أحمد الجندي) رحمه الله الذيألّف كتاباً بعنوان «قصة المتنبي شعراً» · وقد طبعها في بغداد عام ١٩٧٣ ، ثم أعادطبعها في دمشق بدار طلاس · وفي هذا الكتاب الشعري يؤرخ (أحمد الجندي)بالشعر لحياة أبي الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر ، ومالىء الدنيا وشاغل الناس ، وإذا فتحنا كتاب الجندي وجدناه يقول (في ص٧ طبعة بغداد) مثلاً :

مرّ في خاطر الزمان وليدُ · عبقريُّ السمات عالٍ فريدُ
أسمرُ الوجه كالمساء جلالاً · أسودُ العين ، باهرٌ ممدودُ

موجةٌ من رجولةٍ فوق بحرٍ يتمطّى تياره العربيدُ
فاذا الشاعرُ العظيمُ حديثٌ يتغنّى ، ونشوةٌ ، وقصيدُ

ثم يضيف في (ص١٣) على لسان شاعرنا العظيم ، كاشفاً عن بعض سجاياه وخصائصه :

لا أراني أعيش في هذه الأر ضِ فنفسي يضيقُ عنها زماني
إنني شاعرُ العروبة ضوئي ملأ الأرض بالمنى والأماني
وبشعري سار الزمان وغنى الر كبُ في البيدِ مُطرباتِ الأغاني

وبعد ، فاننا نخلص من خلال العرض الموجز السابق إلى نتائج نصوغها على النحو التالي :

١ - إن التاليف بالشعر عند العرب كان قد بدأ مع فجر عهدهم بالتدوين والتصنيف، وبعبارة أخرى منذ القرن الهجري الأول ، وحتى أيام الناس هذه ، ومن المعروف هنا أننا نريد نظم المعارف والعلوم ، ولا نقصد ابداع المسرح الشعري الذي يشكل نسقا معرفيا آخر .

٢ - إن بحر الرجز لم يكن البحر الوحيد الذي ركبه المؤلفون في مؤلفاتهم الشعرية ، فهناك بحور أخرى كالبسيط وغيره من البحور ، نظمت عليها الوان من المعارف متبايلة . وقد كان بحر الخفيف مثلاً هو بحر ازهار المرحوم أحمد الجندي التي مثلنا بها قبل قليل .

٣ - إن العرض السابق ، على وجازته ، وعلى الرغم من انه جاء للتمثيل والتدليل ، لا للاستيفاء وللاستقصاء يدل على أن هذا الباب واسع جدا،وأنه تناول مختلف جوانب المعرفة ، وثمة جوانب أخرى لم نعرض لنماذج لها فيما تقدّم . وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على مواهب العرب الشعرية الغزيرة ، وعلى اثر الشعر في نفوسهم كما يدل على عظيم عطائهم التصنيفي ، وهو عطاء يكاد المرء يزعم ان الأمة العربية لا تضاهيها فيه اية امة على وجه هذه البسيطة .

- مصادر البحث ومراجعه :

- ابن الانباري ، محمد بن القاسم ، قصيدة في مشكل اللغة، دمشق ١٩٨٩ (مستل من مجمع اللغة العربية بدمشق).
- ابن خمليون ، محمد بن خليل : التحفة في علم المواريث، تحقيق السائح علي حسين - ليبيا ، طرابلس ١٩٩٠ .
- ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، بيروت ١٩٧٤ - ط ٤ .
- ابن ماجد : حاوية الاختصار في اصول علم البحار ، تحقيق ابراهيم الخوري ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
- ابن النديم : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، بيروت ١٩٧١ .
- البغدادي : هدية العارفين ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الجندي ، احمد : قصة المتنبي شعراً ، بغداد ١٩٧٣ .
- حمصي ، اسماء : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - علوم اللغة العربية - دمشق ١٩٧٣ .
- خليفة ، بديري : نظم متن الاجرومية - مقال في مجلة كلية الدعوة الاسلامية - ليبيا ، طرابلس - العدد السادس لعام ١٩٨٩ .
- خليفة ، حاجي : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الخيمي ، صلاح : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - الطب والصيدلة - دمشق ١٩٨١ .
- الدوسري ، هيا محمد : فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم ... ، الكويت ١٩٨٤ .
- رزوق ، فرج رزوق : الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ، مقال في مجلة المورد العراقية ، المجلد ١٩ ، العدد الاول ، والمجلد ٢٠ ، العدد الاول ، بغداد ١٩٩٢ .
- الزركلي ، خيرالدين: الاعلام ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ .
- الصفيري ، محمود : قضايا في التراث العربي ، دمشق ١٩٨١ .
- الصفدي ، خليل بن ايبك : تحفة ذوي الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، تحقيق احسان خلوصي ، وزهير حميدان الصمصام ، دمشق ١٩٩٢ .
- الصوري ، محمد بن علي بن حسن : القصيدة الصورية، تحقيق عارف تامر ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٥ .
- الصولي ، ابو بكر : الاوراق - تحقيق ج. هيورث ، بيروت ، ط ٢ - ١٩٧٩ .
- الطيبي ، امين توفيق : كتب الفلاحة الاندلسية - مقال في مجلة كلية الدعوة الاسلامية - العدد ٦ - طرابلس ، ليبيا ١٩٨٩ .
- الكتبي ، ابن شاكر : فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، بيروت .
- كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين ، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، د.ت .
- محمد بن محمد ، بدرالدين : زبدة الاقوال في شرح قصيدة ابنية الافعال، تحقيق ناصر حسين علي، دمشق ١٩٩٢ .
- النقاشي، النعمان: الارجوزة المختارة ، تحقيق اسماعيل قربان حسين - مونتريال ، كندا .
- اليازجي ، ناصيف : الجمانة في شرح الخزانة ، بيروت ١٨٧٢ .

العرب.. واختراع البارود

د. إحسان هندي

جاء في احصائية لمنظمة اليونيسكو أن الانسان المعاصر يتعامل بنحو عشرة آلاف اختراع اليوم، سواء أكانت هذه الاختراعات مخترعات بالفعل Inventions، أم كانت مجرد اكتشافات Découvertes لما هو موجود في الطبيعة أصلاً.

وهذه الاختراعات ليست جميعها على الدرجة ذاتها من الأهمية بالنسبة إلى الحضارة، فهناك اختراعات منها غيرت مجرى الحياة الانسانية، مثل اختراع الأبجدية والورق وآلة الطباعة، والعجلة والآلة البخارية والطائرات، واللاسلكي والهاتف والحاسبات الآلية ... وهناك بالمقابل اختراعات أخرى تتمتع بأهمية أقل مثل المظلة والنول الآلي ومختلف الآلات الأخرى التي تحقق رفاهية الانسان.

وهناك أخيراً اختراعات يمكن أن تكون نافعة ويمكن أن تكون ضارة، ويدخل في هذه الزمرة جميع الأسلحة التي عرفها واستخدمها الانسان على مر العصور. وإذا أردنا معرفة موقع البارود في هذا التصنيف، فلا ريب أنه يقع في الفئة الأولى، أي فئة الاكتشافات أوالمخترعات التي غيّرت مجرى الحياة الانسانية.

وقد يقول قائل هنا إنه لا مجال لمقارنة اختراع آلة الطباعة باختراع

البارود ، وجوابنا عن ذلك هو أن اختراع البارود[1] وإن لم يكن له دوماً ذلك التأثير الايجابي بالمقارنة مع اختراع آلة الطباعة ، فقد أحدث آثاراً خطيرة في مجرى حياة الانسان وحضارته ، إذ إنه قاد إلى اختراع المدافع والأسلحة النارية والفردية والجماعية التي تم استخدامها في الحروب والثورات الأهلية ، وهذا ما أدّى إلى آثار ونتائج خطيرة • ويكفي في هذا المجال القول إنه كان سبباً في انتهاء عهد الاقطاع في أوربة إذ أنه مكّن الأتباع والبورجوازيين المتمردين على السادة الاقطاعيين من تدمير القلاع التي كان يتحصن فيها هؤلاء الأخيرون حتى القضاء على سلطتهم نهائياً[2] •

وليس من الانصاف بتاتاً النظر إلى هذه الآثار والنتائج الخطيرة التي أعقبت اختراع البارود واستخدامه على أساس أنها « آثار سلبية ومدمرة للحضارة » فحسب ، إذ أنه تم استخدام البارود في مجالات صناعية وإنشائية كثيرة ، وفي هذا تصح المقولة التي تؤكد أن البارود هو « سلاح » كجميع الأسلحة الأخرى التي يمكن استخدامها في سبيل الخير كما يمكن استخدامها في سبيل الشر •

ونقول هذا للرد مسبقاً على تساؤل يمكن أن يثور في أذهان بعض القراء في هذا المجال وهو التالي : هل من مصلحتنا نحن العرب أن نثبت الآن أن أجدادنا هم أول من اخترع البارود ، أو أول من استخدمه في الحروب ، إذا كانوا فعلاً هم الذين قاموا بذلك ، كما تقول إحدى الإطروحات التي سنعرضها بعد قليل ؟•

وللرد على مثل هذا التساؤل نقول سلفاً : إن المعطيات التاريخية هي حقائق علمية ، وبصفتها هذه يجب أن تكون ملكاً للجميع • وإذا كان العرب هم أول من استخدم البارود في الحروب ، فيجب ألا ننسى في هذا المجال ثلاثة أمور :

١ ـ الأول هو انهم لم يستخدموا البارود كسلاح حربي الا تحت ضغط الحاجة، وذلك لايجاد مخترع يمكنه ان يقف في وجه (النار اليونانية: Le Feu Grégeois : The Greek Fire) التي استخدمها الروم ، ومن بعدهم الصليبيون ، ضدهم •

٢ ـ والثاني هو ان العرب المسلمين لم يستخدموا البارود في الحروب فقط ، وانما استخدموه في مجال الصناعة والانشاءات أيضا •

٣ ـ والثالث هو انه ليس هناك دليل تاريخي قاطع على ان العرب هم مخترعو البارود ، والامر لا يعدو كونه واحداً من عدة احتمالات ·

والحقيقة هي أنه ليس من الثابت تاريخياً أن العرب هم من اخترعوا البارود ، أو أنهم هم أول من استخدموه في الحروب إذ إن الروايات متضاربة سواء من حيث (مكان اختراع البارود وزمانه) أو من من حيث (استخدامه في الحروب) ، وسنحاول توضيح هاتين النقطتين واحدة بعد الأخرى :

اولاً ـ مكان اختراع البارود وزمانه :

لا يُعلم بالدقة مَن اخترع البارود، إذ أن تاريخه موغل في القدم ، وهو أقدم المتفجرات المعروفة اليوم ·

ويقول العلامة بطرس البستاني في موسوعته : « والحاصل أن مخترع البارود لم يزل مجهولاً ، والظاهر أن العلماء مختلفون فيه وفي زمن اختراعه ، وقد تبين أنهم خلطوا اختراع البارود بأزمان معرفته التي امتدت من قطر إلى آخر »(٣) · ومع أخذ هذا التحفظ بعين الاعتبار يمكن القول مع ذلك إن أغلب المؤرخين والباحثين في هذا المجال يشيرون إلى أن اختراع البارود قد تمّ في الصين ، وبالتحديد في القرن التاسع للميلاد(٤) ·

وهناك من ينسب هذا الاختراع إلى الصينيين ، ولكن يحدد تاريخاً لاختراعه يسبق التاريخ المذكور بأربعة قرون ، أي في القرن الخامس للميلاد · وممن يرى مثل هذا الرأي الأخير العلامة التونسي المرحوم عثمان الكعّاك الذي قال في محاضرة ألقاها على المدرّج الرئيسي لجامعة دمشق في أواخر شهر كانون الأول ١٩٦٢ ، إن الصينيين عرفوا البارود في تاريخ متقدم ، وإن سر البارود انتقل إلى العرب المسلمين في زمن الخليفة هرون الرشيد الذي وعد بعض الأسرى الصينيين لديه ، نحو عام ٨٠٠ م ، بأن يطلق سراحهم إذا كشفوا له سر صناعة البوصلة والبارود ، فقام هؤلاء بذلك ·

والظاهر أن الصينيين ، بعد اختراعهم البارود ، كانوا يستخدمونه في الأسهم والألعاب النارية التي كانوا يطلقونها في المواسم والأعياد فقط ،

ولكنهم لم يستخدموه ـ في بداية الأمر ـ كقوة دافعة أو متفجرة في الحروب ٠ وهناك دراسة أجرتها إحدى الباحثات العربيات المعاصرات تتبنى فيها هذا الرأي فتقول :

« وقد عُرف مسحوق البارود لاول مرة في الشرق ، وبالتحديد في الصين ، ويُقال ان الصينيين هم اول من اكتشف مسحوق البارود وتفننوا في طرق الاستعمال بدون ان يتمكنوا من استخدامه كمادة لاطلاق المقذوفات الهادفة الى القتل وسبب ذلك يرجع ربما الى احترام الصينيين القدامى للحياة البشرية والحيوانية على حد سواء »(٥) ٠

وسواء أكان عدم استخدام الصينيين للبارود كمادة دافعة أو متفجرة في الحرب هو بسبب احترامهم للحياة البشرية والحيوانية ـ كما تقول الباحثة ـ أم لا ، فان البارود لم يُستخدم في الأسلحة النارية إلا عندما لوحظ أن « احتراقه في حيز محصور يولّد ضغطاً عالياً في برهة وجيزة »(٦) ، وهذا الأمر لم يتم إلا في مرحلة لاحقة ، ولكن متى حدث ذلك وأين ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الفقرة التالية :

ثانيا ـ استخدام البارود في الأسلحة النارية :

إذا كان أغلب المؤرخين والباحثين يتفقون على أن اختراع البارود كان في الصين ، فقد تعددت آراؤهم حول تحديد المكان والزمان اللذين تمّ فيهما استخدام هذا الاختراع لأول مرة في مجال الأسلحة النارية ٠ وينسب كل من هذه الآراء الفضل في اختراع البارود ـ إذا اعتبرنا هذا الاختراع فضلاً بالفعل ـ إلى شعب من الشعوب ، ضمن زمن من الأزمان ٠ وأهم هذه الآراء ثلاثة ، ونجدها في الأطروحات الثلاث التالية :

آ ـ الأطروحة الأولى :

ويقول أصحابها إن الصينيين أنفسهم هم أول من استخدموا البارود في الأسلحة النارية والمدافع ٠ وتقول بعض المصادر الصينية إن العلماء الصينيين عرفوا خواص البارود واستخدموه كقوة دافعة منذ القرن التاسع للميلاد ،

ولكن أول رواية مثبتة في هذا المجال هي القائلة إنهم ـ أي الصينيين ـ استخدموه في أثناء حصار المغول لمدينة « كاي فونغ فو » الصينية سنة ١٢٣٢ م[٧] .

وفي مجال المصادر الأولية التي تؤيد هذه الأطروحة نجد أن الرحالة الايطالي ماركو بولو قد أشار في تقاريره التي قدمها عن رحلاته في الشرق الأقصى ، إلى أن الصينيين استخدموا في مواجهة الغزاة المغول سلاحاً فتاكاً يسمونه (هيو يشيانغ Huo Chiang) ، وتعني بالعربية « أنبوب النار » ، وذلك بين ١٢٣٢ ، ١٢٥٩ م .

ويرى مثل هذا الرأي من مؤرخينا العرب المحدثين الدكتور حسين مؤنس ، فيقول في تعليقه على الطبعة الجديدة من كتاب (تاريخ التمدن الاسلامي) لجرجي زيدان : « من المعروف أن البارود اختراع صيني ، وأن الذي نقله إلى أوربة كان ماركو بولو »[٨] . (كان في خدمة كوبلاي خان حفيد جنكيز خان الذي حكم (١٢٦٠ ـ ١٢٩٤م في الصين) .

ـ هذا من حيث انتقال مستحضر البارود إلى أوربة ، فماذا عن انتقاله من الصينيين إلى العرب ؟ من المعلوم أن العرب دخلوا بتماس مع الصينيين عن طريق بلاد السند والهند منذ أواخر القرن السابع للميلاد ، ولا يُستبعد معرفتهم لسر البارود وقوته العجيبة منذ ذلك الوقت الموغل في القدم ، ودليلنا على ذلك هو أن الكاتب العسكري العربي المعروف بدر الدين حسن الرماح ، قد ذكر في مخطوطة كتبها عام ١٢٨٠ م تحت عنوان « كتاب أساليب القتال فوق ظهور الخيل واستخدام الآلات الحربية » ،وصفاً لمسحوق متفجر ، « وذكر نسباً مختلفة لمزج مكوناته ، وتوجيهات لصناعة الصواريخ التي تسميها المخطوطة (السهام القتالية) ، وفي ذلك إشارة إلى السهام الصينية »[٩] .

وهناك من المؤرخين من يعطي العرب دور الوسيط في إيصال البارود من الصين إلى أوربة في مرحلة الحروب الصليبية خلال القرن الثالث عشر للميلاد[١٠] .

ب ـ الأطروحة الثانية :

ويرى أصحابها أن الأوربيين هم من فطنوا لاستخدام البارود كقوة دافعة في الأسلحة النارية لأول مرة ٠وأول أوروبي تنسب إليه المصادر ذلك هو الراهب الانكليزي روجر بيكون ، الذي كتب رسالة باللاتينية في عام ١٢٦٧ م ٠ وقد ضمَّن رسالته هذهمعلومات عن نسب تركيب البارود ، ولكنه كتب هذه المعلومات بأسلوب رمزيلكي لا يستطيع العوام فهمها وصنع البارود بأنفسهم ٠

والمعتقد السائد في هذا المجال هو أنروجر بيكون قد ذكر نسب تركيب (البارود الصاعق) لا (البارود الدافع)لأنه جعل نسبة التركيب كما يلي : ثلاثة أجزاء من النطرون (ملح البارود) ،وجزآن من البوتاس الكاوي،وجزء واحد من الكبريت ٠ ومعنى هذا أنه أهملذكر مادة (الفحم النباتي) وذكر مادة البوتاس الكاوي مكانها من جهة ، كما أنه أنقص نسبة ملح البارود فيالتركيب إلى ثلاثة أجزاء بدلاً من خمسة ـ وهيالنسبةالمعمول بها حالياً ـ من جهة ثانية ٠

ونجد هذه النسب نفسها تقريباً لدى أوروبي آخر يُنسب إليه فضل اكتشاف القوة الدافعة للبارود ، وهوراهب ألماني اسمه«البرتوس ماجنوس»، وقد توفي في عام ١٢٨٠ م ، ولكنه كتبقبل وفاته مخطوطاً بعنوان « في عجائب الدنيا » ، ويذكر فيه كيفية تركيبمسحوق البارود وفوائده التفجيرية المالية ، فحدد نسبة التركيب كما يلي :ثلاثة أوزان من نترات البوتاس ، وزنان من الفحم النباتي ، وزن واحدمن الكبريت ، وهي نسبة تعطي باروداً قليل الاشتعال وضعيف الدفع ، لأن نسبةملح البارود (نترات البوتاس) فيه هي بقدر حجم المنصرين الآخرين معاً بدلاًمن أن تكون ثلاثة أضعافهما ، إذ من المعروف أنالبارود الحربييلزمه نسبة٧٥٪من (ملحالبارود Salpêtre : Saltpetre) و ١٥٪ من (الفحم النباتي Charbon : Charcoal) و ١٠٪ من (الكبريت Soufre : Sulphur) في أيامنا ٠

والأوربي الثالث الذي يُنسب إليه فضل اكتشاف القوة الدافعة للبارود هو راهب ألماني اسمه برتولد شوارتز Berthold Schwarz (١٣١٠ ـ ١٣٨٤م)

تقول الروايات إنه توصل إلى اكتشافه هذا مصادفة حين كان يدق مقداراً من ملح البارود والفحم والكبريت في هاون ، مما أدى لحدوث انفجار انتزع مدقة المهراس (الهاون) من يده وكاد يقضي على حياته ، ولذا أعاد التجربة بما يكفي من الحذر والاحتياط حتى توصل إلى تركيب البارود المعروف حالياً .

واول من تقدم بهذا الرأي هو المؤرخ الاسباني (بيدرو ماكسيا) الذي يقول في كتاب له صدر عام ١٥٤٢ تحت عنوان « اشياء مختلفة » : « ان اختراع البارود حصل سنة ١٣٣٠ م من قبل راهب الماني اسمه برتولد شوارتز ، وان اول من استخدم البارود كسلاح هم البنادقة في حربهم مع الجنوبيين قرب اسوار مدينة فلورانسا الايطالية عام ١٣٣٨ »(١١) .

ونجد تأييداً لهذه الرواية نفسها لدى مؤرخ آخر عاش في أواسط القرن السادس عشر واسمه «سيباستيان مونستر» ، يذكر هذا المؤرخ ، في رواية له بهذا الصدد ، عام ١٥٤٤ ، أنه تم اختراع مدفع هائل في عام ١٣٨٠ ، وأن « الشقي الذي أتى العالم بمثل هذا الاختراع المضر لا يستحق أن يُخلد اسمه في أذهان الناس ، وقد لمح بذلك إلى برتل الأسود(١٢) ، وهو راهب من هيرتس غير أن المحققين يختلفون في ذلك اختلافاً شديداً(١٣) .

ــ ونجد هذا الرأي نفسه أيضاً لدى مؤرخ اسباني عاش في أواخر القرن السادس عشر ، واسمه خوان ماريانا ، يقول في كتابه « التاريخ العام لاسبانية»(١٤) إن الراهب الألماني برتولدشفارتس هو الذي اخترع البارود ، وهو الذي استخدمه كسلاح حربي .

ــ والظاهر أن الفكرة التي سادت أكثر من غيرها خلال القرون الثلاثة التي أعقبت استخدام البارود في أوربة (١٣٣٠ ــ ١٦٣٠) هي تلك التي تنسب فضل اكتشاف قوة البارود كسلاح للدفع والتفجير إلى الراهب الألماني برتولد شفارتس (أو شوارتز) ، ولهذا فلاغرابة أن نجد بعض المؤرخين العرب يتبنون هذا الرأي أيضاً ، ومن هؤلاء ابن غانم الأندلسي ، صاحب مخطوط «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمدافع » فيقول في مخطوطه هذا : «وقد تحقق عند الجمهور أن ابتداء العمل بالبارود ليس له مدة إلا خمساً وستين

ومائتي سنة من الحساب الشمسي[١٥] ،كما صحّ عند العلماء ، وكان الاستنباط على يد راهب مشغول بالكيمياء ، فكان يريد تقطير ملح البارود والكبريت بالقرعة[١٦] والانبيق ، فكان يدق ذلك في مهراس[١٧] ، ووقعت فيه شرارة فقام النار في الحين ، وأشعل بقوة ودفع ،فأعجبه ذلك لما رأى شيئاً ما لم يره ولا سمع به ، وجرب ذلك بأن جعل التركيب في موقع مسدود عليه بالقهر[١٨] ، وكان رجلاً فيلسوفي (كذا) ، فعمل كبّوساً[١٩] ومكحلة[٢٠] ، ثم مشكة[٢١] بكل منهم[٢٢] ، وهي مكحلة كبيرة ، ثم مدفعاً،وهذا هو المعلوم أنه كان الأصل الأول[٢٣]، وكان ذلك في بلاد ألامنيا »[٢٤] .

ومن الباحثين العرب المحدثين الذين ينسبون فضل اختراع البارود الى برتولد شوارتز المرحوم بطرس البستاني فقد ذكر في« دائرة المعارف » تحت عنوان « بارود » ما يلي : « ذهب بلفورتس وكثيرون غيره الى انه بعد اكتشاف برتولد شوارتز البارود كاشف به البنادقة عام ١٣٨٠ ، في أثناء الحرب التي كانت جارية بينهم وبين الجنوبيين »[٢٥] .

وهناك من المؤلفين الأجانب المعاصرين من يرى أن البارود اختراع أوروبي صرف ، ولكن بدون أن ينسب فضل هذا الاختراع إلى برتولد شوارتز حصراً ، ومن هؤلاء المؤرخ الانكليزي«بارتنجتون»الذي يقول في كتابه المعروف : « النار اليونانية والبارود »[٢٦] : « أنا لا أعتقد أنه تم استخدام المدافع في اسبانية سنة ١٣٢٤ أو ١٣٢٥ ، ولذلك فان أول مرة تم استخدام المدافع فيها كانت في فلورانسا سنة ١٣٢٦ م[٢٧] .

جـ ـ الأطروحة الثالثة :

وهي أطروحة تقول إن العرب المسلمين هم من استخدموا البارود لأول مرة كسلاح حربي عبر المنجنيقات، منذ القرن العاشر للميلاد ، ثم اخترعوا له أنابيب للاطلاق ، وهذه الأنابيب التي أطلقوا عليها بداية « صناديق المخاسفة» يتم إطلاقها بوساطة منجنيقات ذات مواصفات خاصة يصح اعتبارها أم المدافع المستخدمة حاليا[٢٨] ولكن العرب المسلمين لم يُسموا ، في البداية ، هذه

المادة باسم « البارود » ، وإنما سمّوها باسم « الحجر الناري » أو «زيت الحجر» أو « النفط » • وخلال مرحلة الحروب الصليبية طوّر العرب المسلمون تحت ضغط الحاجة الحربية كل الأسلحة التي يمكنها قذف النفط والكرات النارية ، فوصلوا إلى آلات معقدة تشبه المدافع إن لم تكن تتفوّق عليها[٢٩] •

ويظهر هذا جلياً من شهادة ذات مصداقية كاملة أتت من مؤرخ فرنسي عاش معركة المنصورة (١٢٤٩/١٢٥٠م) إلى جانب ملك فرنسا لويس التاسع ، وهو الفارس « جوانفيل » ، يقول في وصف سلاح جديد استخدمه العرب المسلمون في هذه المعركة : « وفي ذات ليلة بينما كنا نحرس الأبراج أنا والسير والتر كوريل حدث أن العرب المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ، ثم قذفونا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب •••• نار مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة ، ذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء • ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء ، حتى أنك ترى كل ما في المعسكر كما لو كان في وضح النهار وقد رمى العرب علينا هذه النار في تلك الليلة مرات من الآلات الكبيرة ، وأربع مرات من القسي العريضة »[٣٠] • ومع أن هذا النص لا يذكر كلمة « بارود » صراحة ، إلا أن الكلام يدل بوضوح على أن الأمر يتعلق بالبارود أو بمادة أشد قوة منه ، سواء من حيث الاشتعال أو من حيث قوة الدفع •

ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد في دورية موسوعية رصينة هي مجلة «كل العالم Tout l'Univers » ، تؤكد أن البارود والمدفع هما اختراعان عربيان تماماً • ومما تقوله المجلة المذكورة تحت باب (الاسلحة النارية الأولى Les Premières Armes à Feu) نقتطف الفقرة التالية : « إن اختراع بارود المدافع حسب رأي ذائع الانتشار كان على يد راهب ألماني اسمه برتولد شوارتز ، بعد أن تمكن خلال القرن الخامس عشر[٣١] من صنع مادة متفجرة نتيجة لمزجه ملح البارود والفحم والكبريت ، ولكن هذا ليس أكثر من اسطورة ، لأن الأسلحة النارية كانت عديدة قبل هذا الوقت • ومن الثابت أن الكيميائيين العرب لاحظوا منذ القرن الثالث عشر ، خلال إجراء بحوثهم ، أنه في حالة الضغط على مثل هذا المزيج في هاون كانت تنطلق منه شرارة تعقبها فرقعة تكون قوية أحياناً إلى درجة

تسقط مدقة الهاون من أيديهم • وقدفكروا عندئذ باستخدام القوة الناجمة عن الانفجار الذي أحدثه البارود لرمي القذائف إلى مسافات بعيدة ، ولهذا قاموا بوضع عدد من الحجيرات (الحصيات الكبيرة) مع كمية من البارود في دلو يحمل عدة ثقوب من الخلف ، ثم أحدثوا انفجار المزيج ، بوساطة قضيب مشتعل، فحصلوا على الأثر المرجوّ ، حيث طارت الحجيرات ووقعت بعد عدة أمتار على الأرض • وإن مدافع الهاون التي صنعها كيميائيو الشرق لا يمكن اعتبارها أسلحة نارية حقيقية ، ولكنها كانت التطبيق الأول لاستخدام البارود في المدافع »[٣٢] •

والحقيقة ان اغلب الباحثين المدققين ،والمؤرخين المنصفين حتى من الاوربيين انفسهم، اصبحوا مقتنعين بان العرب المسلمين هم من اخترعوا البارود ، او انهم اذا لم يكونوا هم من اخترعه فهم من استخدمه كقوة دافعة في الاسلحة النارية اولا • ولكن قسما كبيرا من المؤرخين الاوروبيين لا يزالون ينسبون هذا الفضل الى المسلمين الاندلسيين (الموريسكوس) دون غيرهم • ولعل السبب في ذلك هو رغبة هؤلاء المؤرخين في النظر الى البارود كمخترع اوروبي ، على اعتبار ان منطقة الاندلس هي جزء من اوربا وان كانت مختلفة حضاريا عنها •

وأول المؤرخين الأوربيين الذين نسبوا اختراع البارود والمدافع إلى العرب هو الاسباني (جيرونيمو زوريتا) ، الذي كان حافظاً للوثائق في بلاط الملك الاسباني فيليب الثاني ، فقد أشار في « الحوليات » التي كتبها إلى أن ملك غرناطة المسلم حاصر مدينة آليكانت الاسبانية عام ١٣٣١ ،واستخدم في حصارها آلة جديدة سببت كثيراً من الرعب لأنها ترمي : « كرات حديدية بوساطة النار » وفي النص الاسباني حرفياً : « Pelotas de hierro que se lançavan Con feugo »[٣٣] •

ـ وهناك مصدر يتمتع بأهمية خاصة في هذا المجال وهو كتاب عن المخطوطات العربية ألّفه باللاتينية المؤرخ ميشيل غزيري وهو كاهن ماروني من أصل لبناني كان قيماً على مكتبة الاسكوريال • وقد تمكن بصفته هذه ، وبفضل إجادته للغة العربية ، وعدة لغات أوروبية أخرى من مطالعة عدد كبير من المخطوطات العربية واللاتينية ،ومنها مخطوط عربي لمؤلف اسمه شهاب

الدين حمد بن فضل الله العمري[٣٤] ،وقد أثبت الغزيري نقلاً عن مؤلف هذا المخطوط أن العرب توصلوا لتركيب مستحضرسماه باللاتينية(مسحوق النترات Pulvere Nitrato) [٣٥] ، وهي تسمية ترادف تماماً كلمتي (Poudre) الفرنسية و (Gun Powder) الانكليزية والاثنتان تعنيان (البارود) لا (ملح البارود) ٠ ومن المستحسن تأكيد هذا الفارق اللغوي،وذلك لدحض رأي بعض المستشرقين من أمثال (رينو) و (فافيه) ممن يعتقدون بأن التعبير اللاتيني الذي استخدمه الغزيري في كتابه[٣٦] ينطبق على (ملح البارود) لا على (البارود) نفسه[٣٧] ! ولاثبات عدم صحة هذا الرأي يكفي التذكير بأن مادة ملح البارود لا تشتعل وحدها،وإذا اشتعلت فليس لهادفع ولا قوة تفجير وتهديم ، بينما المادة التي ذكرها الغزيري في هذا المضمار ،وقال إن العرب استخدموها في القرن الثالث عشر في أثناء محاصرة القوات الاسبانية لغرناطة عام ١٢٧٥ م ، كانت تحدث مثل هذا التأثير ٠

وقد خلف الغزيري في منصب القيّم على مكتبة الاسكوريال المؤرخ الاسباني جوزيه أنطونيو كونديه (١٧٦٥ ـ ١٨٢٠) الذي استند إلى مخطوطات عربية عديدة ، ومنها مخطوطة لمؤرخ عربي معاصر للأحداث هو لسان الدين الخطيب الغرناطي (١٣١٣ ـ ١٣٧٤ م) ، الذي ذكر أن الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثاني استخدم المدافع في أثناء حصاره لمدينة (بازة) الاسبانية بين ١٣٢٣ و ١٣٢٥ م ٠ ففي وقائع شهر رجب من عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م)[٣٨] يذكر أن قوات المسلمين : « كانت تضرب المدينة نهاراً وليلاً بوساطة آلات ومخترعات تقذف بكرات نارية لها دوي هائل ٠

Comleatio la Ciudad de dia y noche Con maquinas y ingenios que lanza ban globos de fuego Con grande truenos »[٣٩] ٠

ويقول في مكان آخر واصفاً حصار العرب المسلمين لمدينة (طريف Tarifa) الاسبانية في عام ١٣٤٠م : «كان العرب يستخدمون آلات ومخترعات ترمي كرات ضخمة من الحديد بوساطة النفط ، وتسبب خراباً كبيراً في أسوار المدينة المحاصرة جيداً[٤٠] ٠

وإذا انتقلنا من اكتشاف البارود إلى اختراع المدافع حصراً وجدنا أن شمس الدين محمد المتوفى في دمشق عام ١٣٥٠ م ، ذكر في مخطوطة له صنّفها في أوائل القرن الرابع عشر ، وتوجد نسخة منها في مدينة سان بطرسبرج حالياً ، أن « المدفع » هو أنبوب حديدي يُربط على لوح خشبي بوساطة الحبال ، وأنه يجب ملء ثلث هذا الأنبوب فقط بالبارود عند تعميره (حَشْوِه) ، وإلا فانه ينفجر عند الرمي به . وقال إن طول أنبوبة المدفع (السَبَطانة) يجب أن يتناسب مع سعة فمه (أي العيار كما يُسمى في أيامنا هذه) ، ومثل هذا الشرح لا يتم إلا بعد معرفة طويلة ومعمقة للمدافع .

وفيما يتعلق بنسب تركيب البارود يحددها شمس الدين هذا بأنها يجب أن تكون كما يلي : ملح بارود ١٠، فحم ٢ ، كبريت درهم ونصف . وهي نسب قريبة جداً من نسبة تركيب البارود الحربي المستخدم في المدافع اليوم ، إذ إننا إذا قلبناها إلى نِسب مئوية نحصل على ما يلي : ٧٤٪ من ملح البارود ، ١٤,٨٪ من الفحم و ١١٫٢٪ من الكبريت ، علما بأن النسب المستخدمة حالياً هي : ٧٥٪ من ملح البارود ، و ١٥٪ من الفحم ، و ١٠٪ من الكبريت[٤١] ، وهذا ما يثبت بصريح العبارة أن العرب كانوا يعرفون المدافع ويستخدمون البارود كحشوة دافعة في أوائل القرن الرابع عشر ، بينما لم تجيء أول إشارة لاستخدام الأوربيين لهذا السلاح إلا في بداية الثلث الثاني من القرن المذكور .

ويلخص الدكتور سهيل زكار في كتابه « المدفعية عند العرب » هذا الرأي فيقول : « ويرى بعض الباحثين أن العرب عرفوا في هذه الفترة البارود واستخدموه كمادة متفجرة ثم قاذفة ومحرقة . ومن المؤكد الآن أن العرب كانوا أول من طوّر استخدامات البارود وأخذوا في إبداع الأسلحة الجماعية (المدفعية) والفردية المستخدِمة لهذه المادة . وثبت أن ذلك العصر شهد تطوراً عظيماً في الأندلس في مملكة غرناطة خاصة ، وفي المغرب الأقصى . وتحوي المصادر الاسبانية والعربية ، كما يوجد في مكتبة الاسكوريال قرب مدريد ، مخطوطات عربية تفيد أن عرب الأندلس استخدموا المدفعية منذ أوائل القرن الرابع عشر للميلاد ، هذا وهناك من يقول إن ذلك كان في القرن الثالث عشر للميلاد »[٤٢] .

وبالفعل فان المؤرخ المعروف « ابن‌خلدون» له رواية تدل على أن العرب المسلمين قد استخدموا البارود في احدى المعارك التي دارت في المغرب الأقصى عام ٧٧٢هـ/١٢٧٣م، فيقول في وصفه لمعركة سجلماسة : « ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبدالواد المتغلبين عليها، وادالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة ، فنازلها وقد حشد اليها اهل المغرب اجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر. ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات(٤٣) ، وهندام النفط القاذف بحصا الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة باريها »(٤٤) .

خلاصة الدراسة :

في ختام هذه الدراسة يمكننا القول إنه يجب الفصل بين مسألة « اكتشاف البارود » من جهة ، وبين استخدامه كقوة دافعة ومن ثم « اختراع المدافع » من جهة ثانية ، إذ أنه إذا كانت أغلب المصادر التاريخية الموثوقة تعتبر البارود اكتشافاً أو اختراعاً صينياً ، فان وضع هذا الاختراع موضع التطبيق في الأسلحة البارودية والمدافع هو أمر يمكن نسبته إلى كل من العرب والأوربيين والصينيين على السواء ، ولو أن الأطروحة الأكثر مصداقية هي تلك القائلة بأن العرب هم من استخدموا البارود كقوة دافعة لأول مرة في أواخر مرحلة الحروب الصليبية ، وذلك للرد على سلاح (النار اليونانية)(٤٥) الذي استخدمه البيزنطيون والصليبيون في محاربتهم بضراوة . وليس هناك من ضير في الاعتقاد بصحة الرواية القائلة بأن الاستخدام الأول للمدافع من قبل العرب المسلمين كان خلال معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م أو قبل ذلك بقليل .

وقد نقل الصليبيون كيفية استخدام البارود في المدافع عن العرب في نهاية أيام الحروب الصليبية (نحو ١٣٠٠ م) إذ استخدمه الأوربيون لأول مرة في أثناء حصار البنادقة والجنوبيين مدينة فلورانسا في عام ١٣٣٨م . وقد استخدم المغاربة والأندلسيون سلاح البارود منذ ١٢٧٣ م ، كما يظهر من رواية ابن خلدون المشار إليها أعلاه ، بل هناك بعض المصادر « التي تفيد أن عرب الأندلس وعرب المغرب استخدموا بعض الأنواع الأولى من المدافع منذ أوائل القرن الثالث عشر »(٤٦) .

ـ ومن هذا يتبين لنا أن العرب في المشرق والمغرب سبقـوا الأوربيين إلى استخدام البارود في المدافع بنحو قـرن من الزمان على الأقل ·

ولكن هذه الأسبقية الحربية يجب أن ألا تنسينـا ثـلاث حقائـق أساسيـة بالمقابل وهي :

١ ـ ان العرب لم يكونوا هم مخترعي البارود ، ولكنهم اخذوا هذه المادة من الصينيين وطوّروا استخدامها ·

٢ ـ ان العرب استخدموا البارود كسلاح ناري دفاعي في مواجهة (النـار البيزنطية أو اليونانية Greek Fire) التي استخدمها ضدهم الصليبيون بكثافة ·

٣ ـ اذا كان العرب أول من استخدم المدافع، فقد كانت مدافعهم أسلحة شبه بدائيـة ، الى أن أتى الأوروبيون بشكل عـام ، والألمان(٤٧) بشكل خاص ، فطوروا صناعـة المدافع بمهارة ، وجعلوا من هذه المدافع سلاحا بكل هذه القوة التدميرية وهذا الفتك في الحروب اللاحقة ·

☆ ☆ ☆

□ الحـواشـي :

١ ـ يصح في راينا استخدام تعبير « اختراع البارود » على اساس انه اختراع لتركيبته الكيميائية الخاصة ، كما يصح استخدام تعبيـر « اكتشاف البارود » على اساس ان المواد التي تدخـل في تركيبته موجودة جميعا في الطبيعة ·

٢ ـ انظر « الموسوعة العربية الميسرة » باشراف محمد شفيق غربال ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٣٠٧ ·

٣ ـ بطرس البستاني : « دائرة المعارف » ـ ص ٥٦ـ٥٨ ·

٤ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ مصدر مذكور قبـلاً ·

٥ ـ رشد الرفاعي : « البارود والبندقية : السلاح الناري الاول » ـ مجلة : « الدفـاع الخليجي » ـ العـدد ٢/يناير ١٩٩٣ ـ ص ٥٠ ·

٦ ـ الموسوعة العسكرية ـ المجلد الاول ـ ص ١٦٤ ·

٧ ـ المرجع نفسه ـ ص ١٦٥ ·

٨ ـ د. جرجي زيـدان : « تاريـخ التمـدن الاسلامي » ـ الطبعة الحديثة ـ تقديم الدكتور حسين مؤنس ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ص ٢٠٢ ·

٩ ـ الموسوعة العسكرية ـ المجلد الاول ـ ص ١٦٥ ·

١٠ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ باشراف محمد شفيق غربال ـ مذكور أعلاه ·

11— Pedro de Maxia: « Silva de Vario Lecion », Sevilla, 1842.

١٢ـ من المعلوم ان كلمة « شفارتز » تعني « الاسود » بالالمانيـة ·

١٣ـ من « دائرة المعارف » للبستاني ـ مذكور قبلاً ـ ص ٥٦ ·

14 — Juan de Mariana : « Historia General de Espana », 2' V. - Madrid 1608, P.. 27.

١٥ـ بما أن تاريخ كتابة المخطوط هو ١٦٣٢ ، فهذا يعني انالكتشاف القوة الحربية للبارود تم عام ١٣٦٧م ، وهو تاريخ منطقي لأنـه يقـع في الفترة التي عاش فيها شوارتز (١٣١٠ـ١٣٨٤ م) ٠
١٦ـ قـارورة ٠
١٧ـ جرن او هاون ٠
١٨ـ مضغوط ، محصور ٠
١٩ـ البـوب نـار ـ Bouche à Feu .
٢٠ـ بنـدقيـة ٠
٢١ـ كلمة محرفة عـن كلمة Mesquita الاسبانية وهي تعني « بارودة » ٠
٢٢ـ بهـذه المـواد ٠
٢٣ـ الأصل الأول لاختراع البارود ٠
٢٤ـ مخطوطة « العز والمنافع ٠٠٠ » ـ نسخة الخزانة العامة بالرباط ـ ص ١٣ ٠
٢٥ـ بطرس البستاني ـ مذكور أعلاه ـ ص ٥٧ ٠
26 — J. R. Partington : « A History of Greek fire and gunpowder » - Heffer - Cambridge 1960, P. 193.
٢٧ـ قارن مع ما تذكره الباحثة رغد الرفاعي (مرجع مذكور اعلاه) حول استخدام البارود في المكان عينه والزمان نفسه٠
٢٨ـ يسمي بارتنجتـون هـذه الصناديق باسم « الاانابيب المشتعلة « Tubes of incendiaries .
٢٩ـ راجع كتابنا « الحياة العسكرية عند العرب » ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٤ ٠
٣٠ـ قارن مع النص الذي اورده عبدالرحمن زكي في كتابه « معركة المنصورة » ص ٧٤ ٠
٣١ـ الأصح : الرابع عشر ٠
٣٢ـ انظر : Tout l'Univers, P. 454 وقد نقلت مجلة « المعرفة » القاهرية الموسوعية هذه المعلومات بعد ذلك عن المجلة المذكورة ٠
33 — Geronimo Zurita : « Los Anales de la Corona de Aragon », 1562 - 1580.
٣٤ـ هو شهابالدين بن فضلالله العمري المتوفي سنة ١٣٤٩، ونعتقد بان المخطوط المقصود هو : « المسالك في معرفة الممـالـك » ٠
35 — Michel Cassiri : « Bibliotheca Arabico » - 2 Vol. - Madrid 1770.
٣٦ـ ذات المرجـع ٠
37 — Renaud et Favé : « Du Feu Grégeois, des Feux de guerre et de la Poudre chez les Arabes, les Persans et les Chinois » in : «Journal Asiatique» - 1849, XIV, PP. 257-327.
٣٨ـ لتحويل التواريخ الميلادية الى هجرية وبالعكس استخدمنا المعادلة التالية : $م = هـ - \frac{هـ \times ٣}{١٠٠} + ٦٢١٫٦$ ٠
39 — J. A. Conde : « Historia de la dominaçion de los Arabes en Espana » - Paris, 8ᵉ Ed. Baudry.
٤٠ـ ذات المرجـع ٠
٤١ـ هذه النسبة هي التي حددها ايضا ابن غانم الأندلسيفي مخطوطته : « العـز والمنافـع ٠٠٠ » ـ مذكورة قبلا ٠
٤٢ـ د. سهيل زكار : « المدفعية عند العرب » ـ دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٣ ٠
٤٣ـ العرادات هي المجانيـق الصغيرة ٠
٤٤ـ تاريخ ابن خلدون ـ ج ٧ ـ ص ٣٨٨ ٠ وقارن مـع كتاب الدكتور سهيل زكـار ـ مذكور اعلاه ـ ص ٣٥٢ ٠
45 — Feu Grégeois - Gréek Fire.
٤٦ـ د. سهيل زكار ـ مذكور قبلا ـ ص ٣٥٢ ٠
٤٧ـ يسميهم ابن غانم الاندلسي « الطظشتكش » نقلا عن الكلمة الاسبانية Tudescos .

الخطابة السياسية في صدر الاسلام

د. عدنان محمد أحمد

في اعقاب ذلك التحول الجذري الذي شهده المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية ، وانتقل بفضله من مجتمع الوحدات السياسية المتفرقة والمتناحرة ، في كثير من الاحيان ، الى مجتمع العقيدة الواحدة ، والدولة الواحدة ذات النظام السياسي الواضح الشامل ، بدات الخطابة العربية تخطو خطا جديةفي معالجة الامور السياسية والخوض في مشكلاتها ، يدفعها الى ذلك تلك الاحداث الكبيرة المتلاحقة التي شهدها ذلك العصر ، والتي تركت اثرا باززافي التاريخ العربي عبر عصوره اللاحقة .

وقد راحت الخطابة السياسية في هذا العصر ـ عصر صدر الاسلام ـ تنمو بسرعة تلاحق الأحداث التي واجهتها الدولة الجديدة بعد غياب الرسول (ﷺ)؛ مؤسس هذه الدولة وزعيمها الأول . حتى إذا جاء العصر الأموي بمناخه الملائم نضجت تماماً ثمارها التي حملتهامن قبل وتوضحت ألوانها .

كانت أولى الأزمات بعد وفاة الرسول (ﷺ) هي مشكلة الحكم التيطرحت بصوت مسموع لأول مرة في تاريخالدولة الفتية . إذ لم يكن هناك نصّ واضح يعالج هذا الأمر ، ولم تكن هناكتجربة سابقة يمكن الاستفادة منها ، والعمل بهديها . فالرسول (ﷺ) ، الزعيم الأول ، لم يخلف تجربة في هذا المجال ، فلم يكن هناك انفصال في أذهانالمسلمين بين السياسة والدين ، فكان اعتناق الدين يعني ضمناً الاقرار بالزعامة السياسية للرسول (ﷺ) ، ويبدو

ذلك بوضوح من خلال المعاهدة التي تمت بين الرسول (ﷺ) وجماعة من الأنصار في بيعة العقبة الثانية ، إذ قال أبو الهيثم بن التيهان : « يارسول الله ، إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنّا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ »[1] . وفور المبايعة وضعوا أنفسهم تحت قيادته ، إذ قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذي بعثك بالحق : إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا ؟ قال : فقال رسول الله (ﷺ) : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم »[2] .

وعندما دخل الرسول (ﷺ) المدينة كان الاسلام قد انتشر فيها ، فكان المسلمون مقرين بزعامته . وكان قد سبقه إليها المهاجرون المقرون بزعامته من قبل ، وهناك راح يمارس ، دون منافسة ، دوره القيادي المزدوج : السياسي والديني .

ولم تكن الخلافة هي الأزمة الوحيدة التي كان على الدولة الاسلامية أن تواجهها ، اذ لم تنته هذه الأزمة بتسلم أبي بكر الصديق (ر) خلافة المسلمين حتى قامت حركة الردة، وادعى بعض الكهان النبوة ، واستطاعوا بمايمتلكون من قوة تأثيرية كبيرة ، من جمع حشد كثير استطاع ان يشكل خطراً محدقاً بالمسلمين . فحشد هؤلاء قواهم المادية والمعنوية ، لكي يتمكنوا من القضاء على هذه الحركة .

ثم كان اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ر) إيذاناً باضطراب الاستقرار السياسي الذي ساد أجواء الدولة الاسلامية ، ومؤشراً هاماً على أن بعض القوى السياسية ، التي أخذت ملامحها بالارتسام بعد وفاة الرسول (ﷺ) بمدة قصيرة ، كانت تنمو في الخفاء ، وبلغت مرحلة من النضج تمكنها من الدفاع عن مصالحها بأساليبها الخاصة . ولم تتوافر لعثمان بن عفان (ر) ، الخليفة الثالث ، الحنكة السياسية اللازمة لارضاء جميع الأطراف ، أو لاضعاف الحركات المعارضة . وهكذا بدأت ، في أواخر عهده ، الفتن التي انتهت بمقتله .

وازدادت الأحداث خطورة في عهد علي بن أبي طالب (ر) ، الخليفة الرابع، وازدادت تعقيداً ، وأخذ المجتمع الاسلامي بالانقسام ، وسادت الاضطرابات أجواءه ؛ فمن الجمل إلى صفّين ، إلى انقسام الخوارج وموقعة حروراء

والنهروان ۰۰ إلى غير ذلك من أحداث شهدها ذلك المجتمع في مدة لم تتجاوز خمس سنوات بكثير ، في أكثر الآراء تسامحا[٣] ۰

وإذا كانت الخطابة السياسية تنشط وتزدهر في البيئات التي لا يتوافر فيها الاستقرار السياسي[٤] فان الأحداث التي شهدها هذا العصر ، ولا سيما في أواخر خلافة عثمان (ر) وفي خلافة علي (ر) ، كانت تربة خصبة لنمو هذا اللون من الخطابة وتبلور ملامحه وقسماته ۰

فقد ارتفعت الأصوات تطالب بسياسة أفضل وأقوم في عهد عثمان (ر) وتعلن سخطها على النظام القائم ، بل تشكك في شرعية الحكومة في بعض الأحيان، وتطالب بحقها في الخلافة في أحيان أخرى ۰ وكان الخلفاء ، ومن معهم ، يردون على أولئك ، فيوضحون الملابسات ، ويؤكدون صحة موقفهم وصدق إيمانهم ۰ وفي هذه الأجواء تكثر الخطب التي يتوجه بها الخطباء إلى الجماهير لاثارة مشاعرهم ، وتحريك عواطفهم ، والتأثير فيهم ، واستمالتهم وإقناعهم بما يريدون ۰

وكان للمعارك التي خاضها الدين الجديد ، وللفتوحات الكثيرة التي شهدها هذا العصر ، أثرها في نشوء هذا اللون من الخطابة ، إذ كانت إثارة مشاعر الجند وشحذ عزيمتهم ، وترغيبهم بالجهاد ، وشرح الخطط الحربية والأمور المتعلقة بها ، وتبليغ الجند الأوامر الصادرة عن الخليفة في العاصمة البعيدة ، والتوجيهات التي ترسلها القيادة ۰۰ الى غير ذلك ، كل هذا من شأنه أن يغذّي الخطابة السياسية ، لأن الخطابة هي الأسلوب الأمثل لمعالجة تلك الأمور ۰

كذلك كان انتقال كثير من القبائل العربية من الحياة البدوية الى الحياة الحضرية في هذا العصر سببا من أسباب نشوء الخطابة السياسية وتطورها ، فقد كانت الأعراف والتقاليد هي القوانين التي تحكم القبيلة ، أو تحكم القبائل في علاقاتها ، إذ لم يكن هناك قانون غير ذلك ، فقد « تقيّد الجاهليون بعرفهم وعاداتهم تقيدا شديدا ۰ والعرف عندهم هو ما استقرّ وثبت في أذهانهم

حتى صار في حكم الدين ، ومن خلال هذا العرف يعرفون الحلال والحرام ، والمباح والمحرم ، ولقد كانت أحكام أسيادهم هي التشريع والافتاء والحق ديناً ودنيا(٥) • وتلك الأعراف كانت معروفة من قِبَل الأفراد المتعاملين بها ، وكانت تنتقل اليهم بالتربية التي يتلقونها كل يوم • ولم يكن زعيم القبيلة يحتاج إلى توضيحها أو إلى توضيح سياسته التي ينتهجها بالحكم ، لأنه كان يسير على خطة أسلافه الواضحة والمعروفة •

وقد اختلف هذا الواقع بعد توحيد القبائل في ظل الدولة الاسلامية ذات الدستور الجديد والنظام السياسي والاداري الواضح • وصار الحاكم ــ الوالي ــ يعين من قِبَل الخليفة على مدينة ، أو ولاية ، قد يكون غريباً عنها • وحتى الخليفة نفسه كان يتسلم مقاليد الخلافة بطريقة جديدة لم تكن معروفة من قبل • وقد أوجد ذلك كله ضرورة إطلاع الحاكم رعيته على السياسة التي سينتهجها أو الخطة التي سيسير عليها ، في ظل النظام الاسلامي الذي جعل أمرهم شورى بينهم ، يستشيرهم في ما يعترضه من أمور وخطوب ، ويسترشد برأيهم • ولم تكن هناك وسيلة أفضل من الخطابة للتعبير عن ذلك كله •

وهكذا تناولت الخطابة السياسية جميع الموضوعات المتعلقة بشؤون الدولة وأمورها العامة ، سواء أكانت تلك الموضوعات داخلية أم خارجية • فقد تعرضت الخطابة للحديث عن خطة الحكم من الناحية السياسية والدينية ، ومن الناحية الاقتصادية في بعض الأحيان • كما تعرضت لما يتعلق بالحكم ، وما يرتبط به ، كالحديث عن أحقية هذا أو ذاك في الخلافة ، والحديث عن الواجبات المترتبة على الحاكم والرعية ، كلّ منهما تجاه الآخر وتجاه الدولة • كما تناولت توضيح الملابسات الحاصلة في بعض الفتن والأحداث ، ولا سيما في الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ر) • كذلك كانت نتيجة التحكيم المشهورة ، التي قضت بعزل عليّ (ر) وتثبيت معاوية ، من الأحداث الهامة التي تناولتها الخطابة السياسية ، فأعلن أصحاب علي (ر) بطلانها لمخالفتها الحق ، وأعلنوا عدم التزامهم بها ، بينما اعتبرها معاوية وأصحابه مكسباً سياسياً واتخذوها حجّة ضد أولئك •

ويدخل في نطاق الخطب السياسية، بمدلولها الواسع، تلك الخطب التي القيت لتشجيع المقاتلين، قبيل الغزوات والمعارك والفتوحات، وكذلك تلك الوصايا التي كان الخليفة، أو الوالي، يوصي بها قائد الجيش، والتوجيهات التي كان يزوده بها، وهو في طريقه نحو الغاية التي أرسل من أجلها، وكذلك الوصايا أو التوجيهات التي كان الجنود يتلقونها من قوادهم ٠

ويمكن أن نقسم الخطابة السياسية في هذا العصر الى الأنواع التالية :

١ ـ الخطب السياسية الخالصة ٠
٢ ـ المشاورات السياسية ٠
٣ ـ المناظرات السياسية ٠
٤ ـ خطب الحض على الجهاد ٠
٥ ـ الوصايا السياسية والحربية ٠

اولاً ـ الخطب السياسية الخالصة :

لم يكن للجماعة الاسلامية قبل الهجرة إلى المدينة كيان سياسي، أو نظام إداري، يقتضي وجود خطابة سياسية، ولم يكن لها علاقات سياسية تهدف الى تأسيس الدولة الاسلامية المستقبلية، التي كان الرسول (ﷺ) يتطلع إليها، فيما عدا بيعتي العقبة الأولى والثانية اللتين كانتا « حجر الأساس » في بنيان تلك الدولة، وقد اتخذت البيعة الأولى منحى دينياً خالصاً، إذ بايعه الأنصار على عدم الاشراك بالله، وعلى الامتناع عن الزنى أو قتل الأولاد ٠٠٠ فان فعلوا شيئاً من ذلك فأمرهم الى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر[٦] ٠

أما في البيعة الثانية فقد ظهرت بوادر اتجاه سياسي في العلاقة بين الرسول (ﷺ) والأنصار، لأن الاسلام كان قد انتشر في المدينة، وصارت الهجرة إليها أمراً ممكناً ٠ فكان على الرسول (ﷺ) أن يستوثق من جماعة الأنصار له وللمسلمين إذا هاجروا إلى المدينة ٠ وهكذا بايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم[٧] ٠ وطمأنهم (ﷺ) من جانبه حين استوثقوا لأنفسهم منه، وسألوه عن بقائه معهم مهما جرى، وعدم التخلي عنهم، فقال (ﷺ) : « بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم »[٨] ٠

وقد خلفت بيعة العقبة الثانية خطباً قليلة ، يمكن لنا بشيء من التوسع أن ندخلها في إطار الخطب السياسية . منها خطبة العباس بن عبدالمطلب ، وكان ما يزال على دين قومه ، إلاّ أنه أحب أن يتوثّق لابن أخيه ويحضر البيعة معه ، فقال مخاطباً الأنصار : « يا معشر الخزرج ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّ من قومه ومنَعَة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له ، بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فانه في عزّ ومنعة من قومه وبلده »(٩) .

ومن تلك الخطب ايضا خطبة العباس بن عبادة بن نضلة الانصاري، التي توجه بها الى الخزرج ، لتنبيههم الى خطورة الأمر الذي هم فيه . وما يترتب عليه من واجبات ثقيلة ، قد يكون الانفعال الديني حال بينهم وبين ادراكها او الانتباه اليها(١٠) .

وطبيعي أن تدور موضوعات هذه الخطابة حول توثق كل طرف من التزام الطرف الآخر به ، والتزام كل طرف واستعداده لتحمل تبعات هذا الالتزام . وكان الرسول (ﷺ) والأنصار يدركون أن احتضان المدينة للدعوة الجديدة ، التي حاربتها قريش وحاولت قتلها في المهد ، سيقودها إلى مواجهات وأزمات . والواقع أن تنفيذ المعاهدة كان يعني وجود دولة إسلامية ستشكل خطراً على الكيانات السياسية الموجودة في الجزيرة العربية ، وعلى الأنظمة القائمة فيها ، وهذا سيؤدي إلى نشوب حروب كثيرة على الدولة أن تخوضها ، ويجب على الطرفين المتعاهدين أن يدركا ذلك ، وأن يكونا على استعداد كامل له ، لأن إخلال أي منهما بوعده سيكون له نتائج لاتحمد عقباها .

لكن النشاط السياسي المكثف كان بعد الهجرة إلى المدينة ، إذ كان على الدولة الاسلامية أن تحدد علاقاتها مع الآخرين ، وأن تقوم بالدور المرجو منها في أن تكون مركزاً لنشر الدين الجديد ، ونواة للدولة الاسلامية المنشودة . على الرغم مما سيعترضها في تنفيذ هذه المهمة من عقبات ليس من السهل تذليلها . وعلى الرغم من أن إطار العلاقات السياسية أخذ في الاتساع حتى وصل إلى

الروم والفرس بعد الحديبية ، فانه لم تصلنا خطابة إسلامية سياسية تعود إلى ذلك العهد . فالعلاقات السياسية كانت تأخذ طابع المعاهدات والمواثيق المكتوبة ، والموقّع عليها من قِبَل الجانبين . وكانت أحياناً أخرى في شكل رسائل ، بسبب البعد ، وعندئذ يغلب أن تحمل دعوة إلى الدين . وفي الحالتين لا تستطيع الخطابة أن تقوم بالدور المطلوب . ولكن هذا التعليل لا يكفي لنفي ضياع بعض الخطب التي قيلت في هذه المناسبات أمام المسلمين ، على الأقل . وهكذا ينتهي عهد النبوة من دون أن نجد للرسول (ﷺ) أو لأحد ولاته خطبة سياسية خالصة .

لكن ما افتقدناه في عهد النبوة يطالعنا في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، إذ أخذ الخلفاء والولاة يوضحون عند وصولهم إلى السلطة خطّتهم في الحكم ، والسبيل التي سيسلكون في التعامل مع الرعية ، دون إشارة من قريب أو بعيد إلى ذكر سياسة الدولة الخارجية . ومن أمثلة ذلك خطبة أبي بكر الصديق (ر) التي ألقاها بعد البيعة والتي يقول فيها بعد حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله : « أما بعد أيها الناس ، فاني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ... »(١١)

وفي معظم الأحيان كانت تسير خطب هذه المناسبات على هذه الشاكلة ، ونلاحظ غلبة الطابع الديني عليها . بل إنها قد تتحوّل إلى خطبة دينية خالصة في بعض الأحيان ، كما نجد في خطبة عبادة بن الصامت في أهل حمص ـ وكان عمر بن الخطاب (ر) قد استعمله عليهم ـ إذ لا نجدُ ذكراً فيها لخطة الحكم أو غير ذلك من الأمور المتعلقة بالسياسة ، وإنما نراه يحذرهم من غرور الدنيا ، ويذكرهم بالآخرة والحساب ، ويدعوهم إلى العمل الصالح(١٢) . ولا غرو في ذلك فقد كانت شخصية الحاكم دينية سياسية في آن .

غير أن أحوال العصر السياسية ، والفتن، التي سبقت عهد علي بن ابي طالب (ر) كان لا بد أن تترك اثرها في خطبته التي القاها بعد توليه • فهو لا يوضح خطته في الحكم ، ولا يدعو الناس الى العمل الصالح او يذكرهم بالآخرة ، كما فعل اسلافه ، وانما يستكشف صورة المستقبل من خلال احداث الحاضر ، ويخبر الناس بما تحمله الأيام المقبلة من عذاب ، ومن خروج عن النهج الصحيح الذي رسمته الشريعة الاسلامية ، فيقول : « الا وانَّ بَليتكُم قد عادت كهيئتها يومَ بعثَ الله نبيَّهُ • والذي بعثه بالحق لتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ولتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، ولتُساطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ ، حتى يعودَ اسفلُكُمْ أعلاكُم ، واعلاكُم اسفلكُم ••• »(١٣) •

والواقع أنَّ تلك الفتن والأحداث نحت بالعلاقة مع السلطة منحىً آخر لم يكن معهوداً من قبل في دولة المسلمين ، فترك ذلك أثره في ظهور ظاهرة جديدة في خطب هذه المناسبات ، لم تكن معروفة من قبل ، وهي التهديد • وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في خطبة سعيد بن العاص الذي أرسله عثمان (ر) والياً على الكوفة ، فحاول منذ وصوله أن يرمي الرعب في قلوب أهل الكوفة ليضمن طاعتهم وكانوا معروفين بأنَّهم لا يرضون عن أمير، ولذلك لم يطِل خطبته فيهم، ولم يدعُهم إلى الصلاح والورع ، وإنما عبَّر عن خطته بايجاز قائلاً: « والله لقد بُعِثتُ إليكم وإني لكاره ، ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن أئتمر ، الا إنَّ الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، ووالله لأضربَنَّ وجهها حتى اقمعها أو تعييني، وإني لرائد نفسي اليوم »(١٤) •

وكما كان الخليفة يشير إلى خطته في الحكم ، كان يشير في بعض الأحيان إلى ما أنجزه من مهام ، وما قام به من أعمال، كما نرى في خطبة عمر بن الخطاب (ر) التي القاها عندما أراد القفول من الشام، وكان فيها ، إذ أشار إلى أنه أعطاهم حقوقهم بالعدل ، وأمَّن لهم سُبل الدفاع، وأمر ولاتهم بالسير فيهم بالعدل(١٥)•

كذلك كان على الخليفة أن يشير إلى نتائج الحروب والفتوحات التي كانت تقوم بها الجيوش الاسلامية ، إذ كان عليه أن يحيط الرعية علماً بما يحدث على الجبهات البعيدة ، والخطابة هي وسيلة الاعلام التي كانت تقوم بهذه المهمة •

ولكن الخطابة السياسية اتجهت إلى افق جديد بتأثير الأحداث السياسية

والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الاسلامية في أواخر عهد عثمان (ر) وبعد أن كان الخليفة يدعو الناس إلى مساعدته في إنجاز مهامه، وتقويمه إذا حادت به الغفلة قليلاً عن الصراط المستقيم، نرى عثمان (ر) عندما أحسّ بخطر الفتنة يهدّد ويتوعد ظناً منه أنّ في ذلك رادعاً كافياً لمن يفكر بالخروج على طاعته. وهو يشير أيضاً إلى أنصاره وكثرتهم وقوتهم، ويدافع عن نفسه، ويرد على المآخذ التي أخذت عليه فيقول: «أما والله لقد عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم. ولِنتُ لكم، وأوطأتكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ. أما والله لأنا أقرب ناصراً، وأعزّ نفراً، وأكثر عدداً، وأحرى إن قلت هلمّ أن يُجاب صوتي، ولقد أعددت لكم أقراناً وكشّرت لكم عن نابي ...»(١٦).

وهكذا يرى عثمان (ر) أن السر في الهدوء الذي ساد عهد عمر (ر) يرجع إلى استخدام عمر (ر) للقوة والقمع، فيقرر استخدام هذا السلاح والتخلي عن الليونة التي جرّأت الناس عليه، كما يقول. لكن الأحداث كشفت له أنه لم يضع يده على «السر الحقيقي» وأن التهديد بالقوة والعنف كان يستفز الناس أكثر مما يخيفهم، وأن زمام الأمور خرج من يده ولن يفيده تبديل السياسة شيئاً.

وهذه اللهجة القاسية تعود إلى الليونة، بعد أن طال الحصار عليه، دون أن تأتي قوات من الأمصار لنجدته؛ ويكتشف أن الآمال التي بنى عليها كلامه كانت سراباً خادعاً، وأنه ليس أقمن، إنْ قال: هلم، أن تجاب دعوته من عمر، لأنه، كما يبدو، كان معتمداً على أسرته الأموية التي قرّبها، فكانت سبباً في تفاقم الفتنة، وكانت لها طموحاتها الخاصة، وليست على استعداد للتخلي عنها، بينما اعتمد عمر (ر) على بناء قاعدة جماهيرية صلبة وواسعة، واستطاع، بما آتاه الله من موهبة، أن يقيم بين جماعاتها معادلة توازن دقيقة ولّدت الأمن والاستقرار.

وبعد المفاجأة التي صدمت الخليفة عثمان (ر) تغيب عن خطابته أساليب التهديد والوعيد، وتميل إلى المسالمة والموادعة، فيعلن توبته بعد أن يعترف

بخطئه[١٧] . لكنه يرفض قبول طلب الثوار في التنازل عن الخلافة : « أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمّصنيه الله عز وجل ... »[١٨] . وهكذا يتمسك بنظرية الحق الالهي التي هي أقدم النظريات حول أساس السلطة[١٩] .

وبعد مقتل عثمان (ر) وتسلم عليّ (ر) الخلافة ، سادت حالة من التوتر على البلاد التي شهدت أحداثاً عظيمة ، وشهد المجتمع الاسلامي انقساماً بين مؤيّد للخليفة الجديد ومعارض . وكان من شأن ذلك أن يدفع بالخطابة السياسية إلى آفاق جديدة ، وأن يمدّها بمقومات نموّها واكتمالها .

لقد كان لكل فريق من المسلمين خطباؤه الذين يؤيدون موقفه ويرونه صواباً ، ويتّهمون الفريق الآخر ويدعون إلى مقاتلته . وكلٌّ يعرض حججه وإثباتاته . أما المعارضون لعليّ (ر) فكانت خطبهم في الحضّ على الجهاد ، وسنشير إليها فيما بعد . أما خطابة علي (ر) وأنصاره فيمكن أن نشير إلى أبرز الأفكار التي وردت فيها ، والتي كان الخطباء يتكئون عليها في مواجهة خصومهم :

١ ـ الاحتجاج لحق عليّ (ر) في الخلافة :

كان علي (ر) يرى أن الخلافة حقه الذي أخذ منه ، منذ وفاة الرسول (ﷺ) ، وهو يشير إلى ذلك كثيراً في خطابته ، وكذلك أصحابه . ويشير أيضاً إلى أنه صمت عن المطالبة بهذا الحق حرصاً على وحدة المجتمع الاسلامي ، الذي لم يكن قد بلغ درجة من التماسك والنضج تجعله قادراً على مواجهة أزمات داخلية . يقول علي (ر) : « إن الله لما قبض نبيه استأثرت علينا قريش بالأمر ، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة ، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين ، وسفك دمائهم . والناس حديثو عهد بالاسلام ، والدين يمخض مخض الوَطْب ، يفسده أدنى وهن ... »[٢٠] .

كذلك يشير عليّ (ر) إلى أنه بعد تسلمه منصب الخلافة ، ووصوله إلى هذا الحق ، بمبايعة جمهور المسلمين ، الذين انثالوا عليه بعد مقتل الخليفة

السابق ، ورجوه أن يقبل تسلم الخلافة، خرج على طاعته جماعة منهم دون حق : « فلما نهضت بهذا الأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون »[٢١] • وهذه الأفكار جميعا تتردد في خطب أصحابه أيضاً •

٢ ـ الرد على المطالبين بدم عثمان (ر) :

تذرّع المعارضون لعلي (ر) في محاربتهم له ، بحجة الطلب بدم عثمان (ر) ، ورأوا في عدم القصاص من القتلة تقصيراً من عليّ (ر) ، ودليلاً على إدانته • فاتهموه بمشاركة القاتلين فعلتهم بتحريضهم للقيام بها ، أو بالتستر عليهم • ورغم أن علياً وضّح لطلحة والزبير موقفه ، وأشار إلى المخاطر التي ينطوي عليها القصاص ، والمشاكل التي يجرّها إلى المسلمين وإلى الدولة الاسلامية[٢٢] ، فانهما ـ رغم إظهار الموافقة على موقفه وعلى رأيه ـ لم يجدا بدّاً من الخروج عليه ، مشدودين ببريق مطامحهما السياسية ، والتي يتعذر الوصول إليها دون التغلب على الخليفة الصارم • وقد وجدا أن إثارة المشاعر الدينية أيسر السبل وأكثرها نجاحاً ، في استقطاب الجماهير ، وإيجاد القوة اللازمة لتحقيق ذلك • فرفعوا شعار المطالبة بدم عثمان (ر) •

ولم يكن عليّ (ر) وأصحابه يجهلون الدوافع الحقيقية للاتهامات التي يوجهها المعارضون ، والشعارات التي ينادون بها ، فراحوا يردّون عليهم ويفنّدون مزاعمهم ، ويذكرون موقفهم من عثمان (ر) أثناء الفتنة ، وأنهم لم يكونوا مناصرين • ويشير الأشتر النخعي إلى أن طلحة والزبير أول من ألّب الناس على عثمان (ر) ، وأول من سعى ضده ، فان كانا صادقين فيما يدعوان إليه فليقتصّا من نفسيهما أولاً : «فان زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليُقيدا من أنفسهما ، فانهما أول من ألّب الناس عليه ، وأغرى الناس بدمه •••»[٢٣] •

٣ ـ الطعن في الخصوم :

تشير خطابة علي (ر) وأنصاره إلى أن المعارضين لعلي قد خرجوا عن الحق حين نكثوا البيعة ، وخرجوا عن طاعة الخليفة الشرعي ـ الذي اختاره

المسلمون ـ ظلماً • ولم يكن همّهم الطلب بدم الخليفة المقتول ، كما يدّعون ، وإنما كان سعيهم لمآرب أخرى شخصية • يقول علي في خطبة له : « وإنما طلبوا هذه الدنيا حسداً لِمَن أفاءها الله عليه ، فأرادوا الأمور على أدبارها »(٢٤) •

وكما استغل خصوم علي (ر) وجود السيدة عائشة أم المؤمنين (ر) في صفوفهم ، لاثارة المشاعر الدينية في الجماهير ، واستمالتهم ، وإقناعهم بشرعية موقفهم وعدالته ، لما تحمله من معان دينية لكونها زوجة الرسول (ﷺ) ، حاول علي (ر) وأصحابه استغلال فعلة طلحة والزبير باخراج أم المؤمنين (ر) معهما إلى ساحة الحرب ، وتعريضها للمشقة والخطر ، في حين تركا نساءهما في بيوتهما بعيداً عن ذلك • يقول علي (ر) : « فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله (ﷺ) كما تُجر الأَمة عند شرائها ، متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول الله (ﷺ) لهما ولغيرهما ... »(٢٥).

٤ ـ تأنيب علي (ر) لأصحابه ، ولا سيما بعد التحكيم :

انطفأت جذوة الحماسة ، أو كادت ، في نفوس أغلب المقاتلين العراقيين ، بعد أن دبّ الخلاف في صفوفهم ، إثر دعوة معاوية للتحكيم ، وبعد أن ملّ العراقيون الحرب الطويلة •

لقد كثف معاوية نشاطه بعد التحكيم ، سياسياً وعسكرياً ، ضد علي (ر) ، محاولاً استغلال الأوضاع التي آل إليها جيش العراق إلى أبعد حدٍّ ممكن • ولم يكن علي (ر) قادراً على إحباط محاولات معاوية وجهوده ، بسبب الحالة التي آل إليها جيشه ، فكان يتألم لتثاقل أصحابه عن الجهاد ، ومخالفتهم له في الرأي ، ويؤنّبهم لتفرقهم عن حقهم واجتماع أصحاب معاوية على باطلهم(٢٦) • وهو دائماً يشير في تأنيبه لأصحابه إلى أن أصحاب معاوية سينتصرون على أصحابه ، ليس لأنهم أكثر قوة أو أقرب إلى الحق ، ولكن لطاعتهم صاحبهم ، وتمسكهم به ، وعدم مخالفتهم لشيء من أوامره ، وينظر علي بكثير من الحسرة والألم إلى هذه المفارقة في تفرّق أصحابه عنه ، وهو على الحق ،

واجتماع أهل الشام على معاوية ، وهو على الباطل ، حتى ليتمنّى أن يبادله معاوية الرجال فيأخذ منه عشرة ويعطيه رجلاً واحداً ، فيقول : « أيها القوم الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم ، المُبتَلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه ! لوددت والله أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ؛ فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم »[٢٧] .

والواقع أنّ مشكلة التحكيم أوجدت أفكاراً جديدة تتردد في خطابة علي (ر) السياسية غير تأنيبه لأصحابه . فلم يكن لانفصال جماعة الخوارج عن جيشه أثر عسكري وحسب ، وإنما كان له أثره السياسي أيضاً . فقد طرحت أكثر من إشارة استفهام حول صحة موقف علي (ر) من التحكيم، وأخذت الثقة تتزعزع في النفوس ، حتى إنّ رجلاً من أصحابه قام إليه فقال : « نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندرِ أي الأمرين أرشد»[٢٨] .

حاول علي (ر) أن يعيد جماعة «الخوارج » إلى صفوفه ، فراح يدعوهم إلى عدم الفرقة ، ويبيّن لهم صحة موقفه محتجاً على ذلك بالقرآن الكريم والحديث الشريف[٢٩] ، ويذكرهم بأنهم هم الذين طلبوا التحكيم[٣٠] .

وبعد إعلان نتيجة التحكيم يعترض علي (ر) وأنصاره على النتيجة ، بحجة أنّ الحكمين نقضا العهد الذي أعطياه ، وحكما بأهوائهما وليس بالقرآن . فكانت هذه الأفكار تتردد في خطابتهم السياسية . يقول الحسن بن علي (ر) : « أيها الناس ، قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بُعثا ليحكما بالقران دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن ... »[٣١] .

ولا تخلو خطب علي السياسية من إشارات إلى إصراره على متابعة قتال المنشقين عنه حتى يرجعوا عن الباطل ويقوم الحق[٣٢] .

ثانياً ـ المشاورات السياسية :

والمشاورات هي أحد أصناف المخاطبات عند المنطقيين[٣٣] ، ولكنهم يعنون بهذا الاسم شيئاً أوسع مما نريده نحن هنا ، إذ يرون أنها الخطب التي تعالج

أمراً غير حاصل فعلاً ، ولكنه يحصل في المستقبل[٣٤] • ويرون أن غاية الخطيب منها « إقناع الجمهور على فعل ماهو خير لهم وفيه مصلحتهم ، والاقلاع عن المساوىء والشرور وما يضرهم »[٣٥] •

أما ما نعنيه هنا بخطب المشاورات فهي تلك الخطب التي قيلت في معالجة أمر من الأمور الواقعة الآن أو التي قدتقع في المستقبل بهدف الوصول إلى قرار موفق وصائب • فقد كانت خطورة الأحداث السياسية التي شهدها صدر الاسلام تدعو الحاكم في أغلب الأحيان لاستشارة ذوي الرأي من المسلمين ، وتبادل الآراء معهم ، في محاولة للوصول إلى اتخاذ القرار المناسب بشأن هذا الحدث أو ذاك • وكان الرسول (ﷺ) يستشير أصحابه دائماً عندما يتعرض المسلمون لأمر هام[٣٦] ، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون (ر) وولاتهم •

ولم يكن من الضروري أن تعقد مجالس خاصة يختلي فيها ذوو الرأي والتشاور ، فكثيراً ما كان يتم هذا الأمر في المساجد ، أو في ساحات القتال أمام الملأ ، إذ يخطب الحاكم ـ أو القائد ـ مُعلناً ما يعقد العزم عليه ،وطالباً الرأي والنصيحة من ذوي الرأي ، فيقوم هؤلاء ويدلون بآرائهم ، وكثيراً ما تكون ردودهم بشكل خطبة يؤيدون فيها فكرته ، ويشجعونه على المضي فيما يراه ، أو يعترضون ، وعندئذٍ يقدمون آراءهم واقتراحاتهم التي يرونها أفضل أو أكثر جدوى • وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء يعرضون آراءهم إزاء هذا الحدث أو ذاك من الأحداث الجارية دون دعوة لاستشارتهم[٣٧] •

ومن تلك المشاورات ما كان بين الرسول (ﷺ) وأصحابه قبيل معركة أحُد ؛ فقد رأى (ﷺ) رؤيا ، فلما أصبح واجتمع المسلمون ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ،إني قد رأيت في منامي رؤيا ؛ رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انفصم من عند ظُبَتِه، ورأيت كأني مردف كبشاً • فقال الناس: يا رسول الله فما أوَّلتَها ؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها،وأما انفصام سيفي عند ظبته فمصيبة في نفسي ، وأما أني مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله »[٣٨] ،

وقال (ﷺ) لأصحابه أشيروا علي" ،فقام رجال منهم وخطبوا معبرين عما يرونه مناسباً[٣٩] .

ومن تلك المشاورات ايضا ما كان بين ابي بكر الصديق (ر) وبعض اصحابه عندما اراد ان يجهز الجيوش الى الشام[٤٠] ، وما كان بين عمر (ر) واصحابه عندما علم بتجمع جموع الفرس بنهاوند[٤١] ، وكذلك ما كان بين علي (ر) واصحابه عندما ارادوا المسير الى اهل الشام[٤٢] . وغير ذلك كثير .

ويلاحظ أنّ خطب المشاورات التي قيلت في الحروب الداخلية تتعرض لذكر الخصوم ونياتهم وأفعالهم وأهدافهم ومثالبهم ... بخلاف خطب المشاورات التي قيلت حول الفتوحات ، فهذه الأخيرة لم تتعرض لذكر الخصوم إلاّ من حيث قوتهم ، وهذا الأمر يعود إلى الاختلاف الكبير بين الحربين ، وذلك لأنّ الحروب الداخلية كانت بين المسلمين أنفسهم ،وكل فريق من المتحاربين يعرف الكثير عن الفريق الآخر . ومن جهة أخرى كان على كل فريق أن يسعى لاعطاء موقفه صفة الشرعية ، ويوضح المسوّغات التي تبيح له محاربة ذلك الفريق المسلم .

وفي كثير من الأحيان نلاحظ أن الحاكم كان يقوم ، بعد أن يستمع إلى الآراء كافة ، فيخطب في القوم موضحاً رأيه الذي استقرّ عليه بعد الشورى والأمر الذي عقد العزم عليه[٤٣] .

وكثيراً ما كانت هذه الخطب تقصر حتى لا تكون أكثر من عبارات قليلة ، يوجز فيها الخطيب قراره الذي اتخذه ،كقول علي (ر) بعد استشارة أصحابه في المسير إلى الشام : « سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار »[٤٤] .

ثالثاً ـ المناظرات السياسية :

هذا النوع من الخطابة السياسية عرفه صدر الاسلام ، ولجأ إليه الخطباء المسلمون ، لكن ملامحه لم تتضح بشكل جليّ إلاّ في العصر الأموي ، إذ صار المسلمون شيعاً وأحزاباً ، كلٌّ يدّعي أنّ الحق إلى جانبه ، وأنه على صراط

مستقيم • واقتضى ذلك الاهتمام بالحجج الدامغة ، والجدل ، لاقناع الخصوم بضعف مذهبهم •

ومع ذلك فقد شهد صدر الاسلام أحداثا ومواقف دفعت بالخطباء المسلمين إلى الاعتماد على هذا الفن ، ولعل من أهم تلك الأحداث ما جرى بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، يوم توفي النبي الكريم (ﷺ) وطرحت مسألة الحكم للمناقشة بصوت مسموع(٤٥) •

ومن المناظرات المشهورة أيضاً ما كان بين علي بن أبي طالب (ر) والخوارج في أمر الحكومة ، في أعقاب حرب صفين • فقد اعترض هؤلاء على التحكيم واعتزلوا علياً (ر) وجماعته ، وشكلوا فريقاً ثالثاً من المسلمين له تقويمه الخاص للأمور • ومع أن الخلاف قد يبدو حول مسألة دينية فانه اتخذ شكل الموقف السياسي ، ولا غرابة في ذلك إذ إن « الجماعة السياسية • في الاسلام انبثقت من الجماعة الدينية »(٤٦) •

وقد حاول علي (ر) ان يعيد هذه الجماعة الى صفوفه ، لانه كان بحاجة الى تلك القوة البشرية من جهة ، وكان بحاجة الى تركيز جهوده واهتمامه على الجبهة الشامية من جهة أخرى ، اذ لم يكن في صالحه أن يوزّع اهتمامه وجهوده بين محاربة الخوارج ومحاربة معاوية • ثم انه خشي من انتشار المعارضة بين صفوف قواته من جهة ثالثة • ولذلك خرج الى معسكرهم اكثر من مرة وناظرهم(٤٧) •

كذلك أرسل إليهم ابن عباس لمناظرتهم غير مرة • ولما كان موقفهم السياسي ناشئاً عن فهم ديني خاص لمشكلة التحكيم، فقد كان من الطبيعي أن يبحثوا هذه المسألة السياسية من وجهة نظر دينية • وفي مناظرات ابن عباس لهم ما يعطي صورة واضحة عن المناظرات في هذا العصر(٤٨) •

وقد كان المتناظرون يعتمدون في مناظراتهم على ثقافتهم العربية المستمدة من التراث الجاهلي ومن الدين الاسلامي الحنيف ، وتظهر في مناظراتهم طبيعتهم العربية في المناقشة والاحتجاج •

رابعا ـ خطب الحض على الجهاد :

كانت المعارك التي دارت رحاها بين المسلمين والمشركين في عهد النبوة ، والفتوحات الاسلامية الواسعة في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، سبباً لازدهار هذا اللون من الخطابة ، ثم جاءت الحروب الداخلية ، بين المسلمين أنفسهم لتساهم بدورها في هذا الازدهار .

فقد كانت تلك الأحداث الهامة تستدعي خطباً تذكي الحماسة في نفوس المقاتلين ، وتثير فيهم مواطن الرجولة والشجاعة ، وتعمق في أنفسهم قداسة الأمر الذي يقاتلون من أجله وعظمته ، وتغريهم بالأجر العظيم الذي سيفوزون به . ولا ريب في أنه كان لهذه الخطابة أثرها الكبير في الانتصارات التي تحققت. فالعربي معروف بسرعة انفعاله وتأثره، وكانت الكلمة الرائعة ، شعراً أو نثراً ، تفعل فيه ما لا يستطيع أن يفعله شيء آخر . فليس من الغريب ، بعد ذلك ، أن يصل إلينا ، رغم عوادي الزمن ، كم هائل من خطب الحض على الجهاد .

ونستطيع أن نقسم هذه الخطب إلى قسمين رئيسيين تبعاً لنوعية الحروب التي قيلت فيها :

أ ـ خطب المغازي والفتوح .

ب ـ خطب الحروب الداخلية .

أ ـ خطب المغازي والفتوح :

لم يصل إلينا من عهد النبوة خطب من هذا اللون تكفي لاعطاء صورة واضحة عنها . والأرجح أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الخطب التي قيلت في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، ولكي نكون أكثر دقة يجب أن نستثني من هذا الحكم خطبة الرسول (ﷺ) التي قالها يوم أحُد والتي يوصي فيها المسلمين بوصايا كثيرة لا علاقة لها بالتحريض[٤٩] .

وفي هذا النوع من الخطب يعمد الخطيب إلى تشجيع المقاتلين وترغيبهم

في القتال في سبيل الله ، إعلاءً لكلمة الحق ونشر الدين الاسلامي • فيذكر لهم فضل الجهاد ، ونعيم الآخرة العظيم الدائم ، ومنزلة الشهيد والشهادة عند الله عزّ وجل ، ويمد الخطيب أحياناً إلى ذكر الغنيمة التي قد يصيبها المقاتلون ، والكسب الذي يكسبونه من نعيم الدنيا في حال الانتصار • وكذلك يدعوهم إلى الثبات والصبر ، ويقبّح لهم الفرار ، ويهوّن من شأن الأعداء وعددهم وعدّتهم ، ويبشّر بنصر الله الذي وعدهم الله تعالى به • وهو في ذلك كثيراً ما يستشهد بالآيات القرآنية التي تشير إلى الجهاد ، وإلى الوعد بالنصر والثواب •

ومن ذلك خطبة سعد بن أبي وقاص في يوم أرماث ــ وهو اليوم الأول من أيام القادسية ، سنة ١٤ هـ ــ إذ قال بعد حمد الله والثناء عليه : « إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خلف ، قال جل ثناؤه : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ، وإنّ هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها ، وتجبونهم ، وتسبُونهم إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعزّ مَنْ وراءكم ، فان تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتَهِنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم »(٥٠) •

ونلحظ كيف أن سعداً حاول أن يتوسل بكل ما من شأنه أن يذكي الحماسة في نفوس المقاتلين ، حتى العصبية القبلية ، حيث أشار إلى أنهم وجوه قبائلهم وعزّ مَنْ وراءهم • ولم يكن يجهل ما لهذه الاشارة من أثر في جعلهم يبذلون كل ما بوسعهم من قوة في سبيل النصر

وهذه الاشارة إلى العصبية القبلية تبدو بوضوح أكثر في خطب أخرى ، كخطبة جرير بن عبد الله البجلي الذي وجه خطبته إلى قومه مبتدئاً بهذا النداء : « يا معشر بجيلة »(٥١) ، ثم راح يرغبهم في الغنائم ، ويحرضهم على القتال • وعلى الرغم من أنّ هذه الاشارات لا ترقى إلى مستوى الظاهرة ، فانها تظل شاهداً حياً على حياة العصبية القبلية التي لم يستطع الاسلام أن يجتثها من جذورها •

وقد يلجأ الخطيب إلى أسلوب آخر في تحريض المقاتلين على القتال ، وذلك بذكر حقد الأعداء عليهم واستعدادهم التام لقتالهم ، مع الاشارة إلى عدم إمكانية الاستعانة بقوات إسلامية أخرى ، فليس لهم إلا السيف جُنّة ، ولا ينفعهم إلا الصبر والثبات • وهذا ما فعله أبو سفيان بن حرب يوم اليرموك ، وكان يومئذٍ يسير في الناس، ويقف على أهل كل راية ، وعلى كل جماعة فيحرّض الناس ، ويحضهم ويقول : « إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين • وقد والله أصبحتم بازاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم ، وتبلغون رضوان الله ، إلا بصدق اللقاء، والصبر في مواطن المكروه • فامتنعوا بسيوفكم، وتقربوا إلى خالقكم ، ولتكن هي الحصون التي تلجؤون إليها، وبها تمتنعون »(٥٢)•

ب ـ خطب الحروب الداخلية :

تركت الحروب الداخلية التي أضرمتها الفتن في عهد علي (ر) مجموعة من خطب الحض على الجهاد ، فقد راح خطباء كل فريق يحضّون جماعتهم على قتال الفريق الآخر ، ويدّعون أنّ قتالهم له جهاد في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الحق ، وثوابه الجنة التي وعد الله تعالى المجاهدين بها ، ومن قُتل فهو شهيد له ما وعد الله الشهداء به ، وقد يستشهد الخطباء في خطبهم بالآيات القرآنية • غير أننا نلاحظ في خطب هذه الحروب أن لكل فريق أموراً يتمسك بها على أنها حجة يستعين بها على إثبات صحة موقفه وشرعيته ، وعلى إظهار جور الفريق الآخر ومجانبته للحق وخروجه عن الصراط المستقيم •

١ ـ فتنة أصحاب الجمل :

وفي هذه الفتنة نجد أن أصحاب الجمل يتذرعون بالطلب بدم عثمان (ر)؛ الخليفة الذي قتل مظلوماً ، ومن ذلك ما قاله طلحة في خطبة له ، بعد حمد الله والثناء عليه ، وذكر عثمان (ر) وفضله، والبلد وما استحل منه ، وعظم ما أتى إليه : « إنّ في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه • وأما الطلب بدم الخليفة

المظلوم فانه حدّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم . وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام »(٥٣) .

ولا ينسى الخطباء الاشارة إلى أفضال عثمان (ر) ، وأنّ الناس كانوا يتجنّون عليه ويتهمونه بما ليس فيه ، حتى إذا وجدوا القوة عليه قتلوه ظلماً(٥٤) .

أما أصحاب علي (ر) فيذكرون أفضاله ، ويشيرون إلى أنّ أعداءه يطلبون الدنيا ولا يطالبون بدم عثمان(ر) كما يزعمون ، وأن طلحة والزبير نكثا البيعة بغير حق ، وخرجا عن طاعة الامام الشرعي ظلماً وعدواناً ... وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن الخطابة السياسية الخالصة فلا داعي للتكرار هنا .

٢ ـ فتنة معاوية :

وفي خطب التحريض التي قيلت في هذه المرحلة ، تتردد بعض الأفكار التي طالعتنا في خطب الفتنة السابقة . فنلاحظ أنّ أصحاب علي (ر) يذكرون أنّه على حق ونور وبرهان ، ويشيرون إلى فضله في الاسلام وإيمانه ، وأنّه ليس له هفوة ، إذ إنه أسلم صغيراً وعاش حياته كلها مسلماً . بينما كان معاوية على الشرك قبل إسلامه ، وفي صفوف أعداء الاسلام . وكذلك يتخذون من وجود جماعة من البدريين في صفوفهم حجّة لهم على صحة موقفهم ، ويشيرون إلى أنهم يقاتلون تحت رايات الرسول(ﷺ) بينما يقاتل أصحاب معاوية تحت رايات المشركين . يقول الأشتر النخعي : «معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله ، علي بن أبي طالب : صلى مع رسول الله(ﷺ) ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى كان شيخاً لم يكن له صَبْوَة ولا نَبْوَة ... واعلموا أنكم على الحق ، وأن القوم على الباطل ؛ وإنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مئة بدري ، سوى من حولكم من أصحاب محمد . أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... »(٥٥) .

كذلك يشيرون إلى أنّ علياً يقاتل على حقه ، بينما يدّعي معاوية ما ليس له ، ويزيّن الضلالة لأتباعه ، ويلبس عليهم الأمور . فهم يطلبون بدم ظالم ،

وصبرهم في القتال لا ينبع من صدق إيمانهم ، وإنما ينبع من الحميّة الجاهلية التي ما زالت في نفوسهم . فهم يقاتلون من أجل الدنيا ، وقتيلهم لذلك ليس شهيداً ، ومصيره ليس إلى الجنة بل إلى النار . ولم ينسَ هؤلاء الخطباء الاستفادة من مساوىء الولاة الأمويين في زمن عثمان بن عفان (ر) ، فراحوا يذكّرون الناس بها ، ويشيرون إلى أنّ انتصار معاوية يعني وصول مَنْ هم مثلهم سوءاً إلى السلطة ، مع ما يحمله ذلك كله من ظلم وتعسف . يقول يزيد بن قيس الأرحبي : «... فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهورا ولا سرورا ـ لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفيه الضلّال ... فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لائم ، فانهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم ...»(٥٦) .

كذلك لا يغفل الخطباء الاشارة إلى أنّ معاوية وأصحابه يتخذون من دم عثمان (ر) ذريعة لقتال علي (ر) ووسيلة لاستمالة الناس ، بينما هم في الحقيقة يطلبون الدنيا ومتاعها(٥٧) .

أما علي (ر) فكان يحذرهم من الفرار ، ويبشرهم بالنصر ، ويؤكد لهم أنهم على حق ، وأنّ أعداءهم على الباطل . وفي بعض الأحيان كان يشحذ عزائمهم باعلان الرضى عن شجاعتهم وإقدامهم في ساحات الوغى(٥٨) .

أما معاوية وأصحابه فقد كان الثأر لعثمان (ر) ديدنَهم ، فراحوا يطالبون به ، ويذكرون أنهم على حق ، وأن علياً (ر) على باطل ، لأنه نكث البيعة ، وسفك الدم الحرام . وإن لم يكن قتل عثمان (ر) ؛ فقد خذله ، وليس له في الخالين عذر عند الله . كما أنهم يشيرون إلى مكانة عثمان (ر) : فهو صهر الرسول (ﷺ) ، ومجهز جيش العسرة . فأما ما أخذ عليه من أخطاء فليس يعني أنه خرج عن الحق واستحق القتل قصاصاً ، فقد أذنب الأنبياء من قبل ، وهم خير منه وأعلى منه منزلة عند الله .

ولما فطن هؤلاء إلى أن حججهم الدينية لا تبلغ من القوة ما تبلغه حجج علي (ر) وأصحابه فقد اهتموا بأسلوب آخر ، وهو إظهار عليّ (ر) وأصحابه

بمظهر المعتدي الغازي الذي يطمع في الاستيلاء على الشام عنوة ، ولذلك ترك العراق وأتى إليها • ولا شك في أن هذا الأسلوب كان أكثر إثارة للحمية الجاهلية ، ولا سيما حين يشير الخطباء إلى الخطر الذي يحمله العراقيون على النساء والذراري • يقول يزيد بن أسد البجلي : « ••• ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض • والله يعلم أني كنت لذلك كارهاً ، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا ، وننظر لمعادنا، حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفي حريمنا وبيضتنا • وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطغاماً ، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا • وقد كنا نحب ألا نقاتل أهل ديننا فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم كراهية ••• »(٥٩) •

أما في تحريض المنهزمين من ساحة المعركة على القتال ، ودعوتهم للصبر والثبات ، فكان الخطباء يعمدون إلى ذكر القوم بقبيلتهم ، وتذكيرهم بمكانتها ، وبتاريخها المفعم بالشجاعة والاقدام ، مع الاشارة إلى ما يحمله الفرار على القبيلة من العار ، ولكن دون إهمال المغريات الدينية إهمالاً تاماً ؛ كالتذكير بالجنة التي أعدّت للمجاهدين والشهداء ، والتذكير بأنّ الفرار لا ينجي من قضاء الله(٦٠) • ويبدو أن الخطباء كانوا يرون في ذلك الفرار ضعفاً في إسلام المنهزمين ، ولذلك فان إثارة الحمية الجاهلية أكثر جدوى في تثبيتهم ، وإثارة حماستهم ، من إثارة العواطف الدينية •

ولم يكن التحريض على القتال وقفا على الرجال ، فقد شاركت النساء في ذلك ، وتحريض النساء امر معروف منذ الجاهلية ونجد اشارات اليه في الشعر(٦١) • وقد حفظت لنا كتب الادب بعض خطب النساء المسلمات في التحريض ، وهي لنساء كنّ مع عليّ (ر) في صفين ، فكنّ يفعلن كما يفعل الرجال ، يذكرن عليا (ر) ومقامه وايمانه، ويشرن الى بغي اهل الشام وتفاقمهم ،ويذكّرن بالجنة والثواب والنصر القريب ، ويدعين الى الثبات والصبر(٦٢) •

وفي خطب الحض على الجهاد كثيرا ما يلجأ الخطيب إلى توصية الجند ببعض الوصايا الحربية التي من شأنها أن تزيد من شجاعتهم ، وتوقع الرعب في قلوب أعدائهم • كاتخاذ أوضاع معينة في القتال ، واتباع خطة محددة في مواجهة العدو •

وهناك لون آخر من خطابة الحضّ على الجهاد ؛ وهو خطب الاستنفار للقتال • وهذا اللون يختلف عن خطب الحض على الجهاد قليلاً ، إذ إن خطب الاستنفار تكون قبل المعركة ، لكنه يتفق معها في الدعوة إلى الجهاد ، وذكر الجنة ونعيمها ، والشهادة ومنزلتها • وفي الفتن الداخلية كان الخطيب يشير إلى مثالب الأعداء في كثير من الأحيان ، ويؤكد للقوم أن قتالهم جهاد في سبيل الله ••• إلى غير ذلك من الأفكار التي تتردد في خطب الحضّ على الجهاد •

ففي الفتوحات يكون الجيش في أغلب الأحيان بعيداً عن مركز الخلافة ولذلك فان الخليفة كان إذا أراد أن ينتدب وحدة مقاتلة إلى جهة معينة ، يرسل كتاباً إلى قائد الجيش يوضح فيه مراده ، فيقوم هذا بقراءة الكتاب على الجند ، ويوضح أمر الخليفة ، ويدعو الجند إلى الاستعداد للمشاركة في القتال. وإذا انتدب الخليفة الناس يوضح جهة الحرب ، وكثيراً ما يعطي تعليماته حول الأمراء ، ويوصي الجند بطاعتهم • وهذه الخطب ، في أغلب الأحيان تختتم بعبارة : «فانتدبوا رحمكم الله مع فلان» ، أو « فمن شاء أن ينفر فلينفر » أو « سيروا رحمكم الله إلى ••• » إلى غير ذلك من العبارات • ولا بأس أن نشير هنا إلى أن الرسول (ﷺ) لم يكن يحدد الوجهة التي يريدها ، حين كان يستنفر الناس للجهاد • وإنما كان يكنّي عنها ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فانه بينها للناس « لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد له ، ليتأهب لذلك أهبته »(٦٣) • وقد كان السبب في تكتم الرسول (ﷺ) أن الدولة الاسلامية لم تكن قد بلغت أشدها ، فكان (ﷺ) يخشى أن تنتقل الأخبار فيأخذ العدو أهبته ، أو يبدأ المسلمين بالقتال •

أما في الحروب الداخلية فان هذه الخطب كانت تبدأ في كثير من الأحيان بـ « يا أيها الناس •• » أو بنداء أهل المصر : « يا أهل الكوفة ••• يا أهل البصرة » ، وقد ينادى باسم القبيلة صراحة ، ولا سيما إذا كان الذي يستنفر القوم رجلاً منهم ، وهو عندئذٍ يتّبع الأسلوب الجاهلي في إثارة حماستهم ، فيذكر انه يفاخر الناس بهم ، ويحضّهم على سبق القبائل الأخرى إلى الفوز بهذا الفخر والفضل(٦٤) •

خامسا ـ الوصايا الحربية والسياسية :

آ ـ الوصايا الحربية :

وفي هذه الوصايا يوضح الموصي للقائد ، أو للجند عامة ، الخطة التي يجب عليهم أن يتبعوها في مواجهة الأعداء ، وكيف عليهم أن يتصرفوا إزاء بعض المواقف التي قد تواجههم • أو إزاء القوم المحاربين أنفسهم • وكثيراً ما كانت تقترن هذه الوصايا في أيام الفتوحات بدعوة أصحاب البلد إلى الاسلام ، وبالتعامل معهم وفق الأخلاق الاسلامية •

كذلك كان الموصي يوصي القائد كيف يتصرف مع الجند الذين تحت إمرته ، مع تنبيهه إلى أنهم يقتدون به ويحتذون حذوه • وقد يفصل قليلاً فيوضح للقائد طريقة التعامل مع الجند بشكل دقيق يضمن له قيامهم بمهماتهم على أكمل وجه ، كما يحافظ على تماسك الجيش وقوته • ومن ذلك وصية أبي بكر (ر) ليزيد بن أبي سفيان ، التي يقول فيها: « ••• واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار ، وأكثر من حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم ••• وعقّب بينهم بالليل ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ••• »(٦٥) •

أما في الحروب الداخلية فكانت أغلب الوصايا تقال في ساحة المعركة وتأخذ شكل التوجيهات الحربية التي يلقيها القائد على الجند موضحا كيفية بدء القتال ، وكيفية توزيع القوات •••

بقي أن نشير إلى أنّ هذه الوصايا كانت تشتمل ، في كثير من الأحيان ، على وصايا اجتماعية أو دينية ولا سيما في الفتوحات ، بل إنّ بعض هذه الوصايا يأخذ منحىً اجتماعياً ، فتبدو الوصية اجتماعية لا علاقة لها ، مباشرة ، بالحرب والقتال(٦٦) •

ب ـ الوصايا السياسية :

وكان الغرض منها تزويد الموصى له بأنجع الأساليب في التعامل مع الطرف الآخر ، وارشاده إلى السياسة المثلى التي تضمن له النجاح في المهمة الملقاة على عاتقه.

ومن هذه الوصايا وصايا الخلفاء لولاتهم ، أو لمن سيأتي بعدهم ويحل محلهم ، وفي هذه الحال تكون الوصية منهجاً للعلاقة بين الحاكم والرعية ، يفترض بالحاكم أن يلتزم به مدة حكمه • ومع أنّ الوصايا ، في هذا المجال ، تميل إلى القصر ، فانّ المصادر حملت إلينا وصية طويلة لعمر بن الخطاب (ر) أوصى بها الخليفة من بعده • وهو يوصيه بالتقوى ، وبالمهاجرين الأولين ، وبأهل الأمصار والبادية ، وبأهل الذمة ، ويوضح له أسلوب التعامل مع الرعية بحيث يرضي الله ويرضي الناس(٦٧) •

ولما كان مفهوم الحاكم للسلطة هو الذي يحدد العلاقة بين السلطة والرعية فقد كان من الطبيعي أن يتبدّل مضمون الوصية بين حاكم وآخر بشكل قد يكون كبيراً • فبينما نجد عمر (ر) يوصي خليفته بالمساواة بين الرعية ، والعدل ، نرى معاوية يهدف إلى تعزيز السلطة • ولذلك يوصي عمرو بن العاص عندما أرسله إلى مصر قائلاً : « • • • فاذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك ، وكل الناس فأول حسناً »(٦٨) •

وقد تركت أحداث التحكيم بين الشام والعراق مجموعة من الوصايا السياسية التي وُجّهت إلى الحكمين • ونلاحظ أن الجانب السياسي يغلب عليها ، بينما كان يغلب الجانب الاجتماعي أو الديني على غيرها من الوصايا السياسية في هذا العصر •

هذه هي صورة الخطابة السيابية في عصر صدر الاسلام وهو عصر نشوء الخطابة الاسلامية ونموها ، وهي صورة واضحة الملامح ، بارزة القسمات ، تجعلنا نطمئن الى القول : ان عصر صدر الاسلام هو صاحب الفضل في وجود الخطابة السياسية الاسلامية وهو الذي منحها سماتها الأساسية التي لم يستطع الخطباء الامويون ـ فيما بعد ـ ان يضيفوا اليها شيئا ذا بال • واذا كان العصر الاموي هو العصر الذهبي للخطابة العربية فان الخطباء الامويين مدينون بالكثير لأسلافهم من خطباء صدر الاسلام •

الحواشي :

١ - السيرة النبوية : ٨٥/٢ ·
٢ - المصدر السابق : ٩٠/٢ ·
٣ - انظر مروج الذهب : ٣٥٨/٢ ·
٤ - الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ١٤٥ ·
٥ - اديان العرب قبل الاسلام : ١٥٣ ·
٦ - السيرة النبوية : ٧٥/٢ ·
٧ - المصدر السابق : ٨٤/٢ ·
٨ - المصدر السابق : ٨٥/٢ ·
٩ - المصدر السابق : ٨٤/٢ ·
١٠- المصدر السابق : ٨٨/٢ ، ٨٩ ·
١١- المصدر السابق : ٣١١/٤ ·
١٢- انظر الخطبة في فتوح الشام : ٢٤٨ ·
١٣- شرح نهج البلاغة : ٢٧٢/١ ·
١٤- تاريخ الرسل والملوك : ٢٧٩/٤ ·
١٥- انظر الخطبة في المصدر السابق : ٦٥/٤ ، ٦٦ ·
١٦- شرح نهج البلاغة : ٢٦٥/٩ · وانظر تاريخ الرسل والملوك : ٣٩٩/٤ ·
١٧- انظر خطبته التي يعلن فيها التوبة في تاريخ الرسل والملوك : ٣٩٩/٤ ·
١٨- المصدر السابق : ٣٧٦/٤ ·
١٩- بناء المجتمع : ٩٦ ·
٢٠- شرح نهج البلاغة : ٣٠٨/١ ·
٢١- المصدر السابق : ٣٠٠/١ ·
٢٢- انظر الفتنة ووقعة الجمل : ٩٧ ·
٢٣- شرح نهج البلاغة : ٣١١/١ ·
٢٤- المصدر السابق : ٢٩٥/٩ ·
٢٥- المصدر السابق : ٣٠٨/٩ ، ٣٠٩ ·
٢٦- انظر المصدر السابق : ٣٣٢/١ ، ٣٣٣ ·
٢٧- المصدر السابق : ٧٠/٧ ·
٢٨- المصدر السابق : ٢٩١/٧ ·
٢٩- انظر المصدر السابق : ١١٢/٨ ·
٣٠- انظر المصدر السابق : ٢٩٧/٧ ·
٣١- الامامة والسياسة : ١٣٨/١ ·
٣٢- انظر مثلاً شرح نهج البلاغة : ١٨٥/٢ و ١٧٩/١٠ ·
٣٣- المنطق : ٣٧٩ ·
٣٤- المرجع السابق والصفحة نفسها ·
٣٥- المرجع السابق : ٣٨٩ ·
٣٦- انظر مثلاً السيرة النبوية : ٦٧/٣ ·
٣٧- انظر مثلاً وقعة صفين : ٩٥ وما بعدها ·
٣٨- شرح نهج البلاغة : ٢٢١/١٤ ، ٢٢٢ ·
٣٩- انظر المصدر السابق : ٢٢٤/١٤ ·
٤٠- انظر فتوح الشام : ٢ ·
٤١- انظر تاريخ الرسل والملوك : ١٢٣/٤ ·
٤٢- انظر وقعة صفين : ٩٢ ·
٤٣- انظر مثلاً تاريخ الرسل والملوك : ٣٤٣/٤ ·
٤٤- وقعة صفين : ٩٤ ·
٤٥- انظر المناظرات التي دارت في السقيفة في تاريخ الرسل والملوك : ٢١٨/٣ وما بعدها ، وعيون الأخبار : ٢٣٣/٢ ، ٢٣٤ ·
٤٦- الظاهرة الادبية : ٢٣ ·
٤٧- انظر شرح نهج البلاغة : ٢٩٧/٧ و ١٠٣/٨ ·
٤٨- انظر بعض مناظراته لهم في تاريخ الرسل والملوك : ٦٥/٥ ·
٤٩- انظر الخطبة في شرح نهج البلاغة : ٢٣٢/١٤ ، ٢٣٣ ·
٥٠- تاريخ الرسل والملوك : ٥٣١/٣ ·
٥١- المصدر السابق : ٤٦٩/٣ ·
٥٢- فتوح الشام : ١٩٧ ·
٥٣- تاريخ الرسل والملوك : ٤٦٤/٤ ·
٥٤- انظر مثلاً خطبة السيدة عائشة (ر) في تاريخ الرسل والملوك : ٤٦٤/٤ ·
٥٥- شرح نهج البلاغة : ١٩٠/٥ ، ١٩١ ·
٥٦- تاريخ الرسل والملوك : ١٧/٥ ، ١٨ ·
٥٧- انظر مثلاً خطبة عمار بن ياسر في المصدر السابق : ٣٩/٥ ·
٥٨- انظر مثلا في شرح نهج البلاغة : ١٧٩/٧ ·
٥٩- وقعة صفين : ٢٤٢ ·
٦٠- انظر مثلاً خطبة الأشتر النخعي في تاريخ الرسل والملوك : ٢٠/٥ ·
٦١- انظر مثلاً معلقة عمرو بن كلثوم؛ الابيات ٨٣ الى ٨٨ حسب شرح التبريزي ·

٦٢- انظر العقد الفريد : ٢/١٠٦ وما بعدها ، ١١١-٢١٢ و ١١٩ وما بعدها .
٦٣- السيرة النبوية : ٤/١٥٩ .
٦٤- انظر خطبة زفر بن زيد في الامامة والسياسة: ١/٥٨ .
٦٥- الكامل في التاريخ : ٢/٤٠٤ .
٦٦- انظر مثلاً وصية عمر بن الخطاب (رض) لسعد بن ابي وقاص في تاريخ الرسل والملوك: ٣/٤٨٣ ، ٤٨٤ .
٦٧- انظر الوصية في البيان والتبيين : ٢/٤٩ وما بعدها .
٦٨- تاريخ الرسل والملوك : ٥/١٠٠ ، ١٠١ .

☆ ☆ ☆

مصادر البحث ومراجعه :

١ - اديان العرب قبل الاسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، الاب جرجس داود داود - ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ .
٢ - الامامة والسياسة ، ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم ، ٢٧٦) ، ط ٢ ، مصر ، ١٩٥٧ .
٣ - بناء المجتمع ، د. غانم هنا - مطبوعات جامعة دمشق ، ١٩٨٢ .
٤ - البيان والتبيين ، الجاحظ (عمرو بن بحر ، ٢٥٥) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
٥ - تاريخ الرسل والملوك، الطبري (محمد بن جرير، ٣١٠) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - مصر ، بلا تاريخ .
٦ - الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، د. احسان النص - دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ .
٧ - السيرة النبوية ، ابن هشام (ابو محمد عبدالملك ، ٢١٨) ، تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه - بيروت ، بلا تاريخ.
٨ - شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي (يحيى بن علي) ، تحقيق د. فخرالدين قباوة ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٩ - شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد (عبدالحميد بن هبةالله ، ٦٥٥) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
١٠- الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية ، احسان سركيس ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ .
١١- العقد الفريد ، ابن عبد ربه (احمد بن محمد ، ٣٢٨) ، شرحه وضبطه احمد امين ورفيقاه، ط٢ - القاهرة، ١٩٥٦ .
١٢- عيون الاخبار ، ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣ .
١٣- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر الضبي (٢٠٠) ، جمع أحمد راتب عرموش ، ط٦ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
١٤- فتوح الشام ، محمد بن عبدالملك الازدي البصري ، صححه وليمناسوليس الايرلندي - طبع في مدينة كلكته، ١٨٥٤ .
١٥- الكامل في التاريخ ، عزالدين ابو الحسن علي بن الاثير ، بيروت ، ١٩٧٩ .
١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي (علي بن الحسين، ٣٤٦) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، بيروت ، ١٩٤٨ .
١٧- المنطق ، محمد رضا المظفر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٩٠ .
١٨- وقعة صفين ، نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٣ ، مصر ، ١٩٨١ .

☆ ☆ ☆

شيزر في التراث والتاريخ

د. هاشم صالح مناع*

شيزر(1) قلعة حصينة تتمتع باهمية تاريخية ، وبموقع استراتيجي ، تعاقبت عليها الامم ، واصبحت امارة مستقلة لها كيانها وشخصيتها ، تمكنت من جلب قرائح أصحاب القريض ، ينتمي اليها كثير من العلماء والأدباء والشعراء .

● موقعها :

بنيت قلعة « شيزر » على أكمة صخرية صلدة عالية ، صعبة التسلق ، تنتصب على الضفة الغربية من نهر العاصي، الذي يحيط بها من جهاتها الثلاث ، فهي شبه جزيرة ، إلا أن القائمين عليها في القديم قاموا بحفر الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر من جنوبها ، مما زاد في منعتها ، وصعوبة الوصول إليها(2) .

وقد حدد المؤرخون القدامى موقعها بقولهم : « قلعة قديمة بالشام تعدّ في كورة « حمص » قرب « المعرة » بينها وبين « حماة » يوم(3) ، وفي وسطها نهر « الأرنْد »(4) عليه قنطرة في وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان . »(5)

وتقسم « شيزر » إلى قسمين ، قسم يقع ضمن القلعة ، على الأكمة الرابية وهو الحصن(6) ، ولنتوء هذه الأكمة سماها مؤرخو العرب : « عرف الديك » .

(*) استاذ الأدب والنقد - بكلية الدراسات الاسلامية العربية - دبي .

وقسم منخفض عنها للغرب بشكل شبه منحرف ، يمر من شماله نهر «العاصي»، وهو المدينة[٧] .

ويقال : إن سورها كان يتخذ شكلاً مستطيلاً يترامى من الشمال إلى الجنوب بطول يبلغ (٤٢٥) متراً ، وعرض يقرب من (٥٠) متراً ، أما ارتفاعها فيصل إلى (٢٨٠) متراً ، وأما مساحتها فتبلغ (١٢,٥) دونماً[٨] .

● تسميتها :

« شيزر » قلعة أثرية حصينة مهمة ضاربة في القدم يظهر ذكرها على مسرح الأحداث التاريخية والسياسية قبل الميلاد ، وقد ورد ذكرها بأسماء كثيرة ، نذكر منها :

- (شيزر) الاسم السامي القديم .
- (سنزار) في العهد الفرعوني سنة ١٤٥٧ ق.م. في زمن أمنحوتب الثاني من فراعنة السلالة الثانية عشرة .
- (سيزر) في العهد الفرعوني سنة ١٤٣٦ ـ ١٤١٣ ق.م. في زمن تحوتمس من فراعنة السلالة الثامنة عشرة .وذكرها بهذا الاسم البيزنطيون .
- (شنزار) في العهد الفرعوني أيضا .
- (زنزار) في العهد الفرعوني في زمن أخناتون .
- (سدزارا) اسم أطلقه اليونانيون القدامى .
- (لاريسا) اسم أطلقه اليونانيون في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، في زمن سلوقس نيكاتور ، بدلاً من(شيزر) نسبة إلى إحدى المدن في مقاطعة (تساليا) في اليونان[٩] .
- (سيزارا) اسم أطلقه اليونانيون[١٠] .
- (توسيزر) اسم أطلقه اليونانيون أيضا[١١] .

- (شيزر) الاسم السامي الذي عرفه العرب الجاهليون ، ولا يزال إلى يومنا هذا ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :(من الطويل)

تقطّعَ أسبابُ اللبانةِ والهوى   عشيةَ جاوزنا « حماة » و « شيزرا »(١٢)

ويذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات(ت ٧٥ هـ) بشعره ، وكان يصحب أولاد الزبير حين قتلهم عبد الملك بن مروان :(من الطويل)

قفوا بيَ انظرْ نحو قومي نظرةً   فلم يقف الحادي بها وتَغَشْمَرا
فواحزنا اذ فارقونا وجاوزوا   سوى قومهم أعلى «حماة» و «شيزرا»
بلاداً تغولُ الناس لم يولدوا بها   وقد غَنِيَت منهم مَعانا ومَحضرا(١٣)

ولم أوفق في الوقوف على معاني هذه الأسماء ، ويبدو من خلال تعددها واختلافها أنها كانت تطلق عليها تخليداً لأماكن معروفة ، أو شخصيات أثيرة أو هامة(١٤) ، وخاصة حين نرى أن اسمهاقد تغير في العهد الفرعوني ثلاث مرات ، وعلى الرغم من شهرتها واهتمام القدماءبها وإطلاقهم الأسماء الكثيرة عليها ، إلا أنها لم تكن ذات إدارة مستقلة ، أو امارة، أو مملكة عبر العصور التاريخية إلاّ في عصر الحروب الصليبية ، إذ تظهر علىمسرح الأحداث إمارة مستقلة بأمرائها وسكانها ، وسنقف على هذا الأمر بالتفصيل .

● وصفها :

« شيزر » من أجمل بلدان الشام وقلاعها ، فهي عروس نهر « العاصي » ، الذي يحيط بها من جهاتها الثلاث ، وهيتقع فوق رعن (نهد) جبلي وعر يتجه من الشمال إلى الجنوب يقال له : « عُرف الديك » ، يظهر أن هذا الاسم أطلق عليها لبروزها ، وظهورها ، وتميزها منغيرها بجمالها ، وروعتها ، وعلوها ، وشموخها .

وكان نهر العاصي كفيلاً بأن يحوّل المدينة وما يحيط بها من الأراضي إلى جنة خضراء ، ومروج يانعة تسر الناظرإليها ، فهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة وأكثرها الرمان(١٥) .

وتمتاز المدينة بهدوئها ، وصفاء جوّها ، ونقاء هوائها ، ونظافة مياهها، وجمال بنائها ، وروعة تخطيطها ، وكثرة نواعيرها[١٦] ، واستقلال إمارتها التي اعتمدت على مواردها الذاتية ، وخاصة المحاصيل الزراعية ٠

ويبدو أن الصليبيين حرصوا كل الحرص على التحام هذه البلدة وتدمير قلعتها الصامدة ، ولما لم يوفقوا في مآربهم شيّدوا قبالتها على الضفة الأخرى من النهر حصناً سمي حصن « تل ابن‌معشر » مما أدى إلى إفساد روعتها وجمالها الذي عهدناه فيها ، فهذا أسامة بن‌منقذ يصف «شيزر» بالوخامة قائلاً : (من الكامل)

وخمَت وجاورها العدو فأهلها   شهداء بين الطعن والطاعون(١٧)

والجدير بالذكر أن نورالدين زنكي قام ببناء ما أفسده الغزاة ، وإعمار ما خرّبه الزلزال من أسوار ودور ،وبعث فيها الحياة من جديد[١٨]٠ويصفها الأستاذ المرحوم طاهر النعساني بقوله : وهي اليوم لا يكاد يوجد فيها خمسون مزارعاً ، موبوءة مستوبلة ، أمراضهاالفتاكة ، يضرب بها المثل بهوائها الفاسد، فيقال : « أوخم من شيزر » .... فسبحان‌محوّل الأحوال ومقلب الليل‌والنهار[١٩]٠

وتحكي قلعة « شيزر » تاريخ أمة مجيداً ساد ، فهي رمز من رموز ذلك التاريخ الذي كان يشمخ بإباء ورفعة ،فالجدران والأعمدة ما تزال ماثلة تدلّ على عظمة أمتنا الخالدة في البناء ، وبراعتها في التشييد ، وجمال ذوقها في الفن المعماري ، إلاّ أن كثيراً منها خربته يدالانسان ، ولعبت فيه صروف الزمان ٠

● تاريخها :

قلنا : إن « شيزر » بلدة وقلعة ضاربة في التاريخ ، بدأ ذكرها في الزمن الفرعوني ، ثم اليوناني ، وازدهرت في العهدين الروماني والبيزنطي ، إذ توسعت البلدة وجُلب إليها الماء بقناتين‌كبيرتين للري والارواء٠ولما جاء الاسلام، وامتدت الفتوحات ، قام أهلها ـ الذين‌كانوا يتحدثون الرومية ـ بتسليم شيزر إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح سنة١٧ هـ / ٦٣٨ م ٠ وزحف إلى هذه المدينة جماعة من الموارنة في أواخر القرن‌السابع الميلادي[٢٠] ٠

ويشير اليعقوبي إلى أن أهل بلدة « شيزر » كانوا قوماً من كِنْدة ، وذلك في القرن الثالث الهجري[٢١] . وفي القرن الرابع غزاها الامبراطور (نيقفور فوكاس) واستولى عليها ، وظلت الحرب سجالاً بينه وبين الأمراء العرب وتبادلتها الأيدي مراراً في هذه الحقبة[٢٢] .

ويقال : إن سيف الدولة اعتصم «بشيزر» لحصانتها ، ومات فيها ، ولم ينقل جثمانه إلى « حلب » إلا بعد سنة ، وذلك في سنة ٣٥٦ هـ[٢٣] . ويبدو أنه كان يسيطر عليها ، إلا أن «نيقيفور»[٢٤] تمكن من احتلالها ، في زمن سعد الدولة ابن سيف الدولة ، وقام بحرق جامعها ، وأقام فيها حامية رومية ، لأن سعد الدولة لم يعترف له بها ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً ، فقد سقطت أمام جيش ابن الصمصامة الفاطمي الذي كسر الجيش الرومي بمعركة « أفامية » عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، إلا أن القيصر (باسيليوس) حاصرها بنفسه ، وتغلب عليها سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م بعد أن خرب قناطر الماء الآتية إليها ، الأمر الذي كان سبباً في استسلام أهلها ، وقد ترتب على ذلك نزوح سكانها المسلمين عنها ، وإحضار جالية أرمنية بدلاً من المسلمين[٢٥] .

وبقيت « شيزر » في أيدي الروم البيزنطيين نحو ثنتين وثمانين سنة تقريباً ، حتى تمكن سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م من محاصرتها والاستيلاء عليها ، وبتسلمه هذا الحصن أعلنه إمارة مستقلة ، تعاقب عليه من بعده أولاده وأحفاده[٢٦] . وسنقف عند هذه الأسرة التي حكمت « شيزر » بشيء من التفصيل تحت عنوان مستقل .

وتصاب « شيزر » بكارثة عظيمة سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فقد دمرت الزلازل القلعة والبلدة معاً ، ولم ينجح أحد من الذين كانوا بهما ، فلم تبق ولم تذر ، وكانت نهاية المنقذيين مع هذه الزلازل ، التي جعلت الطامعين يتجهون بأنظارهم إلى « شيزر » منهم : الاسماعيليون[٢٧] والفرنجة ، إلا أن نور الدين زنكي كان أسبق إليها ، فتسلمها ، وقام باعمارها[٢٨] .

وبقيت « شيزر » بأيدي الأمراء العرب إلى أن قام التتار بتدميرها سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، ولكنها رممت فور هزيمتهم على يد السلطان الملك الظاهر بيبرس في السنة نفسها[٢٩] .

وحاول الصليبيون الاستيلاء عليها في زمن الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، ولكنهم باؤوا بالفشل ،وهناك نصوص محفورة عليها تدل على أن بناء البوابة الكبرى تم على يد السلطان المنصور قلاوون. والجدير بالذكر أنها تتعرض إلى الهجمات من قبل أمراء البادية ، وتثور الصراعات والفتن فيها بين العرب والأكراد ، مما زاد في خرابها وتدميرها ، وظلت « شيزر » على هذه الحال إلى أن جاء العثمانيون الأتراك ، واتخذوا منها قلعة حصينة ، قاموا بترميمها ، وهناك نصوص كثيرة تشير إلى القائمين عليها ، إلا أنها تداعت في العهد العثماني[٣٠] ، حتى استحالت إلى أطلال يصعب إعادتها إلى مجدها وعزها، ومن يقوم بزيارتها اليوم لا يرى إلا خراباً وآثاراً تبكي على زمن ساد مجده. وعلى أية حال لم تكن « شيزر » إمارة مستقلة إلاّ في عهد المنقذيين.

● أمراء آل منقذ :

بنو منقذ الكنانيون بطن من عذرة بن زيد اللات من كلب من القحطانية ، كانوا ملوكاً « بشيزر »[٣١] وأول من ملك منهم سديد الملك أبو الحسن علي ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، لأنه كان نازلاً مجاوراً لقلعة بقرب الجسر المعروف اليوم بجسر بني منقذ ، وكانت القلعة بيد الروم فحدثته نفسه بأخذها فنازلها وتسلمها بالأمان في رجب سنة أربع وسبعين وأربعمئة ، ويروي أسامة ابن منقذ قصة استيلاء جده على «شيزر» بقوله : كان في شيزر والٍ للروم اسمه (دمتري) ، فلما طالت المضايقة لـ « دمتري » راسل جدي هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن « شيزر » إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، منها : مال يدفعه إلى (دمتري) ، ومنها إبقاء أملاك الأسقف الذي بها عليه ، فانه استمر مقيماً تحت يد جدي حتى مات «بشيزر»،ومنها أن القنطارية وهم رجالة الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين ، فسلم إليهم جدي ما التمسوه وتسلم حصن «شيزر» يوم الأحد في رجب سنة أربع وسبعين وأربعمئة ، واستمر سديد الملك علي بن منقذ مالكها إلى أن توفي فيها سنة ٤٧٩ هـ[٣٢] .

وتولى الامارة من بعد سديد الملك ابنه الأمير أبو المرهف نصر بن علي ، ولما حضره الموت سنة (٤٩١ هـ) استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي -

والد أسامة بن منقذ ـ ولكن أبا سلامة أبي وقال : والله لا وليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وتنازل عن الامارة لأخيه أبي العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه سناً ، فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور فكبروا وسادوا ، منهم : عز الدولة أبو الحسن علي ، ومؤيد الدولة أسامة وغيرهما ، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر ، إلى أن كبر فجاءه أولاد فحسد أخاه على ذلك ، فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده . وسعى المفسدون بينهما فغيّروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه ، فأجابه بأبيات جيدة في معناها ، وكان كل منهما أديباً شاعراً ، ومما جاء فيها :(من الطويل)

وقلت أخي يرعى بنيّ وأسرتي ويحفظُ عهدي فيهمُ وذِماميا
ويجزيهمُ ما لم أكلفه فعله لنفسي فقد اعددته من تراثيا
فمالك لما ان حنى الدهر صعدتي وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برّك قسوة وقربك مني جفوةً وتنائيا
فاصبحت صفر الكفّ مما رجوته كذا الياس قد عفّى سبيل رجائيا
على انني ما حلت عما عهدته ولا غيرت هذي السنون وداديا(٣٣)

ولما مات أبو سلامة سنة (٥٣١ هـ) قلب أخوه سلطان لأولاد أخيه ظهر المجن وباداهم بما يسوؤهم ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم فأخرجهم من « شيزر » ، وتفرقوا في البلاد ، وقصدوا الملك العادل نور الدين زنكي . وتوفي الأمير سلطان ، وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه، وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده وعمّرها وأسوارها وأعادها كأن لم تخرب(٣٤) . وقد أجمع المؤرخون على أن كل أفراد هذه الأسرة كانوا أدباء شعراء شهد لهم بالفضل والكرم والعلم(٣٥) .

● الزلزال الذي ضرب « شيزر » :

أصيبت « شيزر » بزلازل كثيرة ، لم تكن مؤثرة لدرجة التدمير والخراب، ولكنها أصيبت مرتين بزلزالين خطيرين ،وكانت الاصابة عظيمة وكبيرة . يقول

صاحب الروضتين: في سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة، أخربت البلاد، وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة «حماة» وحصن «شيزر» فانهما خربا بالمرة، فقد هلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع(٣٦).

ويقال: إن صاحب «شيزر» كان قد ختن ولده وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ في داره فجاءت الزلزلة فسقطت الدار والقلعة عليهم فهلكوا عن آخرهم. وكان لصاحب «شيزر» ابن منقذ حصان لا يزال على باب داره، فلما جاءت الزلزلة وهلك بنو منقذ تحت الهدم سلم منهم واحد وهرب يطلب باب الدار، فلما خرج من الباب رفسه الحصان فقتله(٣٧). ويقال لم يسلم من «شيزر» إلاّ امرأة هي زوجة أبي الفضل اسماعيل بن أبي العساكر تدعى الخاتون، وخادم لها، وهلك الباقون، إلا أن نور الدين زنكي عاد فعمر «شيزر»(٣٨).

ويصف أحد الشعراء هذا الزلزال بقوله: (من الخفيف)

روّعتنا زلازلٌ حادثات ... بقضاءٍ قضاه ربُّ السماءِ
هدّمت حصنَ «شيزر» و«حماة» ... أهلكت أهله بسوء القضاءِ
وبلاداً كثيرة وحصوناً ... وثغوراً موثقات البناءِ
واذا ما رنت عيونٌ اليها ... أجرت الدمع عندها بالدّماءِ(٣٩)

وهذا ابن الوردي يذكر هذا الزلزال في تاريخه: (من المتقارب)

اذا ما قضى الله امراً فمن ... يردُّ القضاءَ الذي ينفذُ
عجبت «لشيزر» اذ زلزلت ... فما لبني منقذٍ منقذُ(٤٠)

كان ذلك وصفاً للزلزال الأول الكبير الذي أصاب شيزر وغيرها، أما الزلزال الآخر العظيم الذي ضرب الشام كلّها، ومنها «شيزر» فكان في سنة خمس وستين وخمسمئة في الثاني عشر من شوال، يقال: إن الناس لم يروا مثله لأنه شمل مناطق كثيرة في: آسيا وإفريقيا، إلا أن أشدها تأثراً، وأعظمها خطراً كانت بلاد الشام، فقد خربت «حمص» و«حماة» و«شيزر» وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، ويصف العماد الأصفهاني هذا الزلزال بقوله: (من الخفيف)

سطوة زلزلت بسكانها الأر ض وهدت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة باس تركتهم صرعى صروف العوادي
خفضت في قلاعها كل عال واعادت قلاعها كالوهاد
انفذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبه فهو باد(٤١)

ولم نعثر على أشعار تصوّر الخراب والدمار الذي لحق بشيزر في هذا العام، وإنما كان هناك مجموعة منها تصف أثر الزلزال في بلاد الشام كلّها، ولعلّ السبب يعود إلى انقراض شعراء آل منقذ، أو بسبب سيطرة نور الدين زنكي على هذه الامارة، الأمر الذي حال دون وجوده شيزر » كامارة مستقلة فيها أمراؤها وأهلها • وقد يكون بسبب ضياع تلك الأشمار، شأنها في ذلك شأن كثير من الشعر في مرحلة الحروب الصليبية ،الذي اختفى وضاع بسبب عوامل كثيرة منها : سياسية واجتماعية ودينية •

☆ ☆ ☆

☐ الحواشي :

١ ـ شيزر : بفتح الشين ، وسكون الياء ، وفتح الزاي • انظر : معجم ما استعجم ٨٨/٣ ، ومعجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وصبح الاعشى ١٢٣/٤ ، وتقويم البلدان ، ص ٢٦٢ •

٢ ـ قلعة شيزر ، كامل شحادة ، ص ٥ •

٣ ـ تقع الى الشمال الغربي من حماة، على مسافة ٢٥كم •

٤ ـ مراصد الاطلاع ٨٢٦/٢ ، وقد ورد في هذا المصدر انّنهر « الارند » هو الاسم القديم لنهر العاصي ، وفي نزهة المشتاق في اختراق الافاق ٦٤٥/٢ ، وصبح الاعشى٨٠/٤ ، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ١٠٧ : « نهر الأرنط » ، وفي معجم البلدان ٣٨٣/٣ : « نهر الاردن » وهذا خطا وتصحيف •

٥ ـ انظر مزيدا من التفصيل : صبح الاعشى ٨٠/٤ ، ونزهة المشتاق ٦٤٥/٢ ، وكتاب الروض المعطار ، ص ٣٥٢ ، والمسالك والممالك ، ص ٧٣ ، واحسن التقاسيم ، ص ١٣٦ ، ومعجم ما استعجم ٨١٨/٣ ، ومعجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وكتاب البلدان ، ص ٨٦ •

٦ ـ تنتصب القلعة مجانبة للنهر فوق جرف صخري متطاول وضيق ، يفصله من السفح الصخري المتصل به في الجنوب قناة عميقة • ويرتفع الجدار الأمامي للبرج المحصن فوق هذا الخندق مباشرة ، وهو صرح ضخم يتالف من طابقين داخليين وشرفة سطحية واسعة • انهارت الجدران التي كانت تكسو حافة الجرف على كلا ضلعي القلعة الطويلين في معظمها ، ولم يبقَ سوى الركن الشمالي الاقصى من القلعة، والتي هي عبارة عن سواتر ترابية شديدة الانحدار، والبوابة متينة البنيان• (القلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٦٩) •

٧ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ٢٠٥ •

٨ ـ تاريخ شيزر ، ص ٢٣ ، وقلعة شيزر ، ص ٥ ، والدونممقياس مساحة معروف في بلاد الشام يعادل الف متر مربع •

٩ ـ درس في حياة اسامة بن منقذ ، فيليب حتي ، ص ٥١٥، (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : الجزء التاسع ، المجلد العاشر ١٩٣٠) •
١٠ـ القلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٦٩ •
١١ـ المصدر السابق نفسه •
١٢ـ الديوان ، ص ٦٢ ، ومعجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وكتاب الروض المعطار ، ص ٣٥٢ ، والمسالك والممالك ، ص ٧٣ • يقول: لما جاوزت حماة وشيزر تقطعت اسباب الحاجة الى من احببت ياسا من اللقاء ، وشغلاً بما نحن فيه من العناء ، والجدير بالذكر ان الشاعر ذكرها حين مرّ بها في طريقه الى ملك القسطنطينية يتوسله لنجدته من اجل الثار لدم ابيــه •
١٣ـ الديوان ، ص ١٤٠ ، ومعجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وهذا معان من فلان ، اي : ينزله •
١٤ـ يقول فيليب حتي ان مؤرخي الافرنج الصليبيين اطلقوا على شيزر اسم (قيصرية) او (قيصرية العاصي) للتمييز • (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء التاسع ، المجلد العاشر ، ايلول ١٩٣٠ ، ص ٥١٦) •
١٥ـ صبح الاعشى ١٢٤/٤ ، وبغية الطلب ١٤٧/١ •
١٦ـ تقويم البلدان ، ص ٢٦٣ ، وفيه : « كانت شيزر وحماة مخصوصتين بكثرة النواعير دون غيرهما من بلاد الشام » •
١٧ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ١٤٦/١ ، تقول : بلد او بيت وخيم : غير موافق في السكن ، او مضر ردىء • ووخيم : وبىء • ولعل الفترة التي يتحدث عنها اسامة هي تلك الفترة التي كان فيها اولاد عمه سلطان في الامارة ، اي : بعــد عام (٥٣١ هـ) ذلك انهــم راسلوا الصليبيين واتصلوا بهم ، نكاية بنورالدين زنكي • (الكامل في التاريخ ٢٢١/١١)• وانظر بشأن الحصن الذي اقامه الصليبيون: تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٢٨٣ •
١٨ـ الكامل في التاريخ ٢٢١/١١ •
١٩ـ اسامة بن منقذ (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد العاشر ، الجزء الرابع ١٩٣٠) ، ص ٢٣١ •
٢٠ـ معجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وقلعة شيزر ، ص ١١ ، وتاريخ شيزر ، ص ١١ ، وتاريخ شيزر ، ص ٤٩ •
٢١ـ كتاب البلدان ، ص ٨٦ •
٢٢ـ القلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٦٩ •
٢٣ـ قلعة شيزر ، ص ١٢ ، يقول ابن خلكان : توفي سيف الدولة في سنة ٣٥٦ هـ بحلب ، ونقل الى ميّـا فارقين ، ودفن في تربة امه ، وهي داخل البلد • (وفيات الاعيان ٤٠٥/٣) • وليس هناك اشارة الى انه توفي بشيزر •
٢٤ـ نيقيفور الدمستق ملــك على الروم سنة ٣٥١ هـ ، وهو غير نيقيفور ملــك الروم الذي عاصر هارون الرشيد ، انظر : تاريخ مختصر الدول ، لابن العبري ، ص ٢٢٣ و ٢٩٣ •
٢٥ـ قلعة شيزر ، ص ١٢ •
٢٦ـ وفيـات الاعيـان ٤٠٩/٣ •
٢٧ـ يبدو ان الاسماعيلية كانت تغير على « شيزر » بيـن الفينة والفينة ، من ذلك انها احتلتها ليوم وليلة ثمّ استرده القلعة اهلها ، وكان ذلك في عيد الفصح سنة ٥٠٧ هـ، (انظر : تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٣٠٣ـ٣٠٤) • ويذكر اسامـة بن منقـذ في كتابه : « لباب الاداب » (ص ١٩٠) ان الاسماعيلية احتلتها سنة ٥٢٧ هـ •
٢٨ـ صبح الاعشى ٤٥٧/١ و ١٩٥/٤ ، والروضتين ١١١/١، والاعتبار، ص ١٧ وما بعدها ، ولباب الاداب ، ص ١٩٠ •
٢٩ـ القلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٧٠ •
٣٠ـ قلعة شيزر ، ص ١٧ ، والقلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٧٠ •
٣١ـ الروضتين ١١١/١ ، ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص ٣٨٠ ، وصبح الاعشى ٣١٦/١ •
٣٢ـ الاعتبار ، ص ١٥ وما بعدها ، والروضتين ١١١/١ ، واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣٠/٢ ، وبغية الطلب في تاريخ حلب ١٤٥/١ ، ومعجم الادباء ٢٢١/٥ •

٣٣ـ الروضتين١/١١٢، واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء٢/٣١ـ٣٢ ، والكامل في التاريخ ١١/٢١٩ .

٣٤ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٣٢ـ٣٣ ، والروضتين ١/١١٢ ، والكامل في التاريخ ١١/٢٢١ .

٣٥ـ الروضتين ١/١١٢ ، ومعجم الادباء ٥/٢٢٦ـ٢٢٧ و ٢٣٠ .

٣٦ـ الروضتين ١/١١٢ ، والبداية والنهاية ١٢/٢٣٦ ، والنجوم الزاهرة ٥/٣٢٥ ، وشذرات الذهب ٤/١٦٠ ، وعيون الروضتين ١/٢٤١ ، وتاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٥١٤ـ٥١٥ ، في حوادث سنة ٥٥١ هـ و ٥٥٢ هـ .

٣٧ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٢٦ ، والكامل في التاريخ ١١/٢٢١ .

٣٨ـ البداية والنهاية ١٢/٢٣٦ ، وبغية الطلب ٤/١٩٦١ ، يقول ابن العديم في بغية الطلب ١/١٤٦ : سلمت الخاتون ـ بنت بوري ابن طغتكين شمس الملوك ـ وحدها ، ونشبت من الردم وخلصت، وجاء نورالدين محمود الى شيزر وطلب منها ان تعلمه بالمال وعدّدها ، فذكرت له ان الردم سقط عليها وعليهم ، ونشبت هي دونهم ولا تعلم بشيء ، وان كان لهم شيء فهو تحت الردم ، وكان شرف الدولة غائبا فحضر بعد الزلزلة ، وعاين ما فعلت بشيزر واهله ، وشاهد امرأة اخيه بعد العز في ذلك الذل ، فقال : (من الكامل)

تبدّلت عن كبرها بتواضع ... وتعوّضت عن عزّها بتذلل

٣٩ـ الروضتين ١/١٠٤ .

٤٠ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٣٠ .

٤١ـ ديوان عمادالدين الاصفهاني ، ص ١٢٦ ، والروضتين ١/١٨٤ ، وعيون الروضتين ١/٢٩٦ .

☆ ☆ ☆

☐ المصادر والمراجع :

ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، المقدسي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٧ .

ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، محمد راغب الطباخ ، تحقيق محمد كمال ، دار القلم العربي ، ط ٢ ، حلب ١٤٠٨/١٩٨٨ .

ـ البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ، ط ٦ ، بيروت ١٤٠٥/١٩٨٥ .

ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ، ابن العديم ، تحقيق د. سهيل زكّار ، دمشق ١٤٠٨/١٩٨٨ .

ـ تاريخ شيزر ، د. معروف عزيز نايف ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٢ .

ـ تقويم البلدان ، عمادالدين محمود ، تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٨٤٠ .

ـ ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٨٤ .

ـ ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

ـ الروضتين في اخبار الدولتين ، أبو شامة ، دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٤ .

— الروض المعطار في خبر الاقطار ، محمد بن عبدالمنعم الحميري ، تحقيق د. احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠ ·

— شذرات الذهب ، ابن العماد الحنبلي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) ·

— صبح الاعشى ، القلقشندي (مصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والارشاد) القاهرة (د.ت) ·

— عيون الروضتين في اخبار الدولتين ، ابو شامة ، تحقيق احمد البيسومي ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩١ ·

— القلاع ايام الحروب الصليبية ، فولفغانغ مولر ـ فينر ـ ترجمة محمد وليد الجلاد، دار الفكر، ط٢ ، دمشق١٩٨٢ ·

— قلعة شيزر، كامل شحادة، المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٨٥ ·

— الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢ ·

— كتاب البلدان ، اليعقوبي ، دار احياء التراث العربي ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨ ·

— لباب الآداب ، اسامة بن منقذ ، تحقيق احمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥ ·

— مراصد الاطلاع ، صفي‌الدين البغدادي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، ط ١ ، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤ ·

— المسالك والممالك ، ابن خرداذبة ، تحقيق د. محمد مخزوم ، دار احيـاء التـراث العربي ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨ ·

— معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) ·

— معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩ ·

— معجم ما استعجم ، البكري ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، ط ٣ ، بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ ·

— النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، طبعة مصورة عـن طبعة دار الكتب ، القاهرة (د.ت) ·

— نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، شمس‌الدين محمد الانصاري ، ليزيج ١٩٢٣ ·

— نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الشريف الادريسي ، عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٩/١٩٨٩ ·

— وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ ·

✡ ✡ ✡

□ الـــدوريـــات :

— مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد العاشر) ، الجزء الرابع١٩٣٠) اسامة بن منقذ، الاستاذ طاهر النعساني·

— مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد العاشر) ، الجزء التاسع ١٩٣٠) درس في حياة اسامة بن منقذ ، فيليب حتي ·

✡ ✡ ✡

مَصادر شعرِ عوف بن عطية بن الخرِع

د. إسلم بن السبتي

لا يزال الشاعر عوف بن عطية(١) يسكنني ويشدني اليه كلما حاولت الانفكاك من أسره فهو كل يوم يمدني بمادةجديدة أعود اليها بعدما ظننت انني اوفيته حقه من الدراسة والبحث .

واراني في هذا البحث اقبل على مصادر شعره التيرافقتهازمنا طويلاً حتى اتحفتني بما جمعته من شعره(٢) وكون مادة وافيةلتقديم دراسة علمية عن حياته واساليبه الفنية وساقدم هذا البحث من خلال النقاط التالية :

١ - ديوانه .

٢ - رواية شعره .

٣ - شعره في القرنين الثاني والثالث .

٤ - شعره في مصادر مابعد القرن الثالث.

١ - ديوانه :

ان العناية بدراسة أي شاعر من الشعراءلا بد أن تنطلق من النظر في ديوانه أولا وقبل كل شيء ثم بعد ذلك يتم النظر في المصادر التي تعنى به قصد تكوين صورة واضحة عن حياته . واذا لم يتوافر ديوان الشاعر فانجمع شعره يقوم مقام ديوانه وهكذا فانني منذ عزمت على دراسة شعر عوف بن عطيةكثفت جهودي في البحث عن ديوانه ، فحرثت فهارس مكتبات العالم العربي والاسلامي، واطلعت على ما وصلت اليه يداي من فهارس المكتبات الأوروبية ، فلم أعثر له على عثير . وقد عزمت على جمع الشعر وشرحه الى ان يقيض الله لهذا الديوان أن يظهر في احدىخزائن العالم خاصة أن هذا الديوان قرأه ياقوت الحموي وأخذ بعضا من شعره(٣) بل انه كان عند البغداديفيالقرن الحاديعشر(٤) .

ونحن هنا سنحاول جمع بعض الاشارات التي وجدناها في المصادر عن ديوان عوف وعن أشعاره ثم نردف ذلك بدراسة شعره من مصادر القرنين الثاني والثالث وما بعدهما ·

أن ما وصلت اليه يداي من المصادر لايكاد يفيدنا في حل كثير من الأسئلة التي نطرحها حول ديوان عوف ، فمثلا هل وصلت نسخة من هذا الديوان الى عصر التدوين حتى يأخذ سيبويه بعضاً من أبياتها للاستشهاد بهـا في الكتاب(٥) ويختار المفضل بن محمد بن يعلى الضبي بعضاً من قصائده في مختاراته الموسومة بالمفضليات(٦) ؟ أم أنه كان قطعة من أشعار الرباب التي صنعها المفضل وحماد(٧) ؟ وهل كان الديوان كبيراً وضاع منـه الكثير حتى وصل الى عصر البغدادي ، فوصفه بأنه كان ديواناً صغيراً يمتلكه شخصيا(٨) ؟· كل هذه التساؤلات وغيرها لا نجد لها جواباً ·

غير أننا يمكن ان نقول بأن شعر عوف بن عطية قرأه السهيلي وهو من علماء القرن السادس الهجري قراءة دقيقة ومتفحصة مما دعا به أن يجعله دليلاً على حكم أصدره في شأن القذف بالنجوم · قال السهيلي : معلقاً على ابن هشـام على أن القـذف بالنجوم معروف قديماً ، وهو موجود في أشعار القدماء من الجاهليين ، منهم « عوف بن عطية ، وأوس ابن حجر ، وبشر بن أبي خازم ، وكلهم جاهلي · وقد وصفوا الرمي بالنجوم وأبياتهم مذكورة في مشكل ابن قتيبة في تفسير سورة الجن »(٩) ·

وبالاضافة الى السهيلي نجـد ياقوت الحموي ، وهو من علماء القرن السابع الهجري يقرأ شعر عوف بن عطية ليستقي منـه مادة معجمه· يقول في معرض حديثه عن الرشاء : « والرشاء ممدود ، اسم موضع وهو حرف غريب نادر ما قرأته الا في شعر عوف بن عطية »:

نقـود الجيـاد بأرسانهـا يضعن ببطن الرشـاء المهارا(١٠)

فياقوت الحموي هنا يقرأ شعر عوف بن عطية ، ويلاحظ غرابة هذا الحرف وندرته ، فلم يقرأه الا في شعر عوف على الرغم من قراءاته الواسعة لأشعار العرب قديمها وحديثها·

والحاصل أن شعر عوف يقرأ في قرنين متتاليين عن عالمين جليلين ، وهذا مما يطمئننا على أن شعر عوف كان يقرأ في تلك القرون، ويحظى باهتمام علمائها ·

وتمر الأيام والليالي ولا نجد من يتحدث عن شعر عوف أو عن ديوانه حتى نصل الى القرن الحادي عشر، حيث البغدادي وخزانته· فنجد أنه اعتمد ديوان عوف مصدراً من مصادر تأليف خزانته ويعدده ضمن عشرات الدواوين وكتب الاختيـار والنقـد والبلاغة والنحو وغيرها(١١) · ويعتبر البغدادي المؤلف الوحيد الذي أشار الى ديوان عوف في أماكن عدة ·

فمن ذلك مثلاً تعليقه على بيت ينسب الى عوف :

فمهما تشـا منه فـزارة تعطكم ومهمـا تشـا منـه فزارة تمنعا

يقول : « البيت غير موجود في ديوان ابن الخرع وانما هو من قصيدة للكميت بن ثعلبة أوردها أبو محمد الأعرابي في ضالة الأديب »(١٢) ·

وهـذا الديوان الذي رأينا البغدادي يشير اليه هنا في محاولة لتوثيق شعـر عوف نجده في مكان آخر من كتابه يصفه وصفاً دقيقاً ، بل ان هناك اشارة أخرى دقيقة ونادرة في الوقت نفسه ، وهي قوله بأنه يتوفر على هذا الديوان وهو في حوزته ، وضمن مكتبته، يقول : «وله ديوان صغير وهو عندي»(١٣) ·

وفي هذه العبارة ما فيها من الدقة والأمانة العلمية ، وهي تنم عما كان يحظى بـه علماؤنا القدامى من نزاهة وصدق في وصف الأشياء ونعتها بأوصافها حتى لا يؤخذ عليهم أي مأخذ في حياتهم العلمية والاجتماعية ·

غير أن هناك اشارة من البغدادي ربما تفيدنا في بناء ملاحظات أخرى وهي قوله : قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرح ديوانه(١٤) ـ أي ديوان عوف بن عطية ـ وعلى هذا الأساس نتساءل قائلين : هل كان البغدادي يتوفر على الديوان كما أشار هو عينه بالاضافة الى نسخة مشروحة أخرى ؟ أو أن الديوان والشرح كانا في نسخة واحدة ؟·

والراجح عندي أن البغدادي كان يتوفر على نسخة من ديوان عوف خالية من شـرح السكري ، مما دعا به الى أن يصفها بقوله : وله ديوان صغير وهو عندي(١٥) · ثم نسخة منفردة بشرح السكري لأننا لا نجد أية اشارة تفيد بأن نصوص الديـوان كانت مشروحـة ضمن نسخة الديوان مما دعا بنا أن نجنح الى هذا الرأي حتى تثبت الدلائل عكس ذلك ·

ان مقولة البغدادي : وله ديوان صغير وهو عندي ، تثبته الدلائل المادية ، ذلك أن ما جمعناه من شعر يعطينا صورة تقريبية من كون هذا الديوان كان ديواناً صغيراً بحكـم ما كان يجمع بين دفتيه من شعـر ، فمقداره حسب ما أحصيت وجمعت قد لا يزيد كثيراً على ١٣٠ بيتاً · وهو قليل جداً اذا ما قورن بغيره من الشعراء ، وبمركزه الاجتماعي الذي يحتم عليه أن يكون اللسان الوحيد لقبيلتـه المدافع والذاب عن حماها وعرضها ، وخاصة أن المصادر تصفه بأنه كان أحد شعراء العرب وفرسانها(١٦) ·

والذي نصل اليه بعد هذا العرض أن ديوان عوف بن عطية كان موجوداً في القـرن الحادي عشر الميلادي عند البغدادي ، وهـو ديوان صغير وذكر له شارحاً شهيراً هو السكري الحسن بن الحسين المولود سنة ٢١٢هـ والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ · وهو من العلماء الذين خلطوا بين المذهبين: البصري والكوفي(١٧) · فقد روى عن أبي حاتم السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي ، وعن محمد بن حبيب ويعقوب بن السكيت ، وقد اشتهر السكري بكثرة الجمع والاستقصاء حتى قالوا عنه انه : « كان اذا جمع جمعاً فهو الاستيعاب والكثرة »(١٨) ·

وعرفوه بأنه : « الراوية الثقة المكثر »(١٩) · وقد عرف السكري بشرحه للدواوين المفردة ودواوين القبائل ، فقد ذكر أبو الفرج محمد بن اسحاق المتوفى سنة ٣٨٥ هجرية ، في الفهرست ثمانية وعشرين ديواناً من القبائل ، وكلها منسوبة الى صانعها ، وهـو في أكثرها أبو سعيد السكري ما عدا ديواناً واحداً نسبه الى ابن الكلبي · ولم يذكر من بينها أي ديوان للرباب ، كما فعل الآمدي ، ولعل أشعار الرباب التي ذكرها الآمدي لـم تصل الى ابن النديم ، الا أن يكون قصد بها أشعار تميم ، وهو احتمال ضعيف جداً ويقوي ضعف

هذا الاحتمال أن ابن النديم حينما ذكر الدواوين المفردة التي صنعها السكري لم يذكر من بينها ديوان عوف بن عطية .

ونتبين من الاشارات التي وصلت الينا أن السكري كان في شرحه لديوان عوف راوية وشارحاً في الوقت نفسه ، فقد اعتمد على الخلفية التاريخية قبل أن يشرح الأبيات . فقال في تبيان المناسبة التي قيلت فيها قصيدته الميمية :

همـا إبـلان فيهمـا ما علمتـم   فـأدوهما إن شئتـم ان نسالمـا

« أقبل أهل بيت من ربيعة بن مالك بن زيد مناة وهم بنو الأعشى حتى نزلوا وسط الرباب ، فأغار عليهم بنو عبد مناة بن بكر بن سعد بن ضبة ، فأخذوا ابلهم فقال بنو الأعشى انظروا رجلاً من الرباب له منعة وعز فادعوا عليه جواركم لعله يمنعكم أو تلبسوا بين القوم شراً ، فأتوا عوف بن عطية بن الخرع فقالوا يا عوف أنت والله جارنا ، وقد أخبرنا قومنا أنا نريدك فانطلق عوف الى عبد مناة فقال أدوا هؤلاء ابلهم فأخذوا يضحكون به فقالوا ان شئت جمعنا لك ابلاً وان شئت عقلنا لك فقال : أما عندكم غير هذا ، فقالوا لا ، فانصرف عنهم فقال لبني الأعشى اتبعوا مصادر النعم حتى اذا أوردوا قال : يا بني الأعشى لا تقصروا خذوا مثل ابلكم فأخذوا ثم انطلقوا حتى نزلوا معه على أهله فجاءه بنو عبد مناة فقالوا ياعوف ما حملك على ما صنعت قال الذي صنعتم حملني . فأخذ يلعب بهم ، وقال : ان شئتم جمعنا لكم وان شئتم عقلنا لكم »(٢٠) .

ولا اخال أن فهم هذه القصيدة يكون بمنأى عن المناسبة التي قدمها السكري .

والى جانب اهتمام السكري بالأخبار التاريخية وعدّه اياها ركيزة اساسية من الركائز التي يجب ان يعتمد عليها في فهم معاني الشعر واستكناه خلفياته فانه كان يعتمد كذلك على الجوانب اللغوية والنحوية ، ونرى امثلة لذلك فيما اورده لنا البغدادي من شرح لأبيات الميمية . قال : وقوله : « وان شئتم اللقحتم ، قال السكري : يقول : ان شئتم فردوها او تلقحونها وتنتجونها وتردونها باولادها . وعين بعين : اي ردوها باعيانها حتى نردها باعيانها . ويقال : قد نتجت الفرس أو الناقة فهي منتوجة ، وفرس نتوج في بطنها ولد »(٢١) .

ثم يضيف ، قال السكري : ان صار الأمر على عقل أخيكم الذي أخذت ابله فاعقلوا بنات المخاض والبكار المقاحم ، أي اجمعوا له الرذالة فأدوها اليه ، وهذا هزء بهم .

وقوله : جزيت بني الأعشى ، قال السكري : « المخاض : الحوامل ، واحدتها خلفة . واللقاح : ذوات الألبان واحدتها لقحة ، بكسر فسكون . ويقال أيضاً لقوح والجمع لقح . والروائم : جمع رائم وهي التي أحبت ولدها وعطفت عليه ، يقال قد رئمته أمه رئماناً ، ورأمتها : ما عطفت عليه من ولد غيرها أو بو »(٢٢) .

وعلى هذا النسق يمضي أبو سعيد السكري في شروحه كلها موليا النواحي اللغوية والنحوية أهمية كبرى . أما الشرح الأدبي فاننا لا نظفر منه الا ببعض الاشارات القليلة

كان يفسّر البيت باجمال ولكنه سرعان ما يعود الى شرح الكلمات وذكر أقوال جهابذة اللغة من العلماء(٢٣) •

وعلى هذه الصورة التي رأينا عليها هذا الاستشهاد ، واعتماداً على الاشارات الطفيفة التي قدمناها من خلال نقلنا عن البغدادي الذي كان يمتلك نسخة من الديوان فاننا نرى أن السكري في شرحه لديوان عوف قد اتبع نفس المنهج الذي اعتمده في شروحه التي وصلت الينا ومن أشهرها شرح أشعار الهذليين ثم شرحه لديوان كعب بن زهير •

٢ ـ رواية شعره :

لم نجد في المصادر التي رجعنا اليها أية أخبار توضح لنا كيفية وصول شعر عوف بن عطية الى القرن الثاني الهجري حتى يستشهد به سيبويه في كتابه ويختار منه المفضل في مختاراته• فاننا مع ذلك نعتقد أن شعر عوف قد وصل الى عصر التدوين عن طريق الرواية• ففي القرن الأول لا نجد شيئاً عن رواية شعر عوف حتى نصل الى القرن الثاني الهجري ، فنرى الآمدي يقول: ووجدت في أشعار الرباب من المفضل وحماد(٢٤) • وهذه الاشارة قد تحتمل أن ديوان الرباب كله عن المفضل وحماد ، وقد تعني أن في هذا الديوان شعراً عنهما كان من جملته هذا الشعر الذي أورده(٢٥) •

فهذان الراويتان قد صنعا شعر الرباب ونرجح أن يكون ديوان عوف ضمن أشعار الرباب ، لأن كتاب القبيلة أو ديوانها كان يضم بين دفتيه قصائد كاملة ومقطعات صغيرة، وأبياتاً متفرقة لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها وربما ضم أكثر شعر هؤلاء الشعراء، بل ربما ضم جميع شعر شاعر منهم وديوانه كاملاً ، ثم يضيف الى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه أو بأفراد قبيلته وما يوضح مناسبات القصائد ويفسر بعض أبياتها ويبين ما فيها من حوادث تاريخية(٢٦) •

ان مقولة الآمدي السابقة لا توضح ما اذا كان ديوان الرباب من صنعة حماد والمفضل ومن جمعها مع أن هناك من يثبت : « أن كتب القبائل كانت مكتوبة معروفة قبل مطلع القرن الثاني الهجري، وأن الرواة من رجال الطبقة الاولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الاول الهجري فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم لنسخهم التي نسبت روايتها اليهم »(٢٧) •

وعلى هذا فانا أرجح أن يكون حماد والمفضل من رواة شعر عوف ، ومن الذين أوصلوه الى عصر التدوين ، ويؤيد هذا الترجيح أن المفضل اختار مما نعتقد أنه رواه ثلاث قصائد تكون الجزء الأكبر من شعره وأثبتها في مختاراته ، وهذا الجزء هو الذي يكون الرواية الكوفية لشعر عوف • تنضاف اليه رواية حماد على الرغم من أننا لم نجد له أي شعر يرويه رواية مباشرة •

أما الرواية البصرية فيمثلها الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦) هجرية ، ونعتقد أن ما أثبته في الأصمعيات يمثل تلك الرواية البصرية ، وقد أثبت قصيدتين لم

يثبتهما المفضل ، وان كان قد اجتزأ احداهما وترك منها بعض الأبيات ، فقد روى قصيدة عوف التي يبدؤها بقوله :

هما ابلان فيهما ما علمتمْ   فادوهما ان شئتم ان نسالما

فهي عنده ثلاثة عشر بيتاً(٢٨) • ولكن البغدادي في الخزانة يقول معلقاً على شطر بيت من القصيدة : « والشعر الثاني هو لعوف بن عطية بن الخرع التيمي والمصراع أول قصيدة عدتها سبعة عشر بيتاً»(٢٩) • فالأصمعي قد يكون له رأي في تلك الأبيات ، كأن يعدّها منحولة على عوف فلا يثبتها في روايته لأنه عالم البصرة المتفحص ، والذي يعتمد على شروط دقيقة في رواية الشعر من دون تكثر ولا زيادة • ولم يقتصر الأصمعي على رواية ما أثبته في الأصمعيات ، بل نجد اشارة اخرى تثبت أنه روى كذلك رائية عوف الطويلة والشهيرة والتي رواها المفضل وأثبتها في اختياراته •

ففي شرح التبريزي على المفضليات بعدما أثبت رواية المفضل للبيت :

احيي الخليل واعطي الجزيل   ومالي افعل فيه اليسارا

فيردفها مباشرة بقوله : رواية الأصمعي :

أحابي الخليل واعطي الجزيل   ومالي افعل فيه اليسارا(٣٠)

وهذه الرواية منسوبة الى أحمد بن عبيد ينسبها الى الأصمعي ، كما ذكر الأنباري في شرحه(٣١) •

والى هنا نكون قد وضعنا أيدينا على روايتين لشعر عوف : الأولى بصرية ، وهي رواية الأصمعي عبد الملك بن قريب راس مدرسة البصرة ، والرواية الثانية كوفية ، وهي عن عالمين جليلين من علماء الكوفة هما المفضل الضبي العالم المحقق ، وحماد الراوية شيخ مدرسة الكوفة الى جانب صديقه المفضل • ومن هتين الروايتين جمع السكري ديوان عوف وشرحه في القرن الثالث الهجري وبقي هذا الشرح متداولاً حتى وصل الى خزانة البغدادي في القرن الحادي عشر الهجري الذي كان البغدادي يعيش فيه ، فيصفه بأنه كان ديواناً صغيراً ثم يأخذ عن شرح السكري لهذا الديوان في بعض الأماكن من تاليفه ذاك •

٣ ـ شعره في القرنين الثاني والثالث :

رأينا فيما سبق أن الآمدي يذكر في كتابه المؤتلف والمختلف أن حماداً والمفضل قد صنعا أشعار الرباب ، وساعتها رجحنا أن يكون ديوان عوف بن عطية ضمن ذلك المجموع • الا أننا عرفنا أكثر أن ديوان عوف وجد عند البغدادي في القرن الحادي عشر الميلادي ، وأن السكري هو شارح ذلك الديوان ، وان كنا الآن لا نتوفر الا على ما حملته

لنا المصادر المختلفة ، ولا ندري هل نقلت تلك المصادر أبياتاً لعوف أو قصائد لم ترد في الديوان ، ذلك لأن صنع ديوان جاهلي أو اسلامي ، لم يكن يضم شعره كله، وانما يضم في الغالب ما اختاره صانع الديوان أو ما وقع له عن طريق رواة معينين وبذلك تبقى بعض القصائد أو الأبيات متناثرة في الكتب والمصنفات المختلفة ولا وجود لها في الديوان نفسه(٣٢) ٠

ولهذا لا بد أن نتتبع هذه المصادر لا من حيث نوعها أو موضوعاتها وانما بالنسبة الى ظهور هذا الشعر فيها تاريخياً لنرى كيف تدرج ظهور شعر عوف في تلك المصادر، وهذه النظرة التاريخية الى مصادر شعر عوف تقدم فائدة جلى لدراسة المنحول من شعره ، ذلك لأنها تضع بين أيدينا على الأقل نوع المصادر التي أوردته واهتمت بروايته ٠

وقد أفردنا مصادر القرنين الثاني والثالث ، لأنها صنعت في الفترة التي صنع فيها ديوان الرباب أو ديوان عوف ، أو كان بعضها قريب العهد من صنع هذا الديوان ٠ ثم لأن هذه الكتب كانت موضعاً ثراً لما بعدها من مصنفات ٠ وهذا ما يدعو الى شيء من العناية في دراسة هذه المصادر وخاصة منها تلك التي أوردت طائفة كبرى من شعر عوف٠

واقدم ما بين ايدينا من المصادر يعود الى القرن الثاني الهجري امثال الكتاب لسيبويه(ت١٨٠) هجرية ، والمفضليات للمفضل الضبي (ت ١٧٨)هجرية ٠ ومعروف أن مؤلف سيبويه ذو طبيعة نحوية ، يرغب صاحبها في معرفة وايجاد الشاهد للقاعدة التي يريد ان ينشئها ، ومن هنا فان اي شعر لا يجد فيه النحوي المثال الذي يبحث عنه لا يدرجه ابدا في مؤلفه ، ولذلك فاننا لا نجد في كتاب سيبويه من شعر عوف إلا أبياتاً قليلة وهي ثلاثة ابيات احدها من الرائية الشهيرة ، وثانيها من ابياته الدالية المبدوءة بقوله :

هلا فوارس رحرحان هجوتهم   عشرا تناوح في سرارة وادي

وقد نسب البيت الى النابغة الجعدي ، وهو ثابت النسبة لعوف في جميع المصادر التي ذكرته ٠ وبيت ثالث هو :

فمهما تشا منه فزارة تعطكم   ومهما تشا منه فزارة تمنعا

والبيت مختلف في نسبته من عوف بن عطية الى الكميت بن معروف أو الكميت بن ثعلبة ٠ وواضح عدم التحري والدقة في اثبات هذه الأبيات ، فقد أصاب سيبويه في أولهما وأخطأ في ثانيهما ، وخلط في الثالث اذ نسبه الى عوف وهو مختلف النسبة ، وعذره أنه عالم قواعد يبحث عن المثل والشاهد ولايهتم بصحة نسبة البيت الى صاحبه الأصلي٠

وأما المصدر الثاني فهو ديوان المفضليات من كتب الاختيار وهي أقدمها اذ لم يختر أحد شيئاً من الشعر وجمعه في مجموعة مستقلة قبله الا مايمكن أن يقال عن أمر المعلقات(٣٣) ٠

وصاحب هذه الاختيارات هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، رأس علماء الكوفة٠ ولسنا هنا بصدد دراسة المفضليات والاعتناء بصاحبها لأن أمرهما مشهور ذائع الصيت(٣٤) ، وانما يعنينا منها ما أورده من أشعار عوف بن عطية ٠ فقد أورد المفضل في

إختياراته ثلاث قصائد أولاها الرائية الشهيرة وعدة أبياتها اثنان وأربعون بيتاً ، أضفنا اليها بيتاً آخر وجدناه في كتاب الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى • ثم ذكر له قصيدتين رائيتين كذلك ، وتعداد كل قصيدة سبعة أبيات • وعلى هذا يعتبر المفضل في المرتبة الأولى من حيث رواية شعر عوف اذ بلغ اجمالي ما أثبت له ٥٦ بيتاً وهو مقدار لا بأس به ، وكله صحيح النسبة لعوف •

وعلى كل فان مصادر القرن الثاني على قلتها لم يظهر فيها الوضع ، وما رأيناه عند سيبويه لايعدو خطأ في نسبة الشعر الى صاحبه الحقيقي ، وهذا النوع لا يضر بقيمة الشعر وتوثيقه •

اما في القرن الثالث فعلينا أن نتوقع مزيداً من المصادر اذ بلغت حركة التاليف ذروتها ووصلت الى مرحلة كبيرة من النضج • فبرز الى حيز الوجود رواة مصنفون في النحو واللغة والادب والتاريخ • وفي هذا القرن نجد من المصادر: معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٤) هجرية ، والنقائض ومجاز القرآن لابي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) هجرية، والأصمعيات والخيل للأصمعي ، عبدالملك بن قريب (ت ٢١٦) هجرية، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢) هجرية، وتهذيب الالفاظ والابدال لابن السكيت (ت ٢٤٤) هجرية ، والحيوان والبيان والتبيين والبرصان والعرجان للجاحظ (ت ٢٥٥) هجرية ، ومعاني الشعر للأشناندانى (ت ٢٥٦) هجرية، والمعاني الكبير وادب الكاتب وتاويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦) هجرية ، والكامل والمقتضب للمبرد (ت ٢٨٥) هجرية ، ومجالس ثعلب (ت ٢٩١) هجرية •

وهذه المصادر تمتاز بكونها ألفت في القرن الذي جمع فيه السكري (ت ٢٧٥) هـ ، ديوان الشاعر وشرحه ، ولذلك فقد أوردت معظم ما جمعناه من شعر لعوف وكررت بعض الأبيات من رائيته الطويلة ، ومع ذلك فقد بقي علينا بعض أشعار عوف لم تذكرها مما ستذكره المصادر التي سنتحدث عنها لاحقاً •

وهذه المجموعة من المصادر موثقة ورواتها ومؤلفوها ثقات مبرزون وعلى رأس هؤلاء الأصمعي رأس مدرسة البصرة • ومحمد بن سلام الجمحي الذي قدم لكتابه بمقدمة قيمة تعرض فيها لنظرية انتحال الشعر ومضى يطبق آراءه في المقدمة على شعر الشعراء داخل متن الكتاب • ولم يكن عوف ممن تعرض للوضع والانتحال اذ لم يتحدث عن هذا الموضوع في ترجمته له واستعراض أخباره وأشعاره(٣٥) •

والذي نجده في هذه المجموعة ممن يشير الى الوضع في شعر عوف هو أبو عبيدة ، وكان ذلك في أبياته الدالية :

هلا فوارس رحرحان هجوتم ... عشراً تناوح في سرارة وادي

والبيتان :

ما زال حَيْنكُمْ ونقص حلومكم ... حتى بلوتم كيف وقع الأسود

وقبائل الأحلاف وسط بيوتكم ... يتعلَّلونَ هامكم بكل مُهنّد

ومهما يكن من أمر فان أهم المصادر على الاطلاق هي كتب الأصمعي ، فقد أورد في أصمعياته اثنين وعشرين بيتاً · وأورد بيتاً وعجز بيت من الرائية الطويلة التي في المفضليات · وما أورده في الأصمعيات جديد كله لم يرد في مصادر القرن الثاني · ثم يلي ذلك كتب ابن قتيبة وقد أورد له أربعة وعشرين بيتاً، أغلبها من الرائية الطويلة المفضلية · والأبيات الثلاثة التي توجد في النقائض، وأبيات ثلاثة من الأصمعية (هما ابلان فيهما ماعلمتم..)

والجديد في كتب ابن قتيبة ، بيت واحد هو :

ولقد أراك ولا تؤبن هالكا   عدل الأسرة في السنام الأكوم

وعجز بيت هو : (شدوا المطي على دليل دائب) · وفيه بيت منسوب الى عوف ابن الأحوص وينسب لابن الخرع · وتقسيم ذلك يكون على النحو التالي : تسعة عشر بيتاً في المعاني الكبير ، وبيتان في أدب الكاتب، وثلاثة أبيات في تأويل مشكل القرآن · وابن قتيبة موثق أيضاً ، قال فيه البغدادي : « كان رأساً في العربية والأخبار وأيام الناس ، ثقة ديناً فاضلاً »(٣٦) ·

ويلي ذلك كتب أبي عبيدة اذ أورد ثلاثة عشر بيتاً في النقائض وبيتاً واحداً في مجاز القرآن ، وقد لاحظنا سابقاً أن أبا عبيدة شكك في بعض الأبيات التي أوردها لعوف ·

ويلي ذلك كتب الجاحظ اذ أورد لعوف ستة أبيات في البيان والتبيين وأربعة أبيات في البرصان وبيتين في الحيوان · وأغلب تلك الأبيات لم ترد في مصادر القرن الثاني ولا في المصادر التي تحدثنا عنها سابقاً ·

والجاحظ موثق أيضاً وكتبه : « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً(٣٧) ·

ثم يأتي ابن السكيت في كتابيه ، اذ أورد لعوف ستة أبيات في تهذيب الألفاظ وبيتاً واحداً في كتاب الابدال ، وكلها أبيات قد وردت في المصادر السابقة ، ومثلها ما أوردته باقي مصادر القرن الثالث · فالمبرد أورد بيتاً في الكامل وبيتاً آخر في المقتضب · وابن سلام أورد خمسة أبيات في الطبقات · وأربعة أبيات في مجالس ثعلب ولم ينسبها لعوف · وهي الأبيات الدالية الشهيرة التي وردت في النقائض وطبقات فحول الشعراء ، وبيتاً في معاني القرآن للفراء ، وأخيراً يأتي الأشنانداني ببيت يتيم في كتابه معاني الشعر من دون أن ينسبه الى عوف ·

٤ ـ شعره في مصادر ما بعد القرن الثالث :

لقد رأينا حينما كنا نستعرض مصادر شعر عوف في القرنين الثاني والثالث أن هذه المصادر كانت كتب اللغة والأدب ، أما في القرن الثالث فقد أصبحت مصادر شعر عوف تضم أنواعاً متعددة منها ما له صلة بموضوعات الشعر العربي القديم ومنها ما له صلة بنحو اللغة أو صرفها أو ألفاظها ومنها ما يتصل بمواضع الجزيرة العربية الى غير ذلك ·

وإذا أردنا أن نبحث عن شعر عوف في مصادر ما بعد القرن الثالث فعلينا أن نتجه الى كتب اللغة والأدب أمثال كتب الأمالي والتراجم والمعاجم وما اليها • وبعدها ننظر في كتب التاريخ ، كتاريخ ابن جرير الطبري، وثمة جزئيات قد نبحث عنها في المصادر التي تعنى بمواقع جزيرة العرب ، أمثال معجم البلدان لياقوت الحموي ، ومعجم ما استعجم للبكري الى غير ذلك من أمثال هذه المصادر•

وسنلقي نظرة تاريخية سريعة على تلك المصادر ، نحاول من خلالها أن نقف على تدرج ظهور شعر عوف خلال هذه القرون كالذي صنعنا في مصادر القرنين الثاني والثالث.

في القرن الرابع بلغ التاليف مرحلة النضج الكامل ، فظهرت المصادر الكبرى الجامعة في مختلف انواع التاليف يومئذ سواء في اللغة او في الادب او في التاريخ او التفسير الى غيرها • ثم ظهرت مرحلة تالية على التاليف وهي مرحلة الشروح على المختارات في القرن الثاني وكذا كتب النحو • ومن ذلك شرح المفضليات لابن الأنباري • وعلى اساس من ذلك نعدد مصادر القرن الرابع على النحو التالي: تاريخ الامم والملوك وجامع البيان في تفسير القرآن للطبري (ت ٣١٠) هجرية، وكتاب الاختيارين للاخفش (ت ٣١١) هجرية ، والاشتقاق والجمهرة لابن دريد (ت ٣٢١) هجرية ، وابن الانباري في الزاهر (ت ٣٢٨) هجرية، وإعراب القرآن المنسوب للزجاجي (ت ٣٣٧) هجرية ، وشرح أبيات سيبويه لابن النحاس (ت ٣٣٨) هجرية، والاغاني لابي الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦) هجرية ، والموازنة للآمدي (ت ٣٧٠) هجرية، وتهذيب اللغة للازهري (ت ٣٧٠) هجرية ، والانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطي (ت ٣٨٠) هجرية ، ومعجم الشعراء للمرزباني (ت ٣٨٤) هجرية ، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافي (ت ٣٨٥) هجرية ، والاشباه والنظائر للخالديين (ت ٣٨٠-٣٩٠) هجرية ، والخصائص لابن جني (ت ٣٩٢) هجرية ، والصحاح للجوهري (ت ٣٩٣) هجرية ، والصاحبي في فقه اللغة للثعالبي (ت ٣٩٥) هجرية •

وفي مصادر القرن الرابع ما يعيد ويكرر ما أوردته مصادر القرنين الثاني والثالث، ومنها ما يضيف جملة جديدة من أشعار عوف• فالأخفش في كتابه الاختيارين يضيف قصيدة كاملة تعداد أبياتها ثلاثة عشر بيتاً لم ترد في المفضليات ولا في الأصمعيات ، وهي في وصف الفرس •

وابن دريد يضيف بيتاً :

شدوا المطي على دليل دائب   من أهل كاظمة بسيف الأبحر

ثم يضيف بيتاً آخر ينسبه لذؤيب بن كعب • أما المرزباني فيثبت له ثلاثة أبيات في معجم الشعراء • ونصل الى الشمشاطي وهو من علماء القرن الرابع فينسب له ثلاثة أبيات وهي أبيات ثابتة النسبة شهيرة الرواية لقيس بن الأسلت ضمن مفضليته الشهيرة •

ومهما يكن من أمر فالبقية من مصادر القرن الرابع انما توثق وتزيد من تخريج أشعار عوف التي رأيناها في مصادر القرنين الثاني والثالث • وهي كلها مصادر موثوق بها • ولا تضيف أي موضوع من موضوعات شعر عوف الا ما كان من القصيدة التي أثبتها الأخفش وهي في وصف الفرس وهو امتداد لوصف فرسه في رائيته الطويلة •

وفي القرن الخامس نلتقي بمجموعة من مصادراللغة والنقد والادب وعلوم القرآن امثال : إعجاز القرآن للباقلاني (ت ٤٠٣) هجرية ، والممتع للنهشلي القيرواني (ت ٤٣٠) هجرية ، والايناس في علم الانساب لابن المغربي (ت ٤١٨) هجرية ،وانساب الخيل للأسود الغندجاني (ت٤٣٠)هجرية، وأمالي المرتضى (ت ٤٣٦) هجرية ، والمخصص لابن سيده (ت ٤٥٨) هجرية ، والعمدة لابن رشيق (ت ٤٥٦) هجرية ، وشرح ابيات الكتاب للشنتمري(ت٤٨٦) هجرية، وسمط اللآلىء ومعجم ما استعجم للبكري (ت٤٨٣) هجرية ، والافصاح في شرح أبيات مشكلة الاعراب للفارقي (ت ٤٨٧) هجرية ، ومواد البيان لعلي بن خلف الكاتب (من علماء القرن الخامس) .

وهذه المصادر لا تضيف أي جديد لشعر عوف بن عطية سوى ما نجده عند الأسود الغندجاني اذ أثبت له بيتاً لم تروه المصادر في القرون السابقة . والبيت يذكر فيه اسم فرس قيس بن حسان وفخره بها ، وهو بيت لم نجد له ذكراً فيما حصلنا عليه من مصادر .

أما البكري فقد نسب له بيتاً لم تنسبه له المصادر السابقة وهو قوله :

ألم اظلف عن الشعراء عرضي كما ظلف الوسيقة بالكراع

بل هو شهير النسبة الى عوف بن الأحوص .

وفي القرن السادس تصادفنا جملة من المصادر أمثال : محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢) هجرية ، وشرح المفضليات والكافي في العروض والقوافي للتبريزي (ت ٥٠٢) هجرية ، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي (ت ٥٢١) هجرية، وأساس البلاغة للزمخشري (ت٥٣٨) هجرية ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي (ت ٥٣٩) هجرية ، وأمالي ابن الشجري (ت ٥٤٢) هجرية، وسرقات المتنبي لابن بسام (ت ٥٤٢) هجرية .

وجميع هذه المصادر تكتفي بتكرار أشعار عوف الواردة في المصادر التي تحدثنا عنها في القرنين الثاني والثالث ، وكلها تنسب الأبيات نسبة صحيحة الى عوف أو تذكرها من دون أن تنسبها الى شاعر معين ، الا ما كان من الراغب الأصبهاني حينما روى بيت عوف :

لها حافر مثل قعب الوليد تتخذ الفار فيه مغارا

لعوف بن الوليد وهو شخص لا نعرف عنه أي شيء . كما نسب بيته :

وتكر أولاهم على اخراهم كر المعلا من خلاط المصدر

لقيس بن عطية .

ونصل الى القرن السابع فلا نعثر على مصادر كثيرة ولا على أشعار كثيرة، فطبيعة هذه المصادر أنها شروح لمؤلفات قديمة ، كشرح المفصل لابن يعيش (ت ٦٤٣) هجرية،

والرضي علي الكافية (ت٦٨٦) هجرية ، أو أنها مصادر تبحث في البلدان ، كمعجم البلدان لياقوت الحموي (ت٦٢٦) هجرية ،وآخر هذه المصادر ، الضرائر لابن عصفور (ت ٦٦٣) هجرية ٠

وأغلب هذه المصادر انما يذكر البيت أو البيتين ، وأهمها على الاطلاق هو معجم البلدان لياقوت الذي نستدل من بعض تعليقاته على الأبيات أنه قرأ شعر عوف في تلك الفترة أي في القرن السابع الهجري ٠

اما في القرن الثامن فتتضاءل المصادر الى ان تصل الى ثلاثة فقط ، وهي لسان العرب لابن منظور الذي اورد لعوف خمسة عشر بيتا بعضها منسوب اليه والبعض الآخر غير منسوب ٠ وكلها ابيات مذكورة في المصادر السابقة وليس فيها اي جديد ٠ ونهاية الارب للنويري (ت ٧٣٣) هجرية ، يذكر له بيتا من الرائية الطويلة من دون ان ينسبه اليه ٠ وتاتي التذكرة السعدية للعبيدي لتتحفنا ببيت جديد لم نعثر عليه في المصادر التي تحدثنا عنها سابقا ٠ وهو بيت من ابيات ذكرها الجاحظ ولكنه لم يثبته ، وقد اثبته العبيدي مع بيت آخر من تلك الابيات وعنه نقلناه ٠ والظاهر انه كان ساقطا من رواية الجاحظ للأبيات ، وبقي في محفوظ غيره حتى وصل الى القرن الثامن فاثبته العبيدي في مكانه ٠ والبيت في ذكر اعداء قوم الشاعر فانهم جاؤوا قصد الاعتداء ، ولكنهم لم يظفروا بما جاؤوا راغبين فيه ٠ وكم من واحدياتي الى سفاهه وهو عالم بانه لا يستطيع الظفر بما يطلب ٠

واذا انتقلنا الى القرن التاسع فلا نظفر الا بمصدر واحد هو المقاصد النحوية للعيني (ت ٨٥٥) هجرية وهو لا يذكر الا البيت المنسوب الى عوف :

فمهما تشا منه فزارة تعطكم ومهما تشا منه فزارة تمنعا

وينسبه للكميت بن معروف ٠ وهذا كل ما نجده في ذكر لشيء له علاقة بشاعرنا ٠

وفي القرن العاشر نلتقي بمصدرين وهما همع الهوامع للسيوطي (ت ٩١١) هجرية ، وهو يذكر عجز بيت عوف المنسوب له (فمهما تشأ منه فزارة ٠٠) من دون أن ينسبه الى شاعر بعينه ، كما يذكر عجز بيته الآخر :(وذكرت من لبن المحلق شربة ٠٠) والبيت شهير النسبة الى عوف ، الا أن السيوطي يذكر العجز غفلا من أي نسبة ٠ وشرح ألفية ابن مالك للأشموني (ت ٩٢٩) هجرية فلم يثبت الا بيت عوف المختلف النسبة وينسبه للكميت بن معروف٠ وكل الاضافات في القرن العاشر لا تزيد أي جديد ، وليست لها قيمة علمية كبيرة الا ما يمكن أن نسجله من حضور لشعر عوف في ذاكرة علماء هذا القرن ٠

أما في القرن الحادي عشر فتبرز خزانة الأدب للبغدادي (ت ١٠٩٣) هجرية وحيدة فريدة ، ولكنها مع ذلك مصدر عزيز نادر لشعر عوف ، ولا يتجلى ذلك في أنها قدمت لنا أشعاراً جديدة ، بل انها لم تقدم شيئا من ذلك على الاطلاق ، الا أن مصدر أهميتها وندرتها يعود الى أن صاحبها كان يمتلك نسخة خطية صغيرة لديوان عوف وهي بشرح السكري ، وقد أشار الى عدم وجود بعض الأبيات في ديوان الشاعر ، كما أفادنا بأن

الأصمعية التي رواها في ثلاثة عشر بيتاً عدتها سبعة عشر بيتاً ، ولكن هذه الأبيات وهي بحكم الأربعة ضائعة لم نجدها في المصادر التي جمعنا منها شعر عوف ، وبذلك تكون خزانة الأدب من المصادر الهامة التي أشارت الى ديوان عوف كما رأينا سابقاً .

واخيرا نلقي نظرة على مصادر القرن الثالث عشر . فنلتقي بتاج العروس في شرح القاموس للمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) هجرية ، وحاشية الصبان على الاشموني (ت١٢٠٦) هجرية . وهذان المصدران لا اهمية لهما اذ ورد كل ما اثبتناه من شعر في المصادر السابقة ، ثم اننا لا نصادف اي ذكر لديوان الشاعر فيهما فبذلك تتضاءل قيمتهما من حيث جمع شعر عوف وكذلك معرفة أخبار ديوانه . ومن هنا تبقى الاشارة الوحيدة لديوان عوف هي ما تحدثنا عنه في مصادر القرن الحادي عشر حينما رأينا ان البغدادي كان يمتلك نسخة منه .

وتبقى أخبار هذا الديوان مرتبطة بتلك الفترة وحتى ايامنا هذه ، ولا ندري متى تتحفنا الأيام بهذا الديوان لنغير جميع تلك الآراء ونطلق الحكم الفصل في كل ما قدمناه سابقاً .

☆ ☆ ☆

□ الهوامش :

١ ـ هو عوف بن عطية بن الخرع ، والخرع لقب جده عمرو بن عبس ، شاعر مفلق وفارس وسيد من سادات تيم الرباب .
انظر طبقات فحول الشعراء ١٥٩/١ ، معجم الشعراء ١٢٥ ، خزانة الادب ٨١/٣ .
٢ ـ تنشر مجلة « العرب » الغراء ، شعر هذا الشاعر ضمن حلقات متتابعة بقلم كاتب هذه السطور ، وقد نشرت الحلقة الاولى منه في الجزء ٧ و ٨ ، السنة ٣٠ ضمن عدد يونيو ويوليو ١٩٩٥ .
٣ ـ معجم البلدان (الرشاء) .
٤ ـ خزانة الادب ٨١/٣ .
٥ ـ الكتاب ٣٣١/١ و ١٥٢/٢ .
٦ ـ المفضليات : الارقام ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٤ .
٧ ـ المؤتلف والمختلف : ص ٢٢ .
٨ ـ خزانة الادب ٨١/٣ .
٩ ـ الروض الانف : ٢٣٤ـ٢٣٥ وتاويل مشكل القرآن : ص ٣٣٤ .
١٠ـ معجم البلدان ٤٥/٣ .
١١ـ خزانة الادب ٩/١ .
١٢ـ المصدر السابق ٥٦٠/٤ .
١٣ـ المصدر السابق ٨١/٣ .
١٤ـ المصدر السابق ٣٨٣/٣ .
١٥ـ المصدر السابق ٨١/٣ .
١٦ـ المحكم واللسان (خرع) .
١٧ـ الفهرست : ص ١١٧ .
١٨ـ معجم الادباء ٩٤/٨ .
١٩ـ المصدر لسابق .
٢٠ـ خزانة الادب ٣٨٣/٣ .
٢١ـ المصدر السابق .
٢٢ـ المصدر السابق .
٢٣ـ منهج ابي علي المرزوقي في شرح الشعر : ص ٥١ .
٢٤ـ المؤتلف والمختلف : ص ٢٢ .
٢٥ـ مصادر الشعر الجاهلي : ص ٥٤٥ .
٢٦ـ المصدر السابق : ص ٥٥٤ .
٢٧ـ المصدر السابق : ص ٥٥٨ .
٢٨ـ الاصمعيات : ص ١٥٩ .
٢٩ـ خزانة الادب ٣٨٣/٣ .
٣٠ـ شرح التبريزي على المفضليات ١٣٧٧/٣ .
٣١ـ شرح الانباري على المفضليات : ص ٨٣٩ .
٣٢ـ ديوان امية بن ابي الصلت : ص ١٠١ .
٣٣ـ مصادر الشعر الجاهلي : ص ٥٧٣ .
٣٤ـ المصدر السابق : ص ٥٧٣ وما بعدها ، والمفضليات وليقة لغوية وتاريخية ، لعلي علام .
٣٥ـ طبقات فحول الشعراء ١٥٩/١ وما بعدها .
٣٦ـ بغية الوعاة : ص ٢٩١ .
٣٧ـ وفيات الاعيان ١٤٢/١ .